المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد الثاني والثمانين

١ مايو سنة ١٩٣٣ — ٦ محرم سنة ١٣٥٢

أساطين العلم الحديث

مندليف

سيبيريا تنجب متنبئاً كيماوياً

من جوف روسيا الاسيوية خرج متنبئ كيماوي قال: «ثمة عنصر لم يكشف بعد. وقد دعوته «اكا الومنيوم» وسوف يعرف بصفات تشبه صفات الالومنيوم. ابحثوا عنهُ تجدوهُ». كان هذا القول نبوءة جريئة. ولكنها لم تكن اخرى نبوءاته. لانهُ لم يلبث طويلاً حتى تنبأ بعنصر آخر يشبه عنصر البورون. بل انهُ تجرأ وذكر وزن العنصر الذري قبل وجوده. ثم لم يلبث ذلك العنوت العلوي، حتى تنبأ بعنصر ثالث وأتى على بيان صفاته. كانت هذه العناصر الثلاثة مما لم تقع عليهِ عين انسان من قبل، حتى علا صوت هذا الروسي العجيب

كان ذلك سنة ١٨٦٩ وكان عصر العجائب والخوارق قد انقضى. ومع ذلك رأى العالم هذا الكيماوي الذي يشغل منصب استاذ الكيمياء في جامعة مشهورة، وقد اتخذ لنفسهِ وشاحاً كوشاح الانبياء القدامى. هل جمع انباءه من بلورة الساحر، او ذهب الى قمة الجبل حيث هبط عليهِ الوحي فعلَّمهُ ما لم يعلم؟ ولكن هذا النبيَّ الحديث لم يتشح بوشاح الكهنة، بل اعلن تنبؤاتهُ من مختبره الكيماوي، حيث تتعقد المخبرة العناصر غيوماً، صادرة من فرنهِ المشتعل

لا من العلبقة الملتهبة ، وفي هذه الغيوم رأى القاعدة التي بنى عليها اكتشافه الكيمائي العظيم

كان علم الكيمياء ميداناً للتنبؤ العلمي . ذلك ان العالم لافوازيه رأى ان احدى قطعة من القصدير في انبوبة مقفلة شاهدها قد تغيرت شكلاً ووزناً . رأى بعينه الناقدة حقيقة جديدة وتنبأ بوجوه اخرى من التغير قياساً عليها كذلك كان السكير الانكليزي (السر نورمن الذي أسس مجلة نايتشر الانكليزية) قد رأى قبل ذلك السبكترسكوب وهو آلة الحل الطيفي التي صنعها العالمان الالمانيان بنسن وكرشوف . في هذه الآلة رأى لكير خطوطاً خاصة بعنصر جديد وهو كان يحلُّ النور الواصل اليه من قرص الشمس فدعاه « الهليوم » وتنبأ بوجوده على الارض . فلما انقضت عشرون سنة على نبوءته عثر وليم هبراند الاميركي على هذا الغاز في المعدن النادر المدعو كليفيت (Cleveite)

ولكن نبوءات المتنبيء الروسي كانت ابعث على الدهشة وادعى للاستغراب . ذلك ان نبوءاته لم تجيء نتيجة لتجارب جربها ، بل كانت كأنها وحي هبط عليه من المكان الارفع او كأنها بذرة او جرثومة ظلت تغتذي في عقله الخصب حتى افرخت فلما ازهرت استرعت انجاب العالم بروعة جمالها

***

جاء السر وليم رمزي احد زعماء الكيمياء الحديثة سنة ١٨٨٤ الى لندن ليحضر احتفالاً أُعِدَّ فيها لتكريم وليم بركن مكتشف الصبغ البنفسجيّ . قال رمزي :— وبكرت الى مكان العشاء وكنت احاول تمضية الوقت بقراءة اسماء المدعوين على بطاقات مخصوصة وضعت في مكان كلٍّ منهم ، واذا انا برجل غريب الشكل كل شعرة في رأسه تتصرف مستقلة عن كل شعرة اخرى ثم اقترب مني وهو ينحني فقلت بالانكليزية « الحاضرون كثر » فقال لا اتكلم الانكليزية فكلمته بالالمانية فاذا هو يتكلمها ولا يجيدها . وتباحثنا في موضوع اختصاصنا . والظاهر انهُ نشأ في شرق سيبيريا ولم يتعلم الروسية قبلما بلغ السابعة عشرة من عمره ولعلهُ واحد من اولئك العلماء غريبي الاطوار

كان هذا الرجل « الغريب الاطوار » العالم « مندليف » المتنبيء الكيمائيّ الذي اصغى الناس الى صوته . فهب البحّاث يبحثون عن العناصر المجهولة التي تنبأ بوجودها ووصفها . بحثوا عنها في جوف الارض ، في غبار المصانع ، في مياه المحيطات ، في كل بقعة من بقاع الارض ، واختلفت الفصول ، وتعاقبت السنوات ومندليف لا يزال يكرر نصحه بتنبأ به . الى ان كانت سنة ١٨٧٥ إذ كشف عن العنصر الاول من العناصر المجهولة التي تنبأ بها . ذلك ان « ليكوك دو بوا بوردان » عثر على عنصر « الا كا الومنيوم » في تبر زنكيّ يستخرج من جبال « البرنيه » الواقعة بين اسبانيا وفرنسا . ولما دقق « دو بوابوردان » البحث في صفات العنصر الجديد

وجدها تتفق وما قالهُ عنهُ مندليف . فدعاه بعنصر الغاليوم Gallium نسبة الى بلاده بلاد الغال Gaul

ولكن كان ثمة من لم يؤمن . لان تحقيق نبوءة مندليف في نظرهم لم تعدُ كونها حزراً تحقق . وانهُ من السخف ان نعتقد ان العناصر المجهولة يمكن التنبؤ بها بمثل هذه الدقة العجيبة ، فهو اشبهُ شيء بالتنبؤ بولادة نجم جديد في رحاب الفضاء ! الم يقل لافوازيه العظيم ان كل ما يمكن ان يقال في طبيعة العناصر وعددها محصور في مناقشات موسومة بسمة «وراء الطبيعة» ؟ كذلك احتج المعترضون

فلم يلبثوا حتى بهتوا لما وردت الأنباءُ من المانيا ان ونكلر Winkler عثر على عنصر جديد صفاتهُ تشبه صفات عنصر «الاكاسلكون» الذي تنبأ بهِ مندليف . واذا وزنهُ الذري وكثافتهُ وصفاتهُ الطبيعية وصفات اكسيده تطابق ما قاله مندليف . ولم تقم شبهة ما على ان نبوءة مندليف الثانية تحققت كالاولى . واعلن ونكلر اكتشافهُ لهذا العنصر واطلق عليهِ اسم «جرمانيوم» اسم وطنهِ . فصعق المعترضون وقالوا في ذوات نفوسهم لعلَّ هذا الروسي ليس خداعاً مشعوذاً كما كنا نظن

فلما انقضى على ذلك سنتان ، زال كل شك يشوب اذهان الناس في صدق الرجل . ذلك ان نلسن Nilson في البلاد السكندينافية فاز باستفراد عنصر « الاكا بورون » فاذا هو كما قال مندليف عنهُ . لقد اصبحت الادلة على صدقهِ قاطعة . وها هم رجال العلم يطرقون الباب على هذا الروسي في بطرسبرج (لننغراد) زرافات ووحداناً

***

تحدر ديمتري ايفانوفتش مندليف Mendeleeff من اسرة من الروَّاد المقاديم . كان بطرس الاكبر ، قبل ولادة مندليف بنحو قرنٍ من الزمان قد شرع في ادخال الحضارة الغربية الى روسيا . فأقام في بطيحة من بطائح الشمال الغربي مدينة (بطرسبرج) لتكون منفذ روسيا الى الغرب . ومن الناحية الاخرى كانت روسيا تتطلع الى الشرق . وفي سنة ١٧٨٧ انشأ جدُّ مندليف في مدينة توبولسك بسيبريا اول مطبعة في تلك البلاد واصدر اول جريدة . في تلك البقعة النائية التي استعمرها القوزاق في منتصف القرن الخامس ولد المترجم له فكان الولد السابع عشر لامهِ وابيهِ

ولكن النوازل نزلت بالاسرة . فكفَّ نظر الوالد — وكان مدير المدرسة العالية في المدينة — ولم يلبث ان مات مسلولاً . وكانت والدتهُ ماريا كورنيلوف من حسان التتر فعجزت عن ان تمول اسرتها الكبيرة بمعاش سنوي قدره مائة جنيه فعادت فتح مصنع للزجاج

كانت اسرتها قد انشأته في سيبريا. وكانت توبولسك حينئذٍ مركزاً للمشردين والمنفيين السياسيين من روسيا. ومن احد هؤلاء تعلم دمتري مندليف مبادىء العلوم الطبيعية. فلما دمّرت النار مصنع الزجاج، حملتهُ امهُ — وكانت في السابعة والخمسين من عمرها — الى موسكو لعلّها تمهد له سبيل الانتظام في جامعتها. فحال دون ذلك حوائل جمة. ولكنها كانت عازمة على تنشئة ابنها تنشئة علمية فسارت به الى بطرسبرج وبعد جهاد عنيف مكّنتهُ من الانتظام في الدائرة العلمية بمعهد التعليم وهو معهد المدرسين. في هذا المعهد توفر على الرياضة والطبيعة والكيمياء وكان يكره الآداب القديمة. فلما اصبح ذا مقام علمي كبير عيّن عضواً في لجنة اصلاح التعليم فقال «اننا نستطيع ان نعيش الآن من دون افلاطون. ولكننا نحتاج الى كثيرين من امثال نيوتن للكشف عن اسرار الطبيعة، وتمهيد سبيل الاتساق بين الحياة ونواميسها»

وكان مندليف طالباً مجتهداً فتخرج في طليعة فرقتهِ. ولكنهُ كان ضعيف البنية فلما توفيت والدتهُ اصيب باعياء الاعصاب. وكان قد اسرع اليها وهي على سرير الموت فخاطبتهُ قائلة «دع عنك الاوهام. لتجعل همك الاعمال لا الاقوال. كن صبوراً في البحث عن الحقائق الالهية والعلمية». ولم ينس مندليف هذه الكلمات قط في خلال حياتهِ، حتى في الساعات التي كانت تراوده فيها الاحلام والرؤى كان يحسُّ ان قدميهِ مثبتتان في الارض الصلبة

وبلغ اليأس من طبيبهِ ان ظن ان اجله لن يطول اكثر من ستة اشهر. فامره بالذهاب الى الجنوب، حيث الجو الدافىء يؤاتيهِ. فتمكن من الفوز بمنصب مدرس في بلدة سمفروبول ببلاد القريم. فلما نشبت حرب القريم ذهب الى اودسا ومنها عاد الى بطرسبرج وهو في الثانية والعشرين فعين مدرساً في الجامعة وهو منصب يسمح لهُ فيهِ بتدريب الطلاب الذين يحضرون محاضرات الجامعة. فلبث فيهِ بضع سنوات ثم استأذن وزير المعارف في السفر الى فرنسا والمانيا للتوسع في العلم والتعمق فيهِ لتعذر ذلك في روسيا، فاذن له. فدرس في فرنسا على الاستاذ هنري رنيو (Regnault) وفي جامعة هيدلبرج الالمانية، حيث اجتمع ببنصن (Bunsen) وكرشوف (Kirchoff) فتعلم من الاخير استعمال السبكترسكوب (آلة الحل الطيفي) وحضر مؤتمر كارلسروهي (Karlsruhe) الذي دارت فيهِ معركة الجدال على جزيئات افوغاردو (Avogardo) فكان ذلك خاتمة مطافهِ، اذ عاد بعد ذلك الى روسيا

***

كانت السنوات التالية سنوات جدّ وارهاق. تزوج في خلالها، ووضع كتاباً مدرسيًّا في الكيمياء العضوية في ستين يوماً مع ان صفحاتهِ تربي على الخمسمائة وفاز برتبة دكتور في الكيمياء برسالة موضوعها «اتحاد الكحول بالماء» فلما تبينت جامعة بطرسبرج مزايا هذا النبغ الموهوب، والفيلسوف الكيماوي، اختارتهُ استاذاً وهو لم يبلغ الثانية والثلاثين من العمر

ثم جاءت تلك السنة — هي حدٌّ فاصل في تاريخ الكيمياء الحديثة — سنة ١٨٦٩

كان مندليف قد قضى عشرين سنة يقرأ كلَّ ما عرف عن العناصر ويجرِّب تجاربهُ بها. ويجمع الحقائق عنها من كل مصدر يمكن الوصول اليهِ . وكان قد رتَّب هذه الحقائق وبوَّبها وأعاد ترتيبها وتبويبها لعلَّهُ يتوفق الى كشف سر غامض. وكان هذا العمل مضنياً لان طائفة كبيرة من العلماء متفرقة في مختلف جامعات العالم كانت قد عنيت بدرس العناصر المعروفة. فجمع الحقائق التي كشفت كان يقتضي صبراً ومواظبة وشغفاً ، والاَّ فهو مقضيٌّ عليه بالخيبة

ثم ان العناصر المعروفة كانت قد زادت بفضل ما كشفهُ العلماء منها. كان الصناع الاقدمون قد صنعوا ادواتهم من الذهب والفضة والنحاس والحديد والزئبق والرصاص والقصدير والكبريت والكربون . ثم اضاف علماء الكيمياء القديمة (Alchemy) ستة عناصر في خلال بحثهم عن سرِّ تحويل المعادن الى ذهب . فوصف الطبيب الالماني « باسيل فالنتين » عنصر الانتيمون سنة ١٥٩٦ وجورجيوس اغريكولا عنصر البزموت سنة ١٥٣٠ وپاراسلسس عنصر الزنك وقد سمَّت Zinck عنصر الصفور . ثم اضيف اليها عنصرا الزرنيخ والكوبلت وقبل ان ينصرم القرن الثامن عشر اكتشف البلاتين — سنة ١٧٣٥ — في كولمبيا ثم تلاهُ النيكل فالايدروجين فالنتروجين فالاكسجين فالكلور فالمغنيس فالتنغستن فالكروم فالمولبدنوم والتيتانيوم فالتلوريوم والزركونيوم والاورانيوم . فلما استهلَّ القرن التاسع عشر اكتشف عنصر الكولمبيوم (النيوبيوم) . فلما كانت سنة ١٨٦٩ كان المعروف من العناصر ٦٣ عنصراً وقد وصفت في مجلات العلم في انكلترا وفرنسا وألمانيا والسويد وغيرها

جمع مندليف كلَّ الحقائق المعروفة عن هذه العناصر الثلاثة والستين . لم يفتهُ عنصر واحد منها . بل انهُ اضاف اليها عنصر الفلور مع ان احداً لم يفُزْ قبل ذلك باستفرادهِ . فاذا امامهُ قائمة بعناصر مركبة من ذرَّات تتباين اوزانها الذرِّية من ١ (وزن الايدروجين) الى ٢٣٨ (وزن الاورانيوم) وكلها مختلفة الصفات بعضها غازي كالاكسجين والايدروجين والكلور والنتروجين . وبعضها سائل في الاحوال العادية كالزئبق والبروم . والباقي جامد كالذهب والفضة والزرنيخ والكربون والفصفور . بعض المعادن صلب قاسٍ كالپلاتين والاريديوم وبعضها لين كالصوديوم والپوتاسيوم . كان الفنيوم معدناً خفيفاً يطفو على الماء مع ان الاسميوم معدن يفوق وزنهُ النوعيُّ وزن الماء النوعيَّ اثنين وعشرين ضعفاً ونصف ضعف . وهذا الزئبق ، معدن لكنهُ سائل . ثم انها تختلف لوناً . فالنحاس احمر والذهب اصفر واليورد رمادي قاتم والفصفور أبيض والبروم احمر . وبعض الغازات كالنيكل والكروم يعسر حتى يخطف البصر بخطفه ، وبعضها يمكن صقلهُ ولكنهُ يظل قاتماً لا يلمع . اما الذهب فلا يكمدُ عند تعريضهِ للهواء واما الحديد فيصدأ واما اليود فيتصعَّد . وبعض هذه العناصر يتحد بذرة

واحدة من الاوكسجين وبعضها بدرتين وبعضها بثلاث ذرّات وبعضها باربع . ومنها طائفة قليلة كالبوتاسيوم والفلور شديدة الفعل يصعب تناولها بالاصابع . تقابلها عناصر لا يعرأ عليها تغيير طال ما طال عليها الزمن

ما هذا التباين المحيِّر للعقل ، في صفاتها الطبيعية والكيميائية ؟ هل ثمة نظام بين هذه الذرّات المتباينة ؟ هل ثمة اية صلة بينها ؟ أمن الممكن العثور على سلك ينظم نشوءها على مثال ما نظمت الخلائق الحية والبائدة في سلك التطوُّر ؟ فتنت هذه المسائل لبَّ مندليف ، فعيْنُهُ في النهار شاردة ذاهلة ، ومضجعهُ في الليل تقضُّهُ اشباح الذرات وطيوف العناصر

وكان مندليف من العلماء الذين يذعنون الى الفلسفة ، فهتف به هاتف وجداني ان لا بدَّ من وجود لمفتاح لنظام هذه الحقائق المتباينة . او لعلَّ للطبيعة نظاماً مستسرًّا تطويه في ثنايا حقائقها المتباينة . وكان يعتقد ان مجدَ الطبيعة في اخفاء سرها ولكنهُ كان يعتقد كذلك ان من شرف الملوك البحث عن ذلك السرّ !

أخذ العناصر وجعل يرتبها بحسب اوزانها الذرية مبتدئاً بالايدروجين اخفّها وزناً ومتدرجاً الى الاورانيوم اثقلها . فلم يجد في ترتيبها على هذا المنوال جدوى . وكان رجل خر قد سبقهُ الى هذا الترتيب . ذلك ان جون نيولندز كان قبل ذلك بثلاث سنوات قد قرأ امام الجمعية الملكية الكيميائية بلندن رسالة في ترتيب العناصر وكان نيولندز قد لاحظ ان كل عنصر ثامن يشبه العنصر الاول في جدوله . فرأى في ذلك غرابة تسترعي النظر . فشبَّه جدول العناصر باصابع البيانو الثمانية والثمانين وهي مقسومة الى احدى عشرة مجموعة كل مجموعة منها ثمانية أصابع . فقال ان العلاقة بين كل طائفة من العناصر تشبه العلاقة بين الاصابع في مجموعة واحدة من اصابع البيانو . فهزأ أعضاء الجمعية بهذا القول . ووقف الاستاذ فوستر يسأل في سخرية : « لماذا لم ترتّب العناصر بحسب حروفها الاولى ! ولماذا لا يشبَّه ازيز الصوديوم وهو يحترق على سطح الماء بموسيقى الاجرام السماوية ! » فاجمع الكل على سخف القول ونسج على ذكر نيولندز ورأيه ستار من النسيان

ولكن مندليف اخذ ٦٣ بطاقة وكتب على كلٍّ منها اسم عنصر من العناصر المعروفة وخواصهُ . وعلق البطاقات على جدار مخدعه . ثم راجع ما يعرف عنها من الحقائق . واختار طوائف العناصر التي تتشابهُ في خواصها ووضعها على حدة . فوجد علاقة جلية بين افراد الطوائف تسترعي العناية . ثم رتّب العناصر في سبع طوائف مبتدئاً بالليثيوم (وزنه الذري ٧) يتبعهُ البريليوم (وزنهُ الذري ٩) فالبورون (وزنهُ الذري ١١) فالكربون (وزنهُ الذري ١٢) فالاكسجين (وزنهُ الذري ١٦) فالفلور (وزنهُ الذري ١٩). وكان العنصر الذي يلي هذه العناصر في وزنه الذري عنصر الصوديوم (وزنهُ الذرّي ٢٣) ، وكان الصوديوم يشبه الليثيوم شبهاً

عجباً في خواصه الكيائية والطبيعية . فوضعهُ تحت الليثيوم في جدوله . وبعد ما وضع خمسة عناصر تالية للصوديوم في اماكنها وصل الى الكلور . وهو يشبهُ الفلور في خواصه — فوجد انهُ يقع من تلقاء نفسه في الخانة التي تحت خانة الفلور — فسرّهُ هذا التأييد . ومضى في ترتيب العناصر على هذا المنوال . وكل عنصر كان يقع في محلّه فيتفق في خواصه مع العناصر التي فوقهُ وتحتهُ . ففي العمود الاول من الجدول كان طائفة المعادن الفعالة — الليثيوم وتحتهُ الصوديوم فالبوتاسيوم فالكوبيديوم فالكيزيوم . وهي الطائفة الاولى . اما العناصر الفعّالة غير المعدنية فجاءت في طائفة واحدة اعلاها الفلور وتحتهُ الكلور فالبروم فاليود . وهي الطائفة السابعة

كذلك اكتشف مندليف « ان خواص العناصر صفات دورية لاوزانها الذرّية » اي ان الخواص كانت تتردد في كل عنصر ثامن . فالثامن يشبهُ الاول ، والخامس عشر يشبهُ الاول والثامن . والتاسع يشبهُ الثاني ، والسادس عشر يشبهُ التاسع والثاني وهلمَّ جرًّا

ثم نظر في عناصر هذه الطوائف . وما أعجب ما رأى !

ان عناصر الطائفة الاولى تتحد ذرة منها بذرتين من الاكسجين . وعناصر الطائفة الثانية تتحد ذرة واحدة منها بذرة واحدة من الاكسجين . وعناصر الطائفة الثالثة تتحد ذرتان منها بثلاث ذرّات من الاكسجين . وعلى ذلك قس التشابه في عناصر الطوائف المختلفة . هل في الطبيعة ما هو ابسط من ذلك ؟ فاذا شئت ان تعرف خواص عنصر معيَّن وجب ان تعرف الخواص العامة التي تتصف بها تلك الطائفة . ان ذلك يسهل تناول الكيمياء على الطلاب

هل يمكن ان يكون هذا التشابه بين خواص العناصر في جدوله اتفاقاً مجرّداً ؟ فليعد النظر اذاً في صفات العناصر حتى اشدها ندرة . وليقلب في كل الرسائل والمؤلفات الكيائية لعلّهُ يجد حقائق اغفلها في صورة الحماسة للجدول الذي فتن لبَّهُ ببساطته وشموله . هاهو ذا يكشف عن شيء جديد يتعارض والبناء الذي رفع ! كان المعروف ان وزن اليود الذري ١٢٧ ووزن التلوريوم ١٢٨ وكان قد وضعهما في المكان الذي يجب ان يكونا فيه من حيث تشابه خواصهما مع العناصر السابقة واللاحقة . ولكن وزن التلوريوم الذري يتنافى والمكان الذي تقتضيه خواصهُ . ما العمل ؟ هنا وقف مندليف وقفة المتنبيء الجريء وقال ان الوزن الذري المقرّر لعنصر التلوريوم خطأ ، وانهُ يجب ان يتباين من ١٢٣ الى ١٢٦ فقيل عنهُ انهُ يهرف ولكنهُ اكتفى بوضع التلوريوم في المكان الذي تقتضيه خواصهُ مع ان وزنهُ الذري المقرّر حينئذٍ يقتضي ان يكون في مكان آخر — فلما اتقنت وسائل تعيين الاوزان الذرية بعد ذلك بسنوات تبين ان مندليف كان مصيباً ، فعملهُ هذا في الكيمياء كان من قبيل التنبؤ بالسيّار نبتون ومكانهِ في علم الفلك

بعد ذلك ظن ان الجدول اصبح سليماً من مواطن الضعف . ولكنهُ احبَّ ان يتثبت . فاعاد النظر فيهِ ، فوجد تناقضاً آخر . ذلك ان الوزن الذرّي المقرّر للذهب كان ١٩٦٫٢ وهذا يقتضي ان يجعلهُ في الجدول في مكان يجب ان يكون في الواقع لعنصر البلاتين (وزنهُ الذري المقرّر حينئذٍ ١٩٦٫٧) . والانسان لا يخلو من ضدّ ولو كان في رأس الجبل ، فانطلقت السنة النقاد ، وشرعت اقلامهم ، في تبيان هذا التناقض . فتجرأ مندليف ثانية وقال ان الارقام التي يقرّرها المحللون لوزنيهما الذريين فيها خطأ . وانهُ يكتفي الآن بالانتظار ، وان البحث لابدَّ ان يؤيدهُ في المستقبل . والواقع ان ميزان الكيماوي اثبت بعد ذلك انهُ كان مصيباً هنا ، كما كان مصيباً هناك ، وان وزن الذهب الذري اكبر من وزن البلاتين . عجيب والله ! انَّ في جدول هذا الرومي عيناً ترى الخفايا !

على ان الصدمة الكبرى التي صدم بها علماء العصر جاءت بعد ذلك . ان في هذا الجدول اماكن فارغة ، لم تملأ باسم عنصر ما . هل تبقى فارغة ، او ثمة عناصر ، لم يكشفها البحّاث ؟ ولو ان رجلاً آخر اقل جرأة من مندليف كان محلّهُ ، لأحجم عن الاستنتاج الذي يقتضيهِ ايمانهُ بصحة الاكتشاف الذي وفق اليهِ . ولكن مندليف ، الذي رفض ان يجمّ شعرهُ ، مرضاة للقيصر اسكندر الثالث ، لم يرهب سخرية المتطعين من الكيماويين

ففي الطائفة الثالثة من جدوله خانة فارغة بين الكلسيوم والتيتانيوم . ولما كانت الخانة الفارغة واقعة تحت عنصر البورون ، صرّح مندليف بان العنصر المجهول الذي يجب ان يملأ هذه الخانة ، يجب ان يكون مشابهاً لعنصر البورون . فدعاهُ « اكابورون » اي ما « بعد البورون » ثم هناك خانة فارغة في الطائفة نفسها تحت عنصر الالومنيوم . فقال ان العنصر المجهول الذي يجب ان يملأها يجب ان يشبه الالومنيوم ودعاهُ « اكاالومنيوم » . ثم وجد خانة فارغة في الطائفة الرابعة بين الزرنيخ والالومنيوم واقعة تحت السلكون فقال ان العنصر المجهول يجب ان يكون مشابهاً للسلكون ودعاهُ « اكاسلكون » . كذلك تنبأ مندليف بثلاثة عناصر مجهولة وترك البحث عنها لمعاصريهِ

وفي سنة ١٨٦٩ تقدم مندليف الى الجمعية الكيمائية الروسية برسالة عنوانها « في العلاقة بين خواص العناصر واوزانها الذرية » فبسط فيها باسلوبهِ البارع النتائج التي خلص اليها . فدهشت الدوائر العلمية . ولكن بذرة هذا الاكتشاف العظيم كانت قد بُذرت قبيل ذلك اذ لاحظ ده شانكورتوى في فرنسا وسترخر في المانيا ونيولندز في انكلترا وكوك في اميركا بعض وجوه الشبه بين خواص العناصر . ولكن الاغرب من ذلك ان لوثار مير Meyer الالماني وصل الى نفس النتائج التي وصل اليها مندليف في نفس الوقت او بعيدهُ ، فنشر سنة ١٨٧٠ في مجلة « ليبغ انال » جدولاً للعناصر كجدول مندليف تقريباً . ذلك ان العصر كان يقتضي مثل هذا

الحكم العام ، وكان ما كشف من العناصر حتى ذلك الوقت كافياً ليكون اساساً لمثل هذا البحث فنبغ الرجلان حاجة العصر باكتشافهما الجدول الدوري . ولو ان مندليف ولد قبل ولادته بجيل واحد ، لتعذر عليه اكتشاف الناموس الدوري Periodic Law لان الحقائق المعروفة عن العناصر كانت غير كافية كاساس للبحث

ذكر مندليف في جدوله ثلاثة وستين عنصراً ، وتنبأ بثلاثة عناصر مجهولة . ولكن هل تظل العناصر المجهولة الباقية مستترة عن لمس الانسان وبصره ام يكشف عنها بالسير على الخطة التي سار عليها مندليف فتصح الكيمياء في دقة تنبؤها بالحوادث كعلم الفلك

والواقع انهُ ما انقضت على اذاعة جدول مندليف خمس وعشرون سنة حتى كشف انكليزيان طائفة كاملة من العناصر دعيت طائفة الصفر لانها تجيء قبل الطائفة الاولى في جدول مندليف وكانت عناصر هذه الطائفة سبعة من اضعف العناصر فعلاً كيائيًّا . حتى البوتاسيوم والفلور وهما من افعل العناصر المعروفة لم يستطيعا ان يخرجا هذه العناصر من عزلتها . فلا عجب اذاً ان ظلت هذه العناصر مجهولة هذا الزمن الطويل

***

وروتب اول هذه العناصر — وكانت كلُّها غازات — في طيف الاكليل الشمسي في كسوف حدث سنة ١٨٦٨ ولكن لم يعرف عنهُ الا الخط الذي يمثله في الطيف . لذلك لم يذكرهُ مندليف في جدوله . على ان هلبراند الاميركي ، وصف بعيد ذلك غازاً يخرج من معدن الكليفيت Cleveite وعرف انهُ يختلف عن النتروجين ولكنهُ لم يتمكن من النفوذ الى سرّ حقيقته . فجاء رمزي (السر وليم رمزي) بنموذج من هذا المعدن واخرج منهُ الغاز المذكور ثم امرَّ فيهِ شرارة كهربائية وصوَّر طيفهُ فاذا هو يحدث في الطيف خطًّا كالخط الذي شوهد في طيف الاكليل الشمسي . فعرف ان الغاز الذي يخرج من الكليفيت هو ذلك الغاز الذي في طيف الشمس ومن هنا اسمهُ العلمي « هليوم » اي الشمسي . وفي السنة التالية اثبت كيزر Kayser وجود مقادير يسيرة جدًّا من الهليوم في الهواء (النسبة ١ : ١٨٥٠٠٠) وليس هنا مجال البحث في اكتشاف رمزي وترفرس لبقية الغازات النادرة التابعة لهذه الطائفة — وهي الارغون والكربتون والنيون والزينون والنيتون [1] — وانما يكفي ان نقول انهما استخرجا مقادير يسيرة جدًّا من هذه الغازات من ١٢٠ طنًّا من الهواء بعد اسالتها واستعمل رمزي في خلال تجاربهِ ميزاناً دقيقاً كل الدقة يتأثر بجزء من ١٤ مليون جزء من الاوقية

(١) راجع مقتطف اكتوبر سنة ١٩١٦ مجلد ٤٩ صفحة ٣١٧ — ٣٢٠

وهذه العناصر على ندرتها وصعوبة استخراجها ، تستعمل الآن في المصابيح الكهربائية والاعلانات الملونة والبالونات . ومضى الباحثون عن العناصر المجهولة على قدم وساق ، تحدوهم الثقة بصحة نظر منديليف وتستثيرهم الحماسة التي يشعر بها من يعثر على مجهول . فلما توفي منديليف سنة ١٩٠٧ كان عدد العناصر المعروفة قد اصبح ٨٦ عنصراً

***

وقد اشترك منديليف في تأييد حركة الاصلاح في بلاد الروس ، وكان ميّالاً الى تأييد مذاهب الاحرار ، فلقي عنتاً من اصحاب الحكم ، ولما قدم رسالة الى الحكومة تتضمن المطالبة ببعض وجوه الاصلاح ، قيل لهُ ان لا يتدخل في ما لا يعنيهِ وان يعود الى معمله العلمي . فأحسّ ان هذا الرد كان صفعة لهُ ، فاستقال من الجامعة

وتأييده للاحرار انشأ لهُ عداوة في دوائر المحافظين اولياء الامر — على مثال ما تمّ لجوزف بريستلي[1] — فرفضت الاكادمية الروسية سنة ١٨٨٠ ان تنتخبهُ عضواً في قسمها الكيماوي وهو اكبر كيماوي عصره . ولكن جامعة موسكو انتخبتهُ عضو شرف فيها ومنحتهُ الجمعية الملكية بلندن مدالية ديفي بالاشتراك مع لوثار مير لترتيبهما العناصر ذلك الترتيب الدوري . ويقال انهُ في آخر حياتهِ دعتهُ الجمعية الكيماوية البريطانية الى حفلة لتمنحهُ فيها مدالية فراداي — ولعلها اعلى شرف في دوائر العلم الكيماوي ينالهُ الباحث — فلما اعطى منديليف كيساً يحتوي على قدر من المال يعطى عادة في مثل هذه الحالات ، فتح الكيس واخرج منهُ الجنيهات الذهبية وقال « انهُ لن يقبل مالاً من جمعية شرفتهُ بتكريمها لهُ في المكان الذي قام به فراداي بمباحثهِ الخالدة » . ومن ثمَّ بدأت تنهال عليهِ الالقاب العلمية من الجمعيات العلمية في اميركا والمانيا ومن جامعات برنستن وكمبردج واكسفرد وغوتنجن ، فلما عين الوزير وت Witte الروسي وزيراً للمالية في عهد اسكندر الثالث عين منديليف مديراً لمصلحة المقاييس والموازين

***

بعيد وفاتهِ بالنزلة الصدرية في فبراير سنة ١٩٠٧ قال العالم بانيس ميور « للمستقبل وحده الحكم على بقاء الجدول الدوري او زواله » . ولو ان منديليف عاش بضع سنوات ، لكان رأى قبل وفاتهِ كيف اتمّ موزلي[2] البناء الضخم الذي شيده منديليف . فأتمّا معاً تخطيط خريطة العناصر التي تتركب منها اشكال المادة

(١) ذكرنا اسمه الاول خطأ في العدد الماضي فقلنا انه جون وصوابه جوزف

(٢) راجع مقتطف يونيو ويوليو سنة ١٩٣١

ماركس ومذهبه

على ذكر انقضاء خمسين سنة على وفاته

تحدّر كارل ماركس ، واضع الاسس التي شيدت عليها الاشتراكية الحديثة في مختلف الوانها ، من اصل يهودي، وكان ابوه محامياً يدعى «هرشل» تحوّل الى المسيحية سنة ١٨٢٤ اي بعد ولادة كارل بست سنوات . وكان المتوقّع ان ينتظم الابن في سلك المحاماة بعد تلقي القانون والتاريخ والفلسفة في جامعتي بُنْ وبرلين وتخرجه سنة ١٨٤١ حائزاً للقب دكتور في الفلسفة . ولكنهُ لم يمل الى المحاماة ، فقدم وهو في العشرين من العمر على خوض ميدان الصحافة محرّراً لجريدة اشتراكية تدعى « صحيفة الرين » Rheniah Gazette ثم اتصل بجريدة «فورورتس» التي كان لها نصيب كبير في الدعاية الاشتراكية بالمانيا . فلما اصبح في الثلاثين من العمر كان برُّ اوربا قد اصبح حرماً عليه، بعد ما طرد من فرنسا والبلجيك والمانيا لعنفه ، فلاذ بانكلترا وكانت ملجأ حينئذٍ لامثاله من مشرّدي السياسة والاجتماع ، فعاش فيها اربعاً وثلاثين سنة حتى وفاته في ١٤ مارس سنة ١٨٨٣ وكان قبيل مجيئه الى انكلترا قد نظم في بلاد البلجيك «عصبة شيوعية» واسس «الجمعية الدولية للعمال»

ولا ريب في ان كارل ماركس كان متفوقاً من الناحية الذهنية بين الذين اشتركوا في تأييد الدعاية الاشتراكية والترويج لها ، وكتابهُ رأس المال بمثابة كتاب منزل في نظر الشيوعيين والعمال الاشتراكيين بوجهٍ عام . قال الاستاذ هارولد لاسكي فيه . « في خلال خمسين سنة انقضت على وفاة ماركس اتسع نطاق نفوذه اتساعاً كان من المتعذر توقعهُ . ان مذهباً ، لم يكن من نحو جيل او اكثر قليلاً ، الاّ تصوّراً كالياً يخالطهُ الجنون ، ابدعهُ منفيٌّ ثوريّ ، قد اصبح من المذاهب المنجية في العالم الحديث . فهو الآن متشح برشاح الدولة المسلحة في (روسيا) واسم صاحبهِ يوقظ في صدور الملايين معاني الايمان والاجلال ، على ما لم يعهد من قبل الا في الرسل والانبياء لا في اصحاب المذاهب الفلسفية . ان كلماتهِ تورد تأييداً واضحاً في المناقشات التي تدور حول السياسة الاجتماعية ، وفيها القول الفصل الذي كان يعتق باقوال التوراة والانجيل عند المدرسيين في القرون الوسطى . ولا ريب لي انهُ ليس ثمة اشتراكية يصحُّ ان يُعنى بها رجال الدول الاّ اشتراكية ماركس» . ثم يبّين الاستاذ لاسكي في فقرة تالية

ان فلسفة ماركس كانت اولاً عقيدة تدين بها شرذمة قليلة من الجمعيات الثورية التي تعمل في الخفاء فأصبحت ايماناً يواجه الناسُ في سبيله السجنَ والموتَ كما فعلت الديانات الكبرى في العصور الماضية

والى القارىء ملخصاً عن فلسفة ماركس الاقتصادية الاجتماعية نقلناه عن كتاب المستر كول المدعو « مرشد الرجل الذكي في الفوضى العالمية » . وهو من افضل الكتب الحديثة التي تعالج اضطراب العالم الاقتصادي وصاحبهُ من اساتذة الاقتصاد في جامعة كمبردج

العمال والمتمولون

يعتقد الاشتراكيون ان التغلب على النزاع بين العمال والمتمولين ، امر متعذر في نظام رأسمالي . لان هذا النزاع قائم على اساس من عدم التكافؤ في القوتين المتقابلتين والتناقض في اغراضهما . اما الوجهة الاشتراكية في هذا الموضوع فقد بسطها ماركس في كتابهِ المشهور «رأس المال» Das Capital والاشتراكيون على اختلاف نحلهم وألوان تفكيرهم مجمعون على التسليم بأصول المذهب الماركسي

يذهب ماركس الى ان العمل ، يحسب خطأً في مجتمع رأسمالي ، سلعةً تباع وتشترى . فتحسب قوة العامل في عداد النفقات التي تنفق على صناعة المنتجات التي يخرجها المصنع ، بدلاً من ان يكون العامل نفسه ، الهدف الذي لاجله قامت الصناعة وارتقت . «فقوة العمل» تباع وتشترى . والمتمول يبتاعها لانهُ لا ندحة له عنها كعامل من عوامل الانتاج . وعلى العامل ان يبيع قوتهُ على الانتاج اذ لا سبيل آخر لهُ للارتزاق . ولو كان هذا التبادل حرًّا لصلحت الحال . ولكن ظروف التبادل غير متساوية في اساسها . لان المتمول ، بفضل المال المتجمع في يديه ، يحتكرُ نفسه بكل الفوائد التي تجنى من زيادة المقدرة على الانتاج الناشئة عن التوسع في الصناعات وتقسيم الاعمال فيها . فالعامل ينال اجراً على الجهد الفردي الذي يبذله في الانتاج ، وهذا الاجر تعيّنهُ كثرة العمال الذين يطلبون ان يعملوا العمل نفسهُ ، او قلتهم . فاذا وقع العمال في ناحية معينة او زادت مقدرتهم لارتقاء الاساليب الميكانيكية ، فزاد الانتاج ، جنى المتمول الجانب الاكبر من فوائد هذه الزيادة ، بدلاً من ان يجنيها العامل . وللعمال ان يتحدوا ، ويطلبوا متحدين ان يزيد نصيبهم من ارباح الصناعة القائمة عليهم ، بل ان اجور العمال ، حيث العمال قليلون ، ترتفع من تلقاء ذاتها ومن دون اتحاد العمال انفسهم . ولكن ماركس واتباعه يرون ، ان في المجتمع الرأسمالي ، ميلاً بديهيًّا ، الى توزيع الارباح التي تجنى من تقدم الصناعة ، على عوامل الصناعة المختلفة — كاجرة الارض والبناء وفائدة المال وأجور المديرين — دون العامل الذي ينال نصيباً يسيراً جدًّا من الربح اذا قيس بنصيبه الكبير

في الانتاج . بل ان ماركس كان يرى ان العامل لم ينل جزاءه على عمله حتى هذا النصيب اليسير

فالفكرة الاساسية في مذهب ماركس هي ان جمع اسباب الانتاج في ايدي افراد قلائل من المتمولين يفضي ضرورةً الى الجور في استغلال العمال . فالصناعة الحديثة هي في اساسها عمل تعاوني . ولكن انقسام القائمين بها الى فريقين متخاصمين من حيث علاقة كلٍّ منهما بالعمل نفسه ، ينفي عن العمل صفة التعاون . ولا بدَّ من ان يصلح الخلل على مرِّ الزمن . فامتلاك الحكومة للصناعات وتوزيع الربح ، هما في نظر ماركس ، النتيجة المنطقية لما بلغته الصناعة الآلية من التطوُّر في العصور الحديثة

***

ويخطىء من يسندُ الى ماركس القول بأنهُ يطلب لكل عامل الاستيلاء على ثمرة عمله كاملةً . بل انهُ وقف كتاباً من كتبه (القيمة والثمن والربح) لردّ هذا القول . لان ماركس يرى — وكان على صواب — ان في الصناعة الحديثة لا يمكنك ان تشير الى بضاعة معيَّنة وتقول هذه ثمرة عمل العامل الفلاني . وليس ثمة الاَّ النتيجة المشتركة للعمل المشترك يقوم به عمال كثيرون . ومن المتعذر ان ندلَّ على نصيب كل عامل من العمال في هذا العمل المعقَّد الذي يخرج بضاعة تتناولها — هي او احد مقوماتها — يد عامل من العمال في خلال دور من ادوار صنعها . وليس ما تخرجهُ الصناعة نتيجة عمل العمال فقط ، بل هو نتيجة منتجين آخرين سبقوهم . فكل من اضاف بمستنبطاته شيئاً الى النظام الصناعي ، هو بحق احد المنتجين للبضائع التي تخرجها المصانع . وعليهِ يرى ماركس انهُ من المتعذر ، توزيع ارباح الصناعة ، على العناصر المختلفة التي اشتركت في اخراج منتجاتها ، توزيعاً عادلاً . ولما كانت منتجات الصناعة نتيجة عمل مشترك وجب ان تكون ملكاً للمجتمع بأسره . وتوزيعها ، لا يكون الغرض منهُ جزاء كلّ عامل على عمله بالقدر الذي يستحقهُ ، بل اقتساماً لما اشتركت في خلقهِ الجمعية البشرية من الثروة . وهذا المتموّل لا يمنع توقيع العقاب على الذين يقصّرون في القيام بنصيبهم في هذا الخلق ، او منح الجزاء حيث يكون باعثاً على الجهد المنتج . ولكن كلا هذين العاملين في توزيع الدخل ثانوي . والمبدأ المرشد لجميع الاشتراكيين هو جعل الدخل متساوياً لكل الناس ، ما سمح بذلك الامكان

تفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً

والقول بان المتموّل في النظام الرأسمالي ، يستغلُّ العامل ، باختصاصهِ نفسهُ بالجانب الاكبر من ثمرة الانتاج ، عنصر واحد من عناصر المذهب الماركسي . ولفهم هذا المذهب فهماً سليماً يجب ان نتبيَّن ما يعرف بتفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً او مادياً . وقد اسيء

من قبل فهم هذه الناحية من مذهب ماركس ، فيجدر بنا ان نكون حذورين في تبيانها

يقول ماركس ان في كل حضارة في اي دور من ادوارها « قوى انتاجية » ، تقوم على مصادر الثروة المادية ومعرفة الانسان بتسخيرها . فالفحم في مناجمه لا يحسب « قوة » من قوى الانتاج حتى يكشفهُ الانسان ويستخرجهُ ويعرف انهُ يحترق ويولد طاقة يمكن استخدامها. وقوى الانتاج هذه تتغير تغيراً دائماً وفقاً لاتساع معارف الانسان . وعليهِ فالاساس الذي تقوم عليهِ الحضارة اساس دائم التغير . وفي كل مرحلة من مراحل الحضارة نجد وسائل هي الوسائل المثلى لتنظيم قوى الانتاج في تلك الحضارة . فالجماعة التي تعيش بالصيد والقنص ، او بالزراعة ، او بالصناعة على اختلاف اساليبها ، عليها ان تتخذ ، في تنظيم حياتها الاقتصادية ، الوسائل التي تتفق والضرورات التي تقتضيها طبيعة قوى الانتاج والاعمال الانتاجية التي تزاولها . فصيد السمك او تعدين الفحم او توليد الكهربائية ، يقتضي نظاماً اقتصادياً خاصاً ، يوضع خاصة لتحقيق الغرض المعين وهذا النظام يقتضي بطبيعتهِ احكاماً للملك والملاك وعلاقة الناس بعضهم ببعض . اذ لابدَّ من طرق لتعيين من يسيطر على ادوات الانتاج ومصادر الثروة الطبيعية ، ومن يصدر الاوامر للقيام بالاعمال المختلفة التي يقتضيها الانتاج في مراتبهِ المتباينة . كذلك يقوم على اساس من استغلال مصادر الثروة الطبيعية ، صرح من العلاقات الاقتصادية . على ان ماركس يرى ، ان صرح العلاقات الاقتصادية يسيطر على بناء الجماعة السياسي ويتحكم فيهِ . لان الدولة في عرفهِ ، هي المنظم للعلاقات السياسية ، وان باعث وجودها الاوحد ، هو الاحتفاظ بالاحوال المواتية للانتاج واسباب المعيشة

***

وقد وصف ماركس في بيانهِ الشيوعي « Communist Manifesto » المراحل المتعاقبة في تنظيم اوربا السياسي ووفق بينها وبين المراتب المتعاقبة في تنظيمها الاقتصادي ، وهذه من ناحيتها ، تحولت بحسب تحوُّل سيطرة الانسان على مصادر الثروة الطبيعية واسباب الانتاج. فالفدّية (الاقطاع Feudalism) ونظام العلاقات الشخصية القائم على علاقة كل فرد او طبقة بالارض ، هي مرتبة في التنظيم السياسي توافق مرتبة في النظام الاقتصادي قائمة على الزراعة في تطوُّر قوى الانتاج . اما « الرأسمالية الحديثة » وما تقوم عليهِ من حرية التعاقد ، والالوف الذين يشترون أموالهم في الشركات الكبيرة ، والوف الالوف من العمال ، واوضاعها البرلمانية ، ودستورانيتها الظاهرة ، فكلها هي مرآة تعكس لنا النظام الاقتصادي الجديد وهو نظام الانتاج الآلي القائم على توزيع العمل وتعاون العمّال وارتقاء الوسائل العلمية الصناعية

ويذهب ماركس الى ان هذه المراتب في نشوء قوى الانتاج واحكام الملك وصروح الانظمة السياسية تسفر عن نشوء طبقات اقتصادية مميزة للنظام الذي تنشأ فيهِ . وكل نظام

انتاجي في تاريخ الارض فرّق الناس طبقات دفعت الى التنازع والتناحر فيما بينها بمنطق الارتقاء الانتاجي نفسه . فالقدنية تقتضي ضرباً معيناً من العلاقة بين الطبقات كطبقة الزرّاع واصحاب الارض من الامراء . اما الرأسمالية فتطلق العامل من عبوديته للارض واصحابها وتمنحهُ حرية التعاقد، ولكنها حرية وهمية ، لان المتمولين يحتكرون السلطة في ظل النظام ، والتعاقد الحرّ معهم ليس في الواقع الاّ تعاقداً مكبّلاً بالاغلال

واذن يرى ماركس، ان نشوء الرأسمالية في العهد الحديث يجعل طبقة المتمولين على تنظيم العمال في طوائف كبيرة ومعامل متسعة وجمعهم في مدن ، رغبة منهم في جني اعظم ما يمكن جنيهُ من ثمار الصناعة الآلية . ولكنها — أي طبقة المتمولين — لا تستطيع ان تفعل ما تفعل وان تمنع في الوقت نفسهِ تنظيم صفوف العمال فيما بينهم . واتحادات العمال تقوى على مرّ الزمان وتتفاقم حتى تصبح قادرة ان تساوم اصحاب المال على اجور العمّال . ومن ثمّ يبدأ العمّال يدركون مدى قوتهم المشتركة والصفة الاشتراكية التي يتصف بها العمل الذي يقومون بهِ . وهذا يولد في اذهانهم ونفوسهم روح المقاومة لاستغلالهم وعقيدة راسخة بان الامة يجب ان تملك الصناعة لان الصناعة اشتراكية في طبيعتها واساسها . كذلك يعتنقون المذهب الاشتراكي ويصبحون من اشد مؤيديه تأييداً عملياً . وتنظيم صفوفهم اذا بلغ مدّي بعيداً يمكنهم من تسلّم مقاليد الامور وتحويل ادوات الانتاج لفائدة المجتمع مستغنين عن الملكية الخاصة ورؤوس الاموال التي يملكها افراد او جماعات من الافراد . وكان ماركس يتوقع ان يتمّ فوز طبقة العمال اذ تتخذ غلبتهم شكلاً سياسياً . اذ ذاك يكون فوزاً عاماً لطبقة العمال لا لفريق منها دون آخر . ذلك انهُ كان يعتقد ان الصفة الاشتراكية التي تتصف بها الصناعة تربط بين طبقة العمال ، وان فوزها على الرأسمالية رهين بأثرها السياسي كحزب منظم يمثل طبقة العمال باسرها

الاشتراكية والوكتاتورية

ولكن فوز طبقة العمال في نظر ماركس يختلف اختلافاً اساسياً في طبيعتهِ وأثره عن اي تحول سابق في علاقات الطبقات بعضها ببعض . ذلك انهُ لما اصبحت طبقة المتمولين على جانب كاف من القوة لتتغلب على النظام الاقطاعي وانشاء الدولة البورجوزية الحديثة بانظمتها البرلمانية ، قل نجمها في البناء الاجتماعي طبقة كبيرة — هي كثرة الامة الساحقة — تستغلها لمآربها الخاصة ، وما لبثت حتى اندمجت في طبقة المتمولين طبقة ملاّك الارض ، واصبحت الاملاك صنفاً من رأس المال لا يختلف في طبيعتهِ والدخل الذي يجنى منهُ عن صنوف الرأسمال الاخرى . فكان المتمول بدد اولاً سلطة الاقطاعيين ثم جعل مصالحهم مصالحهُ الخاصة

ولكن اذا فازت طبقة العمال على طبقة المشوليز — كما فاز المتحزبون على امراء القدنية — لا يبقى تحت طبقة العمال طبقة اخرى من الامة تستغل في سبيل الطبقة الجديدة التي فازت بالسلطان . لذلك يكون الاجتماع الذي ينشأ على اثر فوز العمال اجتماعاً لا طبقات فيه ، فلا يكون قائماً حينئذ على استغلال طبقة لأخرى ، بل على الاشتراك في نتيجة الجهد الاقتصادي العام

***

على ان هذا الانتقال الى اجتماع لا طبقات فيه ، لا يمكن ان يتم فجأة . ذلك ان الانتقال من القدنية الى الرأسمالية اقتضى اولاً القضاء التام على ارباب القدنية ثم تحويل مصالحهم وجعلها مصالح الرأسماليين . كذلك طبقة العمال ، لا تستطيع ان تزيل الفوارق بين الطبقات قبل ان تقضي على الرأسماليين القضاء الاخير . ففي فترة الانتقال هذه تتسلم طبقة العمال مقاليد الامور وتحكم كطبقة ، من دون ان تشرك معها في الحكم ارباب النظام الزائل . هذه هي الفترة التي تعرف بفترة « دكتاتورية العمال » Dictatorship of the Proletariat وهي مرحلة لا ندحة عنها في الانتقال من الرأسمالية الى النظام الاشتراكي التام

***

ويرى بعض اتباع ماركس ، وبوجه خاص حزب الدمقراطيين الاشتراكيين في المانيا ان فترة الانتقال الموسومة بسمة دكتاتورية العمال ليست من صميم مذهب ماركس . لان فلسفتهم الاجتماعية قائمة على عقيدتهم بان الدولة الاشتراكية تنشأ نشوءاً متدرجاً من النظام الرأسمالي عن طريق التطور البرلماني . ولكن ليس ثمة ريب على الاطلاق في ان ماركس كان يرى ضرورة فترة الانتقال ودكتاتورية العمال في خلالها

وقد جعل الشيوعيون الروس فكرة الدكتاتورية ركناً من ارکان الخطة التي جروا عليها . ففي رأيهم لا يمكن ان تصبح روسيا امة لا طبقات فيها ، قبل ان يزول كل خطر من ثورة رجعية على النظام الشيوعي يقوم به فلول الرأسماليين واتباعهم ، وقبل ان يقضي القضاء الاخير على العناصر غير الاشتراكية في الامة الروسية . لذلك عمد الاوسر الى انهاء الطبقات الرأسمالية والحاكمة وتجريد الباقين منهم من الحقوق السياسية واضطهاد الملاك والسعي سعياً حثيثاً الى تحويل الزراعة في روسيا واقامتها على اساس اشتراكي . ولكن الروسيين لا يفكرون في جعل الدكتاتورية نظاماً باقياً للحكم في روسيا ، بعض تجريد بعض ابناء الامة الروسية من حقوقهم السياسية . على انهُ لا بد من ابقاء الدكتاتورية حتى يتم الانتقال . عندئذ يفتتح عهد الدولة الاشتراكية في اجتماع لا طبقات فيه

غرائب المناعة

اكتشاف خطير في العلاقة بين المناعة ضد الامراض والافعال العكسية المحولة

تشير المباحث الحديثة التي يقوم بها الدكتور متالنيكوف Metalnikov في معهد باستور الى امكان الحصول على مناعة وقتية ضد مرض من الامراض بمجرد امر الآمر. ولا يبعد ان يصبح في حيز التنفيذ العملي دعوة فرقة من الجنود الى الانتظام ثم ينفخ في البرق امامهم لحن معين فيكتسبون مناعة ضد الحمى التيفودية او الكوليرا !

ان مسألة المناعة من اخطر المسائل في علوم الحياة والطب. ومناعة الجسم ، أي مقاومته لمكروبات الامراض التي تغزوه ، صفة من الصفات الاساسية في الاجسام الحية. فثمة اولاً للمناعة الموروثة التي تولد في الجسم ساعة يولد . فالانسان منيع على الطاعون البقري وكوليرا الدجاج اي لا يمكن أن يصاب بهما . والاساريع منيعة على الدفتيريا والكزاز ولو حقنتها بجرعات كبيرة من ميكروباتهما، فان الكريات البيض في دمها لا تلبث بضعة ايام حتى تلتهم هذه الميكروبات كلها

ثم هنالك مناعة مكتسبة . فالاصابة بالحصبة مرة تمنحنا مناعة ضد الحصبة مدى الحياة على الغالب. كذلك الاصابة بالجدري . ومنذ ان قام العلامة باستور بمباحثه الخالدة تعلم الاطباء كيف يمنحون الجسم مناعة مكتسبة ضد امراض معينة . فالحقن بجرعة من مكروبات مرض معين ، بعد معالجتها بالاحماء او غير ذلك من طرق المعالجة لكسر شوكتها ، يهيىء الجسم لهجوم الميكروبات الغالبة عليه ، فيعرف كيف يتقيها. والحقن بالميكروبات الضعيفة ، يلقح في الدم مواد كيمائية ، تعرف بالاجسام المضادة ، وهذه اذا جاءت الميكروبات الغالبة ، قتلتها او جعلتها طعمة سائغة لكريات الدم البيض

فالمناعة ، موروثة او مكتسبة هي احدى غرائز البقاء او المحافظة على الكيان . ودرس هذه الظاهرة في النباتات والحيوانات يجلو لنا فرقاً من اخطر الفروق بين الاجسام الحية وغير الحية . على ان غرائز البقاء تقتضي جهازاً عصبياً. فالدفاع، سواء كان بالقتال او بالتموت، يسيطر عليه الجهاز العصبي. وافعال الدفاع، في الغالب افعال عكسية عصبية، لا سيطر شعورية للدماغ عليها

من هنا بدأ الدكتور متالنيكوف بحثه فسأل نفسه : اليست المناعة ضد الموت ، وهي من اقدم واخطر وسائل الدفاع عن النفس ، تحت سيطرة الدماغ كذلك ؟

جرب الدكتور متالنيكوف تجاربه الاولى بالاساريع Caterpillars . ولهذه الحيوانات ميزتان خاصتان تجعلانها صالحة لمثل هذه التجارب . أولاً يسهل توليد المناعة ضد الامراض فيها.

فاذا حقنت هذه الاسريم بجرعات كبيرة من مكروبات الكوليرا قضت عليها ، ولكن تتولد فيها مناعة ضد الكوليرا في خلال اربع وعشرين ساعة اذا حقنت حقناً متتالية بجرعات صغيرة . والميزة الثانية ان دماغها ليس مركزاً في مكان واحد من جسمها كدماغ الانسان . فهو مقسم اقساماً عديدة في كل مقطع منها قسم قريب من الجلد ، فكأن هذه الاقسام عقدٌ من الخيّات ، تتصل كل حبة بالاعصاب التي تمتدُّ في الجسم . ويسهل على الباحث ان يتلف احد هذه الاقسام بغرزة ابرة من دون ان يميت الحشرة نفسها

فاسفرت التجارب التي جرّبها متالنيكوف عن ان مقدرة الحشرة على توليد المناعة في جسمها لا يتأثر قط اذا اتلفت كل اقسام الدماغ في جسمها ، الا القسم الخامس من الرأس . ذلك انهُ اذا اتلفت خلايا الدماغ في هذا المركز اصبحت الحشرة لا تستطيع ان تولد المناعة في جسمها ضد مكروبات الكوليرا . ففي هذا برهان قاطع على ان الجهاز العصبي يبدأ في دفاع الحيوان عن نفسه ضد مكروبات المرض

فلما ثبت لهُ هذا في اجسام الاساريع ، اراد ان يعرف موقف الحيوانات الفقرية — ومنها الانسان — من هذه الحقيقة . ولكن التجربة في الحيوانات الفقرية اكثر تعقداً منها في الحشرات . وصحيح ان تجارب كثيرة كانت قد جريت في الكلاب باتلاف بعض مراكز الدماغ ومراقبة النتائج في تصرُّف الكلب فعرفت وظائف مراكز الدماغ المختلفة بوجهٍ عام . ولكن الوصول الى تعيين الخلايا الدماغية التي تسيطر على المناعة بهذه الطريقة ، عملٌ معقّد عملٌ . لذلك اختار الدكتور متالنيكوف خطة اخرى للبحث

لقد بينا ان اعمال الدفاع في سبيل البقاء ، في الجسم الحيّ هي في الغالب افعال عصبية عكسية (reflex action) اي انها تتم من دون سيطرة الدماغ الشعورية . فالآكل يفرُّ مبادرة اذ يرى شيئاً متحركاً . والرجل الذي يوشك ان يغرق يتعلق باصغر الاجسام الطافية . ومنهُ المثل العربي (الغريق يتعلق بحبال الهواء) . وقد عني الاستاذ بافلوف الروسي في اواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن بدرس هذه الناحية من الافعال العصبية فوسّع نطاق معرفتنا بها . وقد اثبت بافلوف انهُ اذا كان الباعث على فعل عصبي عكسي يصحبهُ باعث آخر ، امكن بعد ترديد الباعثين مراراً ، الاستغناء عن الباعث الاول والاكتفاء بالباعث الثاني في استثارة الفعل العصبي نفسه . فاذا قدّمت لكلب طعاماً كان تقديم الطعام باعثاً على سيل لعابه . وسيل اللعاب في الكلب يتم بفعل عصبي عكسي . فاذا اقترن تقديم الطعام بقرع جرس ، عدة مرات ، ثم استغني عن تقديم الطعام واكتفي بقرع الجرس ، كان قرعهُ باعثاً على سيل اللعاب ، اي على احداث الفعل العصبي العكسي ؛ فهو فعل عكسي عصبي محوّل . وقد دعي بالانكليزية Conditioned reflex وكتب عالم في مجلة نايتشر ان هذا الاسم غير موفق ، لذلك نرى ان ترجمتهُ الحرفية — اي بالفعل المعكوس الشرطي او المشروط غير موفق

كذلك ، والافضل ترجمة الاصطلاح بمعناه — وهو التحوّل . والتحول هنا هو من الغاب للقرع الجرس بدلاً من سيد نرؤية الطعام

وقد اختار الدكتور متالنيكوف اسلوب «الافعال العصبية المحوّلة» لامتحان فكرة المناعة التي اقبلنا في تجاربه بالاسابيع حتى يعلم هل للمناع الحيوانات الفقرية أثر في توليد مناعة الجسم او لا

اخذ طائفة من الارانب وخنازير الهند ، وحقنها بمكروبات مرضية اضعف فعلها بالاحماء وفي الوقت نفسه كان يدغدغ الحيوانات المحقونة ويحمس آذانها أو ينفخ ببوق معين على مقربة منها . فتولدت المناعة في اجسامها بالطريقة العادية ، ثم لم تلبث هذه المناعة ان زالت كما تزول كل مناعة مكتسبة بعد زمن قصر او طال . وزوال المناعة المكتسبة يعني ان الارانب وخنازير الهند اصبحت غير قادرة على مقاومة مكروبات المرض الفائعة اذا دخلت جسمها . ولكن بدلاً من ادخال مكروبات المرض الفائعة في جسمها لمعرفة مقدرتها على مقاومة المرض وهل هي لا تزال عندها مناعة او لا ، توجد طرق اثبتها العلم تعرف بها حالة دم الحيوان وهل زالت مناعته المكتسبة او لم تزل . ذلك انهُ اذا اكتسب الدم مناعة حدث فيه تحوّلان: اولاً يزيد عدد كرياته البيض . ثانياً تتكون اجسام مضادة . فالكريات البيض يمكن احصاؤها . والاجسام المضادة يمكن الكشف عنها بكواشف خاصة ، مثل وضع قطرات الدم في انبوب واضافة ميكروبات اليها فاذا فتك بالمكروبات ثبت ان في الدم اجساماً مضادة

واذن بعد انقضاء زمن ، تزول المناعة المكتسبة من دم الارانب وخنازير الهند . وتصبح حالة دمها عادية . فليس فيهِ اجسام مضادة ، وليس فيه زيادة في كرياته البيض . كذلك الانسان . فانهُ اذا حقن ضد الحمى التيفودية او الكوليرا ، تزول مناعتهُ المكتسبة بعد سنة او سنتين فيجب ان يحقن نفسهُ من جديد اذا شاء ان يبقى منيعاً عليها

وهنا مكان الاكتشاف الجديد . ذلك ان الدكتور متالنيكوف وجد انهُ بدلاً من ان يعيد حقن خنازير الهند بالمكروبات ليعيد الى دمها المناعة المكتسبة التي زالت بعد زمن ، يمكن ان يجدد هذه المناعة بمجرد دغدغتها او حس آذانها او النفخ ببوق على مقربة منها ، اي بتكرار الفعل الذي صحب الحقن من قبل — وهو من قبيل الفعل العصبي المحوّل . وعلل أثر ذلك ظهرت في الدم الاجسام المضادة . ويقول الدكتور مغرو فوكس — استاذ الحيوان بجامعة برمنغهام وحرر مجلة «الخلاصات البيولوجية» الذي لخصنا عنهُ ما تقدم — ان هذه النتائج أيدها باحثون آخرون قاموا بتجاربهم على حدة وهي تثبت اولاً ان للجهاز العصبي يداً في المناعة ، وان هذه الحقيقة قد تكون ذات خطر في شؤون الناس الصحية . وليس في ذلك ما يثير العجب . فالاوزيا (التهاب في الاذنين) والحروق والجراحات شفيت بالاستهواء . والتهيء والنوم والتغيّر في ضغط الدم يمكن احداثها بكلمة او بفعل عكسي محول

اللهُ والشاعر

لشاعر علي محمود طه

لا تفزعي يا أرضُ : لا تفرقي ... من شبحٍ تحت الدجى عابرِ
ما هوَ إلاّ آدميٌّ شقيٌّ ... متّهمٌ بين الناسِ بالشاعرِ

حنانَكِ الآنَ فلا تُنكري ... سبيلَهُ في ليلكِ الباسرِ
ولا تُضلّيهِ ولا تَسفري ... من خلفكِ المستصرخِ البائسِ

مُدّي لعينيهِ الرّحابَ الفساحْ ... ورفرفي الأضواءَ في جفنهِ
وأمسكي يا أرضُ عصفَ الرياحْ ... والرّاعدَ المنصبَّ في أذنهِ

أتسمعينَ الآنَ في صوتهِ ... تَهدُّجَ الأنّاتِ من قلبهِ ؟
وتقرأينَ الآنَ في صمتهِ ... تَمرُّدَ الرُّوحِ على ربهِ ؟

في وقفةِ الذّاهلِ ألقى عصاهْ ... مُولّيَ الجبهةِ شطرَ الفضاءْ
كأنما يَرقُبُ الدجى ناظراه ... ليستشفّا ما وراءَ السماءْ

يَسقُطُ ضوءُ البرقِ في أمهِ ... على جبينٍ باردٍ شاحبِ
ويستثيرُ البردُ في لفحهِ ... ناراً تلظّى من فمٍ ناضبِ

أنتِ لهُ يا أرضُ أمٌّ رؤومْ ... فأشهدي الكونَ على ضعفهِ
ورددي شكواهُ بين النجومْ ... فهوَ ابنكِ الإنسانُ في حيرتهِ !

ما هوَ إلاّ صوتكِ المرسلُ ... وروحكِ المستعبدُ المرهقُ
[illegible]

طغى الأسى الدّاوي على صوتهِ ... يا للصدى من قلبهِ النّاطقِ
مضى يبثُّ الدهرَ في خفتهِ ... شكايةَ الخلقِ إلى الخالقِ

لا تَعْذُلي يا ربةَ في محنتي ... ما أنا إلاّ آدميٌّ شقي
طردتني بالأمسِ من جنتي ... فاغفرْ لهذا الناسِ الخطرْ ؟

حنانكَ اللهمَّ لا تغضب أنتَ الرفيقُ القلبِ جمُّ الحنانْ
ان كنتُ في شكواي بالذنبِ فمنكَ يا ربِّ أخذتُ الأمانْ

ما أنا بالزاري ولا الحاقدِ لكنني الشاكي شقاءَ البشرْ
أفنيتُ عمري في الأسى الخالدِ جئتُ أستوحيكَ لطفَ القدرْ

عُدتَ روحي على هيكلي وهيكلُ الجسمِ كما تعلمُ
ذاكَ الضعيفُ الرأيِ لم يفعلِ إلاَّ بما يوحي اليهِ الدمُ !

يَعْرُقُ حدُّ السيفِ من لحمهِ ويحطمُ الصفوانُ بنيانَهُ
وينخرُ الجرثومُ في عظمهِ ومنهُ يُنْمي القبرُ ديدانَهُ !

ما هو إلاَّ كومةٌ من هبةْ تحقهُ اللمسةُ من غضبتكْ
فكيفَ يثني الروحَ عما تشاءْ ؟ وكيفَ يقوى وهي من قدرتكْ !

روحكَ في روحي تبثُّ الحياةْ زلتُ دنيايَ على نورها
فإنْ جفاها ذاتَ يومٍ سناهْ لاذتْ بليلِ الموتِ في قبرها !

ومهما قدَّرتَ صورتَها فروحكَ الصوتُ وروحي الصدى
طبيعةٌ في الخلقِ ركَّبتَها وما أرى لي في بناها يدا !

لكنَّما روحُكَ من جوهرٍ صافٍ وروحي ما صفتْ جوهرا
أوَلاَ ؟ فما للخيرِ لمْ يُثمرِ فيها ؟ وما للشرِّ قد أثمرا !!

تقولُ روحي إنَّها مُلهَمَةْ فهيَ لما قدَّرتَهُ مُتبعَةْ
مقودةٌ في سيرها سِرْ بها وإنْ تراءتْ حُرَّةً طبِّعَةْ !

قيَّدتَها بالجسمِ في عالمٍ تَفسَحُ بالشهوةِ فيهِ الجسومْ
كلاهما في حبِّهِ الآثمِ لم يصحُ من سكراه وهو الملومْ !

تُبدي بهِ الأجسامُ سحرَ الحياةْ في معرضٍ يجلو غريبَ الفنونْ
نواعسَ الأجفانِ حُمرَ الشفاهْ شديدةَ الإغراءِ شتى الفتونْ !

ولم أكنْ أولَ مغرًى بما أغرتْ بهِ حواء أو آدما
إرثٌ تشبَّى في دمي منهما ميراثهُ ينتظمُ العالما !!

فأنتَ قدَّرتَ عليَّ الشقاءْ من حيثُ قدَّرتَ عليَّ النعيمْ
وما أرى !! هل في غدٍ لي نواءْ بالخلدِ ؟ أمْ مثوايَ نارُ الجحيمْ ؟

ما اثِمَتْ روحي ولا أجرمتْ ولا طغى جسمي ولا استهترا
عناصرُ الروحِ بما أُهِمَتْ أوحتْ الى الجسمِ فما قصَّرا

كلاهما لم يَعْدُ تصويرَهُ ما كان إلاَّ مِثْلما كُوِّنا
كم حاولا بالأمرِ تغييرَهُ فاستكبرَ الطبعُ وما أذعنا

أمنذري أنت يوم الحسابْ ؟ ولائمي أنتَ على ما جرى ؟
رُحماكَ! ما يُرضيكَ هذا العذاب لطبعٍ لم يَعْصِ ما قُدِّرا !!

ما كنتُ إلاَّ مِنْفارُ كُبِّتْ غرائزي: ما شئتَ لا ما أشاءْ
فلتجزِها اليوم بما قدَّمتْ وإن تكنْ مما جَنَتْهُ براءْ !

وفيمَ تُجزى وهيَ لم تأمرِ ؟ ألستَ أنت الصانعَ الطابعا ؟
ألمْ تَسِمْها قبلُ بالميسمِ ؟ ألمْ تصُغْ قالبَها الرائعا ؟؟

ألم تصُغْها عنصراً عنصرا من أين ؟ ما علمي ؟ وأنتَ العليمْ !
جَبَلْتَها يومَ جبلتَ الثرى من عالمِ الذرِّ ودنيا السَّديمْ

الخيرُ والشرُّ بها توأمانْ والحبُّ والشهوةُ في طبعها
حواءُ والشيطانُ لا يبرحانْ يُساقيانِ السِّحرَ في كأسها

تَشكَّكتْ نفسي بما تنتهي إليهِ دنياها وماذا يكونْ !
مضتْ فما آبتْ بما تشتهي من حيرةِ الفكرِ وعجزِ الظنونْ!

رأتْ أساري في قيودٍ ثقالْ بين يدَيْ ذي مِرَّةٍ يبتسمونْ
يسوقهم في فلواتِ الليالْ في بطشِ جبَّارين لا يرحمونْ

إنّ نهجٌ في الأغلال منهم طليحٌ أخرسهُ السوطُ الذي يُرهفُ
وإنّ هدى للأرض منهم جريحٌ أمضهُ في فيهِ يَرْشُفُ

يا ويحهم ما عرفوا موئلا من قسوةِ الدهر وجورِ القضاءْ
يا أرضُ ما كنتِ لنا منزلا ما أنتِ إلا موبقُ الأبرياءْ !!

أفي سبيلِ العيشِ هذا الصراعْ ؟ أم في سبيلِ الخلدِ والآخرهْ ؟
وهؤلاء البائسونَ الجياعْ تطعمهم تلك الرّحى الدائرهْ ؟؟

ما ذنبُ هذا العالمِ الثائرِ ؟ إنْ حاولَ الإفلاتَ من أسرهِ ؟
ما كانَ في ميلادهِ الغابرِ أسعدَ حالاً منهُ في حاضرهِ !!

ما كانَ لَوْ لم تَنْتزِعْ آلامُهُ بالماجنِ الرُّوحِ ولا الهائمِ
ولو جَرَتْ بالعفوِ أيامُهُ ما كانَ بالزّاري ولا الناقمِ

رأى بعينيهِ المصيرَ الرهيبْ وكيف غالَ الناسَ من قَبْلهِ
وكلّ يومٍ للمنايا عصيبْ يسوقُهم للموتِ من حولهِ !

فحقّرَ الدُّنيا وأزرى بها وقالَ : مالي أنكرُ الواقعا ؟
فلْتَسْعَدِ النفسُ بأحلامها من قَبْلِ أن تلقى الغدَ الرائعا

أيصبحُ الإنسانُ هذا الرسيمْ ؟ والجيفةَ الملقاةَ نهبَ الترابْ ؟
أيستحيلُ الكونُ هذا الهشيمْ والظلمةَ الجاثمُ فيها الخرابْ ؟

لمنْ إذاً تُبدعُ تلك العقولْ ؟ أفي الرّدى تدركُ ما فاتها ؟ ؟
أم في غدٍ تلقى بتلك الطلولْ ويسدلُ الدهرُ يراقيتها ؟ ؟

وآسفا للعالمِ البائدِ ليس له مما يَرى مهربُ
على رنينِ المِعْبَدِ الخاصرِ عفى يُغَنّي .. وهو لا يطربُ ..

فدعهُ ينسى بعضَ ما حُمّلا من نكدِ الدُّنيا وضنكِ الحياهْ
وأوّلُ العطفِ الذي أُمّلا فانهُ أولى بعطفِ الاله !

ما هي إلاّ لحظاتٌ فبصارْ ... تُمرُّ مثلَ الومضِ في عينهِ
فإن مضى الليلُ وجاءَ النهارْ ... عاودَهُ الخالدُ من حزنهِ !

وما أتى العَيُّ ليعصى الالهْ ... يوماً ، ولا كانَ بهِ مُغرما
لكنْ ليُنسى شقواتِ الحياهْ ... وسرُّها المستغلقَ المبهما !

يا للشقيِّ القلبِ كم سامهُ ... توهّمُ النعمةِ ما لا يُطيقْ
يُريدُ أنْ يُقنعَ اوهامهُ ... بأنهُ ذاكَ الحليُّ الطليقْ

هأنذا ارفعُ آلامهُ ... إلى سماءِ المنقذِ الاعظمِ
أنا الذي تُرسلُ أنغامهُ ... فيثارةَ القلبِ ونايَ الفمِ

من عبراتي صُنعتْ هذا المقالْ ... ومن لهيبِ الروحِ هذا القلمْ
ملأتُ منهُ صفحاتِ الليالْ ... فعُمِّشتْ كلُّ معاني الالمْ

انا الذي قدّستَ احزانهُ ... الشاعرُ الباكي شقاءَ البشرْ
فجرّتَ بالرحمةِ الحانهُ ... فطالما بها يا ربِّ قلبَ القدرْ !

ما الشاعرُ الفنّانُ في كونهِ ... الاّ يدَ الرحمةِ من ربّهِ
مُعزّيَ العالمِ في حزنهِ ... وحاملَ الآلامِ عن قلبهِ

عزاؤهُ شعرٌ بهِ أهزجُ ... في نَغَمٍ مستعذبٍ ساجرِ
ما يحزنِ العالمَ او يبهجُ ... الاّ على قيثارةِ الشاعرِ

يا ربِّ ما اشقيتني في الوجودْ ... الاّ بقلبي : ليتهُ لم يكنْ
في المثلِ الأعلى وحبِّ الخلودْ ... حمّلتهُ العبءَ الذي لم يهنْ

خلقتهُ قلباً رقيقَ الشغافْ ... يهيمُ بالنورِ ويهوى الجمالْ
حلتْ لهُ النجوى ولذّ الطوافْ ... بسالمِ الحسنِ ووادي الخيالْ

بعثتهُ طيراً خفوقَ الجناحْ ... على جناني ذاتِ ظلٍّ وماءْ
أطلقتهُ فيها قبيلَ الصباحْ ... وقلتَ : غنِّ الأرضَ لحنَ السماءْ

فهامَ في آفاقها انواسمهْ الشعرُ يهفو حولَه والندى
مُصفقاً للضحوةِ الباطمهْ ومُنشداً ما شاء أن يُنشدا

إذْ جاء صيفٌ أو تجلّى ربيعْ حيّاهُ منهُ عبقريُّ الغناءْ
وكم خريفٍ في نشيدٍ بديعْ تظلُّ تروبه ليالي الشتاءْ

قيثارةٌ تصدرُ في فنها عن عالم السحر ودنيا الخفاءْ
على الصدى الحائرِ من لحنها يستيقظُ الفجرُ ويغفو المساءْ

مشتْ على الأمواجِ أنغامُها والأرضُ قيدَ النشوة المسكره
كأنّما رقصُ أحلامُها في ليلةٍ شرقيةٍ مُقمره!

من قلبهِ أسلمتْ أوتارَها فقلبُهُ يخفقُ في كفّهِ
يشدو فتُملي النفسُ أسرارَها عليهِ فهيَ اللحنُ من عزفهِ

ذاتَ صباحٍ طار لا يُهمِلُ والأرضُ سُكرى من عبير الزهورْ
على حصاها رنّمَ الجدولُ وفي دواليها تُغنّي الطيورْ

ما كان يدري قبلَ ان ينظرا ما خبّأتْهُ النظرةُ العاجله
ما أبدعَ الحلمَ الذي صوّرا لو لم تُنبّهُ اليقظةُ القاتله!

مرّ بنهرٍ دافقٍ سلسبيلْ تهفو القهاري حوله شاديه
في ضفتيهِ باسقاتُ النخيلْ ترعى الشياهُ تحتها ثاغيه

فهاجت النظرةُ مما رأى في قلبهِ السحر وفي عينهِ
الكونُ يبدو وادعاً هانئاً كأنهُ الفردوس في أمنهِ

فظلَّ في التفكير مستغرقاً من فتنة الدنيا ومن سحرها
ما كان الا ريثما حدّقَ حتى حلتْ دنياهُ من سرّها

رأى بعينيهِ التي لم ترَهْ الذئبَ والشاةَ وحربَ البقاء
ما عرفَ القتلَ ولا ابصرهْ ولا رأى من قبلُ لونَ الدماء!

ما هي إلاَّ صرخاتُ الفزعْ وصيحةُ المقتولِ والقاتلِ
قد انقضى الامرُ كأنْ لمْ يقعْ وضاع صوتُ الحقّ في الباطلِ

وبعدَ ساعاتٍ يُولّي النهارْ ويقبلُ الليلُ وما يعلمُ !!
سيلبثُ السرُّ وراءَ الستارْ ويختفي الثلمُ ويُمحى الدمُ !!

فروّعَ الشاعرُ مما رآهُ وهامَ في الارضِ على وجههِ
أين ترى يا ارضُ يُلقي عصاهُ ؟ وأيّ وادٍ ظلّ في تيههِ ؟

حتى اذا شارفَ ظلّ الشجرْ في روضةٍ غنّاه ربّا الأديمْ
قد ضحكتْ للنور فيها الزهَرْ وصفّقتْ اوراقُها للنسيمْ

إختارَ في الظلّ له مقعدا في ربوةٍ فاتنةٍ ساحره
أذابَ فيها الشفقُ المسجدا ونامتها النسمةُ العاطره

بينا يجيلُ العينَ في سحرها إذْ أبصرَ الظلّ بها مُطرقا
قد انتحى الاطيارَ في وكرها فنامها من نابهِ موثقا

هل سمعتْ أذناكَ قصفَ الرعودْ في صخبِ الريحِ ورجفِ البحارْ ؟
هل أبصرتْ عيناكَ ركضَ الجنودْ في فزعِ الموتِ وهولِ الفرارْ ؟

إن كنتَ لم تبصرْ ولم تسمعِ فَقِفْ الى ميدانها الاعظمِ
ما بين ميلادكَ والمصرعِ ما بين نابيْ ذلك الأرقمِ !!

جريمةُ الغدرِ وسفكِ الدمِ جريمةٌ لم يخلُ منها مكانْ
يا لجةَ كلٍّ إليها ظمي قد حازَ طوفانُكِ شمَّ القنانْ !

من علّمَ الوحشَ الاذى والقتالْ ؟ وبثَّ فيهِ الشرَّ أو ألهمهْ ؟
من علّمَ الثعبانَ هذا الختالْ ؟ والحيوانَ الغدرَ من علّمهْ ؟

يا أرضُ هذا الوحيُ من عالمكْ الطينُ والماءُ به يشهدانْ
ظلمتِ إنسانكِ ما أظلمكْ إذ سمتهِ بالاسرِ غيرَ الجنانْ !

يا ضلّةَ الشاعرِ أين النجاةْ وأين أين المفرُّ الآمنُ
أكلُّ وادٍ نزلتَه خطاهْ طالعةٌ منهُ الرّدى الكامن ؟

حتى اذا ضاقتْ عليهِ السُّبُلْ وعزَّ في الارض عليهِ المقامْ
أوى الى كهفٍ بسفح الجبلْ عساهُ يقضي ليله في سلامْ

ما كان إلاّ حُلُماً كاذبا أفاقَ منهُ مستطيرَ الجَنانْ
البحرُ يرغي تحتهُ صاخبا والشهبُ نارٌ والدياجي دخانْ

الارضُ من أقطارها راجفه كأنما طافه عليها المنونْ
تضجُّ في أرجائها العاصفه كأنما الناسُ بها يحشرونْ !

ثم استقرّ العالمُ الثائرُ وأقبلَ النورُ وولّى الظلامْ
واعجباً مما يرى الشاعرُ كأنما أمسى بوادي الحمامْ !

بَدتْ لهُ الارضُ كقبرٍ عفا إلاّ بقايا رِمّةٍ أو حجرْ
قد أصبح القاعُ بها صفصفا ثما عليها من حياةٍ أثرْ

مَرَرْتُ بالبُلدانِ مُستعبرا أبكي الحضاراتِ وأرثي الفنونْ
أنقاضُها تملأ وجهَ الثرى وكنَّ بالامس مثارَ الفتونْ !

أنّى على اليابسِ والاخضرِ الموجُ والنوءُ وسيلُ الحُمَمْ
يا رحمةَ اللهِ اهبطي وانظري ماحصدَ الموتُ ودكَّ العدمْ ! !

أيستحقُّ الناسُ هذا العقابْ ؟ أم جانتْ الساعةُ من تقمتك !
ما احتملوا يارب هذا العذابْ الا رجاء الثوبة من رحمتك

أما ترى مفرجاتِ الشفاهْ عن آخر الصيحات من رعبها ؟
ما زال فيها من معاني الحياهْ إيماءةُ الشكوى إلى ربها !

وهذه الأعينُ نهبَ العفاء في رقدةِ الموتِ كأنْ لم تنمْ
محدّقاتٍ في نواحي السماء تشهدها على الأسى والألمْ

وهذه الأيدي تحوط الصدورْ كأنها في موقفٍ للصلاهْ
لم تنسَ في زحمة الحياة الغرورْ ضراعةً ترسمها للإلهْ !

ما عرفتْ في صعقاتِ الردى إلاّك من غوثٍ ومن منجدِ
ولا سرى في الارض منها صدى إلاّ ودوّى باسمك الأمجدِ !

أعبرةً تذكرها كلَّ حينْ للعالمِ الذّاكرِ إمّا نسي ؟
أمْ ضرباتٍ قاسياتٍ تلينْ بهنَّ قلبَ الفظِّ والأشرسِ ؟

أم موجةُ الطهرِ التي تغسلُ ما آثمَ الكونِ وتمحو أذاهْ
يا ربِّ رضّنا بالذي نحملُ فحسبُنا آلامُنا في الحياهْ !!

ألمْ تُطهّرْ ذلك العالما من كلِّ عاصٍ أو غويٍّ جموحْ ؟
ما غادر الموجُ به قائما يومَ احتوى الاعلامَ طوفانُ نوحْ!

إذاً فما للناس ضلّوا الهدى ؟ وأخطأوا اليومَ سبيلَ الرشادْ ؟
لعلَّ نوحاً أخطأ المقصدا فأغرقَ الخيرَ ونجّى الفسادْ !!

يا ليتَهُ لما دعا بابنهِ وحالتْ الأمواجُ أنْ يُسمعا
لجَّ عليهِ القلبُ في حزنهِ فلم يَرَ الجوديَّ لمّا دعا !!

يا أرضُ ولّى عهدُ نوحٍ وزالْ فمن لكِ اليومَ بطوفانهِ
سكينةً تغوينَ بحرَ الليالْ قد عزَّ كِ المرسى بشطآنهِ !

إلامَ تطوين عبابَ السنينْ شوقاً إلى فردوسكِ الضائعِ ؟
عُمّرتِ يا أرضُ يا تحلمينَ فاستيقظي من حلمكِ الخادعِ !!

وابقيْ كما أنتِ على موجهِ تُمزّقُ الانواءُ منكِ الشراعْ
يقذفكِ التيّارُ في لجّهِ عشواءَ لا يهديكِ فيهِ شعاعْ !

سلي القداساتِ وأربابَها ضراعةً تُصغي اليها السماءْ
أو فاطرقي بالبشرِ أبوابَها لعلّها ترفعُ عنكِ الشقاءْ !

يا أيها الغادون والرائحون ... في شعب الارض وليل الهموم
تسعون أشتاتاً كما تسعون ... والشمس حيرى فرقكم والنجوم

سدّوا لها الايدي وولّوا الجباه ... وأرسلوها صيحةً واحده
قولوا لها : يا من شهدت الحياه ... من أين تلك النظرة الجامده ؟

من أين تلك النظرة الهادئه ؟ ... والقسمات المشرقات الجبين ؟
هل أنت من آلامنا هازئه ؟ ... أم أنت يا أعين لا تبصرين ؟

أم هكذا أوحى اليك القضاء ... فما عرفت الحزن والأدمعا ؟
يا أيها الناس اضرعوا للسماء ... قد آن أن تشفى وان تشفعا

هاتوا الازاهير وهاتوا الغصون ... وكلّ ما يحلو وما يجمل
قد آن أن تشفعوا بما تشعرون ... فأشعلوا النار بها أشعلوا !!

أو فاملأوا من زهرها اليانع ... مجامر النار وألقوا البخور
وردّدوا في ذلّة الضارع ... انفاسكم نشوى بتلك العطور

أحببْ بها من أنّة عاطره ... في مسمع الأملاك إذ تصعدُ
أسداؤها الرقّة الحائره ... في وجهها الآفاق لا توصدُ !!

يا أرض ناديتُ فلم تسمعي ... أنكرتِ صوتي وهو من قلبك
لا تفرقي مني ولا تفزعي ... من شاعرٍ شاكٍ الى ربّك

أيتها المحزونة الباكيه ... لا تيأسي من رحمة المنقذ
لعلّ من آلامك الطاغيه ... إذا دعوت الله من ملفذ !

فابتهلي لله واستغفري ... وكفكفي عنك بنار الألم
وقدّمي التوبة واستمطري ... بين يديه عبرات الندم !!

في اي طريق تُساق الحضارة؟

الازمة الاقتصادية : بواعثها واحتمالاتها الاخيرة

لاسماعيل مظهر

تمهيد

لكل عصر من العصور ، حتى العصور التي ساد فيها الرخاء المالي وتيسرت الارزاق ، ازماته الروحية . فيران للازمات الروحية مبتدأ وخبراً كالجملة الصحيحة في تركيب الكلام. ولقد بدأت الازمات الروحية العنيفة تتكون في بداءة العصر الانتاجي ، وظهرت في صور عديدة أهمها انقسام الجماعات الى شطرين كبيرين ، العمال واصحاب الاموال ، وكادت الآن تصل الى النهاية او بالاحرى كادت يكون لها خبراً — ينذر الاجتماع الانساني بانقلاب خطير في نظمه الاقتصادية والمدنية.

وللازمات الاقتصادية ازمات روحية تصحبها . حتى ان من شأن الازمات الاقتصادية ان تحدث ازمة روحية لها مظهر خاص . غير ان العوامل الروحية في الازمة العالمية الحاضرة قد بلغت حداً لن يفلت معهُ النظام الحاضر من انقلاب خطير . وهذا امر ينبغي على كل باحث في الازمة الاقتصادية واحتمالاتها أن لايخرج عنهُ من حساب التقدير النظري الذي يقدره للنتائج التي سوف تجر اليها الازمة الحاضرة

سوف ينتهي النظام الرأسمالي من حيث بدأ . بدأ بالانتاج الصناعي وسيحطمه الانتاج الصناعي . بدأ باحتراع الآلات وسوف تمضي عليهِ الآلات . بدأ باستجماع رؤوس الاموال وسوف تقتله رؤوس الاموال . بدأ بالقضاء على الوحدات الصناعية الصغيرة التي كانت تنتج على قدر استهلاك الاسواق ان لم يكن اقل ، وينتهي بوحدات صناعية كبيرة ، انقلبت بعد الحرب العالمية من المصنع الكبير الى أمة صناعية تختص بها كل أمة من الأمم . فان معاهدات السلم الحربي وضعت في الحقيقة قواعد الحرب الاقتصادية . فالحواجز الجمركية احدى نتائج تلك المعاهدات . وادمان التسليح نتيجة اخرى . اما كبرى النتائج فتنحصر في ان معاهدات السلم خلقت ممالك جديدة هي عبارة عن وحدات سياسية مستقلة استقلالاً تامًّا ، ولكنها لا تكوّن وحدات اقتصادية مستقلة . فبولونيا مثلاً وحدة سياسية كاملة الاستقلال ، ولكنها لم تكوّن وحدة اقتصادية بعد . لان نظامها المالي كان متعلقاً بنظام ثلاث دول هي روسيا والمانيا والنمسا . فبدأت تسعى الى نيل هذا الاستقلال المالي فاخذت تقيم الحواجز الجمركية وتشجع

الصناعات الوطنية الاهلية. فترتب على ذلك نتائج ثلاث. الاولى زيادة الانتاج في بولونيا. الثانية قلة الاستهلاك والصادر، لان غيرها حذى بالضرورة حذوها في الانتاج. الثالثة فقدان متاجر العالم سوقها في بولونيا للحواجز الجمركية التي رفعتها حولها. وكذلك الحال اذا نظرت في كل الممالك الحديثة التي خلقتها معاهدات السلم. وهذا «الاحتكار» لا بد ان يقابل من بقية دولات العالم القديمة باحتكار مثله. وحتى نحن في مصر بدأنا نحتكر اسواقنا تحت ضغط السيل الجارف في اوربا. فكأن العالم كله يناصر الآن عوامل الازمة الاقتصادية، ويقوي في النفوس بواعث الازمات الروحية. وكأن المدنية تعود الى الصورة القديمة التي نشأت منها الحضارة الحديثة. تعود الى نظام الوحدات الانتاجية المستقلة. ولكنها بعد ان كانت في «البيت» اصبحت في المعمل ومن المعمل الى مجموع معامل تشملها مملكة واحدة، مستقلة استقلالاً سياسيًّا، ولكنها غير مستقلة استقلالاً اقتصاديًّا. وفضلاً عن هذا فهي تنتج اكثر مما تستهلك وتكدس البضائع والاموال، في حين ان البضائع لم تصنع الا لتستهلك، والاموال لم تكن الا للتعامل

كيف نشأت الحضارة الرأسمالية

جرت عادة الباحثين ان يقسموا تاريخ نشأة النوع البشري الى عصور يمتاز كل عصر منها باستعمال مواد مخصوصة يدل استعمالها على ان الانسان قد بلغ طوراً خاصًّا من الرقي والنماء. ولقد ارضى هذا التقسيم كل الباحثين في نشأة الانسان وتكوين الشعوب، لان ذيوع استعمال مادة من المواد قد اتخذ دليلاً على ان الانسان قد بلغ من الرقي مبلغاً يقاس به مقدار تمدنه واتساع أفق معرفته وثقافته. ومع هذا فان انتقال الانسان من عصر استعمال الحجر المخشن الى العصر الظراني القديم ومنه الى العصر الظراني الحديث، ومنها الى استعمال النحاس ثم البرونز ثم الحديد، ولو انه يدل على ان الانسان استطاع ان يتقدم في اطوار متمايزة محدودة، فان هذا التقدم لا يمكن ان يعتبر تطوراً اساسيًّا عنيفاً في الحالات التي قامت عليها الحياة البشرية. وظلت الحياة البشرية قائمة على الاسس التي قامت عليها منذ ان درجت جماعات الانسان البدائية فوق هذه الارض وعلى مدى الازمان التي تقلب الانسان خلالها في حجر المدنيات المتعاقبة. ولقد يظهر الامر عجيباً مذهلاً اذا انت عرفت ان الانسان ظل يعيش ويعمل على نفس القواعد البدائية التي وضعها اسلافه منذ اقدم العصور التي يرجع اليها تاريخه الطويل حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولم يستكشف خلال تلك الدهور الطويلة من استكشاف استطاع به ان يؤثر في الرابطة التي تربط الانسان ببيئته الطبيعية. فمنذ بداءة العصر الظراني قاوم الانسان الطبيعة بقوة عضلاته، وحاول ان يذللها بمهارته مع الاستعانة عليها بالحيوانات التي استطاع ان يؤلفها حتى ذلك العهد. وظل الانسان على هذه الحال حتى شارف القرن الثامن عشر على الانتهاء

غير ان حادث عظيم وقع اذ ذاك في حياة الانسان فنكث فتله وقلب آيته وغيّر موقفه من الطبيعة تغييراً كلياً . فقد استكشف او بالاحرى اخترع « الآلة » التي تدار بالقوة الذاتية « اي الاتوماتيكية » . وان شئت فقل انهُ استطاع ان يبعث من العدم قوات جديدة خارجة عن قوة عضلاته ومن قوة الحيوانات التي كان يستخدمها في العصور الاولى ولم يقف الامر عند هذا . بل انه استطاع ان يبعث من تلك الآلات « قوات » عظيمة لا تعرف حداً تقف عنده ولا نهاية تنتهي اليها . وامكنهُ مع هذا أن يخضع هذه القوات لا لقوات تماثلها، بل لافراد من نوعه، واذا شاء فلارادة فرد واحد ، وتسنّى له ان يحبس هذه القوات في اقل فراغ ممكن من المادة وسخّرها لارادته المطلقة تسخيراً

وكان الانقلاب عظيماً . فان علاقة الانسان ببيئته الطبيعية قد تغيّر تغيراً كلياً . فقد تبدّل من الضرورة التي كانت تدعوه الى مغالبة الطبيعة ومجالدتها بقوة عضلاته ، عزلة بعيدة عن الطبيعة فيقف دونها ينظر نظر المتفرج الى آلة مستعدة قد استخزنها قدراً عظيماً من القوة تتحرك كيفما شاءت ارادته، فيجذب ذراع حديدي او ضغط على زر بسيط تدوي الآلات دويها الدائم وعلى غير انقطاع . وهذا انقلاب لم يشهده الانسان في كل ادوار تاريخه القديم والحديث . ولم يبلغ اي انقلاب انساني من الاثر مبلغ هذا الانقلاب . وحتى اختراع المطبعة واستكشاف المفرقعات . فانها من المخترعات التي غيرت من علاقة الانسان بالانسان ، ولكنها لم تؤثر في علاقة الانسان بالطبيعة اقل تأثير

ولكن كيف استطاع الانسان ان يتخلص من آثار النظام الاقطاعي الذي قمع كل فكر وتكبّل بكل حافزة من حوافز الهمة الانسانية ، ليفوز في النهاية بالحرية التي مكنته من ان يعيش لنفسه فيؤسس الصناعات ، ويخترع في النهاية تلك الآلات التي كونت وجهاً جديداً من اوجه المدنية التي لم يعهد هذا الانسان مثيلاً من قبل ؟ والواقع ان الانسان بدأ يكوّن النظامات التي أدّت الى تحريره منذ أن أخذت الامبراطورية الرومانية في الانحلال ثم السقوط

استولت الامبراطورية الرومانية على اطراف العالم المعمور او بالاحرى المعروف حتى ذلك العهد . فعمرت نواحي مقفرة في اوربا والشرق وكانت مظاهر العمار والتمدين على اروعها فيما جاور روما من بلاد ايطالية وفيما جاور ايطاليا من اوربا . فمهدت السبل وانشئت الطرق العسكرية في نواحي الغال وفرنسا ، وامتدت الى جبال الالب حتى سهول ايطاليا الشمالية . وبليت المدائن العظيمة على ضفاف الرون والسين ، واقيمت الصروح المائية العظيمة واقيمت معاهد العلم والمكاتب العامة والهياكل . ولقد تناول التمدين الروماني كل ناحية من نواحي الشعوب التي استتبت عليها روما حتى اذا اصل بلاد الغال وغيرها من البقاع الاوربية التي نشر فيها النفوذ الالماني ، كانوا يفخرون بانهم رومان لحماً وعظماً ودماً

غير انهُ فيما وراء نهر الرين كانت تعيش قبائل من البرابرة المتوحشين كان افرادها كثيراً مايعبرون النهر جماعات كبيرة وينهبون ماتصل اليه ايديهم من مغاني تلك البلاد التي كانت حصارتها ماثلة أمامهم على ضفة النهر الاخرى . غير ان التخوم كانت تحميها سلسلة متصلة من المعسكرات الرومانية . ولكن هؤلاء «الالمان» لم تكن لديهم من عدة السلاح والدروع ما يستطيعون به الاستعواء على القبائل الرومانية الكاملة العدة التامة الدربة . وعاش اهل الغال كما عاشت بقية الشعوب التي ظلتها النفوذ الروماني في أمن ودعة ، ففقدوا مع الزمان صفاتهم الحربية ، مكتفين بان يؤدوا الجزية لروما ، ما دامت روما قائمة على حراستهم والدفاع عن تخومهم ان تجتاحها قبائل الالمان المتوحشة

ولكن جاء عصر اخذت يد التبديد تمتد فيه الى الجزية التي كانت تؤديها الشعوب المحكومة لروما . فلم يكن يرتدُّ منها شيء الى تلك البلاد لينفق على التعمير والانشاء او الانفاق على القبائل العسكرية التي كانت تقوم بمهمة الدفاع عن اطراف الامبراطورية . ونضب بعد ذلك معين الذهب الذي كان يسيل الى روما من نواحي الامبراطورية الشاسعة الاطراف

فأخذ الفقر يتبوء بقوته ويشرف بهامته البغيضة على حكومة روما ، ومع هذا ظلت حكومة روما على اسرافها وتبذيرها المعروف . فالحرس «البريتوري» كان يجب ان يتناول مرتباته . والعاطلون الذين كانوا يملأون شوارع روما من الغوغاء واهل اللهو ، كانوا لابدَّ من ان يطعموا خبزاً ولحماً شواء ، ويستثيروا باغلى انواع الزيوت ويلهوا في الحمام المراقص ويتسلوا بمختلف المشاهد . كما هي الحال الآن تماماً في اكثر ممالك العالم المتمدين . فصمدت حكومة روما الى الضرائب تزيد منها وتستزيد ، واضطرَّ حكام الاقاليم بحكم القوة ان يزوّدوا روما بمبالغ من المال كبيرة تلقاء احتفاظهم بمناصبهم وبقائهم فيها اسواط عذاب على الناس . كما هي الحال تماماً في بعض نواحي العالم الآن . واخذت التهم تلقى جزافاً على الاغنياء لتكون وسيلة الى مصادرة املاكهم . واخذ البوليس الحكومي يجمع الغلال من الغيطان بالقوة صداداً لضرائب الحكومة الفادحة . فخربت المزارع الفاخرة واقفرت الغيطان العامرة ، لان الناس قد عرفوا بالتجربة انهم انما يعملون لغيرهم ، وان ثمار مجهودهم قد يؤخذ منهم في اي وقت من غير سابق انذار ومن غير حق . واخذت مظاهر الخراب تبدو شيئاً بعد شيء . فنبتت الحشائش الطفيلية في مزارع القمح المهجورة ، وخربت المدن وبدأت النباتات تنمو في طرقها ومسالكها وفوق جدرانها وهياكلها ، وأخذت الوحدات الرومانية التي كانت تقوم بحراسة بلاد الغال من غزو البرابرة ، تنحلُّ وحدة بعد اخرى ، ثم اخليت من الجنود ، لان الحكومة تجزت من ان تحتفظ بالقبائل التي كانت تحرس شواطىء نهر الرين من غزو « الالمان » . ولم تكد تخلو المعسكرات من الجنود الرومانية ، حتى انهمر في اثرها سيل عرم في محاربة البرابرة ، يجتاحون

المدنية التي أقامها قيصر ، ويعيشون بالقوانين المقدسة التي شرعتها روما العظيمة

وكانت الجيوش القارية مكونة من رجال احرار ، لا هم بالجند المنتظم ، ولا هم بالعبيد . بل كانوا محاربة تتبع ضابطاً مغامراً او رئيس قبيلة، لها في الحرب علمها وتقاليدها. وكانت الغنائم التي تستولي عليها كل جماعة منهم ملكاً لها وتقسم بين افرادها على قاعدة مرعية . وكانت حصة الملوك من الغنيمة كبيرة ، ولكنهم ما كانوا يحصلون على اكثر من حصتهم فيها . وكان المحاربون الذين لا يرتدّون بعد الغزو الى بلادهم الاصلية، يتخذون النساء في الارض المغزوة ، يقسمون الارض فيما بينهم كما يقسمون الاسلاب الاخرى من مواشٍ وعبيد وذهب وحلي وأوانٍ وأبسطة وأثاث وغير ذلك. وكان جزء كبير من الارض يبقى من نصيب الملك. واجزاء اخرى تقسم بين القواد والضباط على نسبة عدد الرجال الذين يتبعونهم الى ميدان القتال. وكل جندي ينال من الارض حصته بالتساوي مع غيره من الجنود . غير ان الجيش المحارب ولو انه يكون في هذه الحالة قد انحلّ ، الاّ انه لم يمح من الوجود. فان افراده يبقون خاضعين للقانون العسكري. وكان القواد او «البارونات» يبقون تابعين أو خاضعين لسلطة الملك اذا هو دعاهم الى القتال ، كما كان الجنود يظلون خاضعين لقوادهم وضباطهم . وكثيراً ما كان يحدث ان يعطي الملك او البارون قطعاً من الارض الى المقربين منهم او صنائعهم بشروط تشابه شروط التبعية الحربية التي شرحناها. ثم تغير الحال بعد ذلك فاستبدلت التبعية الحربية بقيمة من المال تدفع سنوياً كبدل حربي تلقاء الانتفاع بالارض وبذلك بدأ نظام «الايجار» يدخل في النظام المدني، ونظام الايجار هو الذي كوّن طبقات البورجوا والبروليتارية ، كما عرف في المباحث الاشتراكية الحديثة

ولما غزا الالمان نواحي بلاد الغال الفسيحة واستوطنوا اطرافها، اخذوا يحصنون القصور القديمة أو بعض المدن الصغيرة ويتخذون منها معاقل يحتمون بها ويستجمعون فيها ثرواتهم. وليس لنا من شأن هنا بشرح الحياة العائلية التي كانت تحياها البارونات داخل هذه القصور ولا أن نتمادى في شرح حال الفقراء من المزارعين . بل شأننا يرجع الى الكلام في تأسيس نظام «الايجار» وهل له من علاقة بنشوء الصناعات اليدوية والصناع . والذي يتبادر الى الذهن ان قيام نظام «الايجار» في أوروبا كان له أثر مباشر في نشوء الصناعات وظهور فكرة الصناع. لان المتقبل الذي يكون المستأجر لقطعة من الارض اكثر حرية فيها حتى كان تابعاً تبعية حربية لرئيس حربي . وانهُ في هذا الجو يمكن ان تنشأ الصناعات بازدياد توزع الثروة والاخلاد الى حياة مدنية اكثر استقراراً من الحالة الحربية . ولكن الحقيقة على الضد من هذا . ففي عصر الجمهورية الرومانية وفي عصر الامبراطورية، انحصرت الصناعات، رقيمة ووضيعة، في يد العبيد . فكانت كل الحاجيات التي يحتاج اليها في القصور تصنع في هذه القصور وبيد صناع من العبيد مرنوا عليها واتقنوها. غير انهُ قبيل الغزو الالماني لنواحي الامبراطورية الرومانية

نشأت طبقة من الصنّاع على جانب عظيم من المهارة وحبّ الاتقان ، يحتمل ان يكونوا من سلالة العبيد الذين تحرروا من يد اسيادهم الرومان في عصر الانحلال . غير ان المؤرخين ، وذوي الرأي منهم على الاخص لا يسلمون بهذا الاحتمال تسليماً مطلقاً ، وان كانوا يرجحونه مع ميل شديد الى القول بأن نشوء الصناعات والصناع صفحة قاتمة في تاريخ اوربا . ونشوء الصناعات اليدوية وظهور الصانع من ناحية ، وتثبيت مبدأ الايجار الزراعي من ناحية اخرى ، تكوّنت المدنية الحديثة وقامت على صورتها الرائعة الهيئة حتى اختراع الآلة الميكانيكية في اواخر القرن الثامن عشر ،

ولا شك مطلقاً في ان كل الانقلابات التي انتابت المدنية الحديثة والتي رويدنا طرفاً منها ، لا تزن شيئاً بجانب الانقلاب الكبير الذي تناول مسألة «الانتاج» و«العمل» ، ذلك الانقلاب الذي يسمى عند مؤرخي العصر الحديث «بالثورة الصناعية» والسبب في هذا انه انقلاب تناول اعماق الحياة البشرية . فان اثره لم يقتصر على حياة العمال وحالات الصناعة واساليب الانتاج ولم يقف عند حد تغيير المنتوجات التي كان يستعملها الانسان ، وطبيعة البيئة واخلاق العامل ، بل تعدّى كل ذلك الى دولاب الجماعات انفسها ، اذ احدث نظامات جديدة اصبحت على اعظم جانب من الخطورة للحياة الانسانية ، وقضى على نظامات قديمة سايرت خطى التقدم الانساني منذ فجر التاريخ ، فكان هذا الانقلاب بطبيعته اكبر ثورة اجتماعية وقعت للانسان . وبدأت في الافق سلسلة من المؤثرات يتلو بعضها بعضاً على التالي ، وليس يعلم احد الى أي غاية سوف تؤدي بأبناء آدم وحواء

انحصر الانتاج الصناعي قبل «الثورة الصناعية» في ايدي الافراد . وكان المنتج صانعاً مستقلاً ويعني به صانع يستطيع ان يخرج من مقدار من المادة الخام سلعة من السلع . كما كان توزيع العمل مقصوراً على مقدار ما يحتاج اليه كل صانع من مهارة غيره في صنع المادة التي تنحصر فيها صناعته . وكان اكثر المنتجين ، او كان عدد كبير منهم هو الاغلبية المطلقة من الصناع المشتغلين الذين يخرجون من بين ايديهم مصنوعات كاملة يبيعونها مباشرة او بواسطة السماسرة . فكانوا يعملون تحت تأثير حالات هم اصحاب الحرية المطلقة في خلقها وتكوينها ، ويحددون بمحض اختيارهم مقدار الربح الذي يظنون انه يتكافأ مع جهدهم . وكانوا في حالات اخرى يشبهون بالمهاجرين الذين يعملون طوال هجرتهم بأجر معلوم محدود . ولكنهم كانوا دائماً يجدون عملاً ان لم يكن كل بمفرده ، ففي جماعات صغيرة في جوانيت متوسطة السعة . فاذا كانوا اجراء ، كان صاحب العمل الذي يأجرهم صانعاً مثلهم يقف موقفهم ويعمل عملهم . ولم تكن المؤسسات الكبيرة لتخرج عن حكم ذلك . فان « وجوود » صاحب معامل الخزف المعروفة في انجلترا وجد « شارلز داروين » المعروف ، كانا اصهر الصنّاع في مؤاسستهما الشهيرة (طاستة)

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

والآن وقد وصلنا الى معالجة المذاهب السياسية الحديثة التي لها اتصال وثيق بالجيل الذي نعيش فيه فقد رأينا اختصاراً للوقت وجمعاً لشمل الموضوع المتشعب وتسهيلاً على القارىء ان نكون اكثر تقيداً بالخلاصة البديعة التي نشرها الاستاذ (كول) في «موجز المعارف الحاضرة» الا حيث تلجئنا الضرورة الى ذكر ما لا محيد عن ذكره

﴿ هيجل وماركس ﴾ : بيناكان (جرمي بنثم) يؤيد مذهبه الفردي في بريطانيا ويقول باعطاء اكبر قسط من السعادة لاكثر عدد من الافراد كان (هيجل) الفيلسوف الالماني المتوفى سنة ١٨٣١ ينشر في القارة الاوربية مذهبهُ وهو ينطوي على تمجيد سلطان الدولة وحمل الفرد على أن يحقق وجوده وينشد سعادته ليس في مصلحته الفردية فقط بل فيما يبذلهُ للمصلحة العامة من المساعي في الدولة وهو الاهم . وفي نظر (هيجل) ان الدولة سرّ الاسرار وقدس الاقداس يجد الناس فيها اطايب الحياة ويحققون اسمى الغايات لاغرو انهُ الحقّ في القول بوحدتها واطلاق يدها والخضوع لمشيئتها مما يؤيد النظام الاستبدادي الاوتوقراطي . ولما ذكر اختلاف مواهب الناس فيما لهم من طاقة على خدمة الدولة ايّد العناصية لانها تأتلف كما ذكرنا على ما تدعيهِ من ميزات تميزها عن سائر الخلق وتجعلها اهلاً للتحلي بادارة الدفة السياسية. وعنده ان الحكم على اهلية الدولة يتوقف على مقدار قوتها فهو والحالة هذه يمجد الحرب مؤيد للبسطة السياسية باعتبارها وسيلتين تتوسل بهما الدولة لتحقيق وجودها . ولما كانت الدولة في فلسفته هي ثمن مشروع اخرجه الناس الى حيّز الفعل فلا بدع ان هزأ بنظرية «التآخي بين الناس» وضحك من القول بتأليف «الاسرة البشرية» على سطح الارض . وانّى لهُ مثل هذه العاطفة وعندهُ أن الدولة الواحدة معنوفة في وجه الدولة الاخرى صفّ الجيوش المتبارزة للقتال

اما مذهبهُ في الارتقاء فيلخّص في قوله ان الاصل في الاشياء هو «الفكرة» وان المادة انما هي صورة منعكسة عنها ويتم الارتقاء بتحقيق هذه «الفكرة» بصورة تدريجية طريقتها ان يحصل تنازع في كل مرحلة بين الفكرة السائدة المتغلبة والفكرة التي تناقضها الى ان

تتولد من هذا الخصام بين الفكرتين مزيج من القديم والحديث — يعني الى ان تتولد فكرة جديدة من ازدواجهما معاً تتفوق عليهما كليهما ولكنها محكوم عليها بالانهزام ايضاً امام ما يستجد من الافكار بطريقة هذا التنازع بين الافكار المتناقضة

﴿كارل ماركس﴾ استعار كارل ماركس وسول الاشتراكية هذه النظرة التشوئية الدرجية ولكنهُ عكسها رأساً على عقب فهو لم يعتدَّ « بالفكرة » ولا حسبها اصل الاشياء كما فعل (هيجل) بل قال ان العامل المؤثر في التشوء الاجتماعي هو (القوى المادية المنتجة) التي تتجهز بها الجمعية البشرية — يعني ان ينابيع الثروة التي يستخدمها الانسان من اراض وآلات واجهزة ... كل ذلك يكسب الناس شكل الحياة الاجتماعية التي يتمتعون بها فتكون الافكار المنتشرة بينهم نتيجة ما هم عليهِ من الطرائق الانتاجية التي توصلوا اليها ، فاذا كانت هذه الطرائق راقية دقيقة التركيب وكثيرة المحصول فالحياة الاجتماعية راقية على نسبتها والعكس بالعكس . فلا عجب ان تكون البلاد الصناعية ارقى من البلاد الزراعية وهذه ارقى من بلاد المراعي . والخلاصة ان (ماركس) يقول ان وسائل الانتاج في المجتمع وما ينبني عليها من العلاقات بين الناس تؤلف النظام الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية وهذا النظام هو العامل الاساسي في تكوين النشوء العقلي في الشعوب . فهيجل كما ترى ابتدأ بالعقل و جعل المادة صورة منعكسة عنهُ . ويدعى مذهب ماركس في الفلسفة « التحليل المادي للتاريخ » وقد أبان فيهِ الاطوار التي مرَّ عليها المجتمع منذ ما استولى على شؤونهِ اصحاب الاراضي الواسعة الى ان هبت الثورة الصناعية والتجارية فانتزعت الشيء الكثير من سلطتهم وانتهت الحال باندماجهما معاً في ادارة الحكم ، ثم شبَّت الرأسمالية الصناعية وعملت جهدها لاستثمار ينابيع الثروة في الشعب مما حملها على حشر الالوف المؤلفة من العمال في المصانع وتدريبهم على النظام العملي المنتج. لكن عملها هذا اتاح لهم من القوة والفرصة ما ينظمون بهِ انفسهم في وجه اسيادهم الذين استخدموهم ، والخلاصة ان اضطرار الرأسمالية الى انفاق مجهودها للحصول على اعظم الارباح ادّى الى نهضة العمال وانتشار مذهبهم الاشتراكي وما ينطوي عليهِ من تهديد يقض مضاجع الرأسماليين ودعاويهم الطويلة العريضة . وقد تنبأ ماركس عن العمال بقوله ان هذه الطبقة الخاضعة التي لا يحق لاحد ان يمنعها من تنظيم نفسها او يحول دون صيحاتها العالية بالاحتجاج ستثلُّ عروش الرأسماليين وتقضي على رأس المال باعتباره نظاماً اقتصادياً تعيش تحت لوائهِ الشعوب . وستفعل ذلك لانها على قوله اصلح من الرأسماليين في استثمار ينابيع الثروة واستخراج خيراتها، وبتغلب هؤلاء « الصعاليك » او « المساكين » لا تبقى ثمة طبقة مأكلة لغيرها، ومتى تألف المجتمع الخالي من الطبقات يزول الاستثمار وتزول سمة حكومة الطبقة لتحل محلها الادارة المشتركة العامة التي تدير ينابيع الثروة في الشعب لمصلحة الجميع . وعلى العمال

ليس فقط ان يقبضوا على زمام الحكومة الحاضرة ويستخدموها لغايتهم بل ان يحققوها حتماً هي والطبقة الاقتصادية المسيطرة عليها ويحلوا محلهم نظاماً يؤسسونه من جديد. وهنا تبتدئ الاختلافات بين الاشتراكيين فكل حزب منهم يولي وجهه شطراً — يعني ان اتفاق كلمتهم على ضرورة محق حكومة الطبقات تتفكك عراها حالما يبحثون عن النظام الجديد الذي يجب ان يحل محلها وكيف يجب ان يتم التغيير، فللاشتراكيين الديموقراطيين رأي سلمي تدرجي يتحقق بواسطة الانتخابات النيابية وللشيوعيين رأي انقلابي قائم على الثورة العالمية

ولد (كارل ماركس) في مدينة (تريز) بالمانيا في سنة ١٨١٨ ودرس الفلسفة والحقوق في مدينتي (بون) و(برلين) ونال شهادة الدكتوراه في (يينا) سنة ١٨٤١ وقد اضطهدته بلاده من غير أن تعرف ما سيكون من أمره حتى اضطر الى الهجرة منها فاجتمع في (باريز) بأهم أصدقائه (انجلس) وفي سنة ١٨٥٩ وهي السنة التي امتازت بظهور كتاب « أصل الانواع » لداروين نشر ماركس كتابه « الذيل لنقد الاقتصاد » وقدر لكل من هذين الكتابين احداث ثورة في دائرته : ذاك في علم الحياة وهذا في علم الثروة العمومية. وبعد «البيان الشيوعي» الذي نشره ماركس بالالمانية في سنة ١٨٤٨ — وهو في خمس وعشرين صفحة — اول نص عالج الاشتراكية بطريقة علمية واضحة واخرجها من صف الفلسفة الخيالية والاحلام الذهبية ، وقد ختمه بالوعيد المشهور: فلترتعش فرائص الطبقات الحاكمة عند شبوب الثورة الشيوعية. اما الصعاليك فليس لديهم ما يخسرون سوى السلاسل والاغلال ولكن امامهم دنيا يربحونها. اتحدوا اليها العمال في الآفاق

﴿ مذهب النشوء والاوضاع السياسية ﴾ عرضنا لداروين وأشرنا الى الثورة التي أحدثها مذهبه في علم الحياة وظن الناس لاول وهلة ان مذهب النشوء سيحل معضلة السياسة ولكن نظرة واحدة في المذاهب المتباينة التي قالها ائمة هذا المذهب تدل على خطأ أهل هذا الظن فسبنسر غالى في « الفردية » كما غالى (جرمي بنثم) من قبله ، ومعظم النشوئيين السابقين نظروا الى المجتمع وحدة او كتلة عضوية اكثر منه وحدة تنسابية اجتماعية. ولهم سبنسر منهم خاصة بتنازع البقاء بين الناس فلا عجب ان يتصور الجمعية البشرية مبدأ يتصارع فيه الافراد فلا تكتب السلامة فيه الا للاصلح او الاقوى ولكن زميله (توماس هكسلي) عد المجتمع أداة مستحدثة في التدرج العضوي قايم الميزان بين سنة التنازع وسنة من ان يطأ الافراد بقدميه التناسليتين من غير رحمة ولا شفقة . لذلك كانت وظيفة هذه الاداة الاجتماعية المستحدثة الاشراف والتنظيم والتدخل لتحويل الجمعية البشرية من دغل موحش الى حديقة غناء . اما (البرنس كروبوتكين) الروسي وهو من اعلام النشوئيين المتأخرين فقد خطا في هذا المضمار خطوة اوسع اذ حاول في كتابه «التعاون» ان يستخرج للاشتراكية اساساً مما تقتضيه الضرورة الحيوية البيولوجية من التعاون بين الناس كما بين الحيوانات . وتمسك غيره بالقول

ان المجتمع جسم عضوي ذو دماغ هو الحكومة فالواجب ان تخضع سائر الاعضاء لسلطة هذا الدماغ. وتدل الدلائل على ان هذه الطريقة النشوئية الاشتراكية التي قال بها البرنس كروبوتكن كانت أشد نفوذاً في أثرها من الطريقة الفردية التي تمسك بها سبنسر واخوانه

على ان الاسترسال في التشابه الحيوي بين المجتمع والجسم العضوي واغفال شأن العامل النفساني في جمع البشر وضم بعضهم الى بعض جعل مذهب النشوء قليل الفائدة . ولا مراء ان الطبيعة العلمية في أهل التحقيق تمل الخيالات والاستنباطات المتطرفة خصوصاً ما بني منها على التشابه السطحي . لا جرم ان العلماء طرقوا باباً جديداً لدرس المجتمع اساسه درس الحالة الراهنة وتصنيف الاوضاع البشرية ومقارنتها بعضها ببعض ودرس بناء العقل الانساني وفهم الطريقة التي يسير عليها

﴿السياسة وعلم الانسان والنفس﴾ لقد زوّدنا درس الاوضاع الاجتماعية الماضية والحاضرة منذ الانسان الاول الى اليوم بمعلومات نفيسة ، وكان لعلم الانسان في هذا المضمار النصيب الاوفر فانكشفت لنا عقلية الشعوب الفطرية ذات المدنية الابتدائية وظهرت نظمها الاجتماعية مما أهاب بعلماء السياسة المتأخرين الى الابتعاد عن الطريقة المنطقية والالتزامات العقلية النظرية في معالجة مثل هذه الشؤون وحدا بهم الى الاعتماد على «الحالة الراهنة» التي نجد عليها هذه الاوضاع سواء في الشعوب الراقية أم الشعوب الابتدائية . وان هذا الميل الى الامر الواقع استرجح حالاً بالملاحظات المتوفرة من درس النفس على هذه الطريقة الراهنة أيضاً التي لا شأن للتحكم العقلي فيها . وكان من نتائج هذا الدرس العلمي ان أصبح العلماء في شك (اولاً) من كل جواب يزعم أصحابه انه مقنع في الرد على السؤال: «ما هو الشكل الصحيح العام الذي يتخذه التنظيم الاجتماعي بقطع النظر عن الزمان والمكان ؟» (ثانياً) من كل محاولة لفهم القضية السياسية على الطريقة العقلية المجردة . ولا يعني هذا الكلام ان علماء النفس والانسان طلّقوا العقل بتاتاً في هذه الدروس بل ان بعضاً منهم كالاستاذ (ولاس) العالم المشهور هم من أهل المنطق البحت لانهم رأوا في اشراف العقل على الحياة الاجتماعية اوضح علامة على ارتقاء المدنية والامل الاكبر المعوّل عليه في النجاة . ومع كل هذا الاعتماد على العقل في ترتيب العلاج ومقاومة المرض فقد حتّم المباحث الجديدة التي ذكرناها على النظر الى سير العمل في المجتمع البشري القديم والحديث بعين اقل احتفالاً بالمعقول والمنطق واكثر اعتماداً بالجزء اللاعقلي او الكيفي في البشر باعتباره عنصراً ضرورياً لتدوير دفة العمل في أية جمعية بشرية كانت . وقياري القول انهم عرفوا أن الجزء الاعظم من اعمال البشر الاجتماعية هو بالضرورة غريزي اكثر منه عقلي ، وان الحكم على اشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي وما فيها من الخطط ليس بطريقة المنطق الاستنتاجي من نسبة ما لهذه الاشكال والخطط من الوقع الحسن في الغرائز والشهوات

﴿التوحيد في الدين والشرك في السياسة﴾ الاديان الراقية في العالم موحدة تؤمن بمرجع

أخير واحد ولكن السياسة على العكس تميل الى الشرك في هذا العصر . وقد دلّت ابحاث العلماء في مجتمع القرون الوسطى على شأن بعض الاوضاع والجمعيات التي اعربت عن الشعور الشعبي العام في تلك الازمان من غير ان يكون للدولة دخل في احداثها او في تنظيمها مما يفيد ان الدولة عامل واحد فقط من جملة عوامل متعددة في ادارة دفة الاعمال السياسية الاجتماعية وان كانت في الواقع أهم عامل من هذا القبيل ، فلا عجب ان حلّ الشرك السياسي محلّ التوحيد في اذهان الباحثين ولم يعد للدولة تلك الوحدانية المستقلة المتصرفة في شؤون الخلق . بل صار لها شركاء من الجمعيات المتنوعة التي يؤلفها الافراد باختيارهم في داخل الدولة

وتأيدت هذه النظريات الاستقرائية التاريخية في عصرنا بما استجدّ من النقابات الصناعية والمتحدات التجارية وتأثيرها السياسي خصوصاً تلك المؤسسات الرأسمالية الكبرى بحيث رأت اوربا واميركا انها وان كانت قادرة على وضع القوانين المتعلقة بهذه المؤسسات وبادارتها الاّ انها متى بلغت درجة التنفيذ وجدت نفسها عاجزة لا قبل لها بمقاومتها مقاومة صحيحة وانزالها على حكمها . واكتفى المشترعون في العصر الفكتوري في انكلترا بأن ينظروا الى المتحدات التجارية انها نقابات تكرمت عليها الدولة بالتمتع بحق الوجود وان ليس لها من الحقوق الاّ ما جادت به عليها تفضلاً ، بيد ان هذه المتحدات اخذت تثبت استقلالها مدعية حق العمل باسم اعضائها ولو بالاضراب رغم الاوامر الرسمية

وتبدو للناظر في غضون السنوات الاخيرة التي سبقت الحرب الكبرى موجة من اضطراب للعمال اكتسحت العالم الصناعي وحملت بين طيّاتها عداء لفكرة الطريقة البرلمانية القديمة . وقد انبعثت هذه الموجة من نظريات ترمي الى بناء الحياة الاجتماعية المستجدة ليس على الاساس البرلماني القديم بل على المتحدات والنقابات وغيرها من الجمعيات الاقتصادية في جوهرها القائمة على فكرة العمل او الوظيفة باعتبارها مصدر الحياة في المجتمع ، فهذه الديمقراطية (الوظيفية) بما لها من البناء الاجتماعي المتنوع اخذت تتحدى النظرية الديمقراطية البرلمانية القديمة وما استندتْ من القول «صوت واحد للفرد الواحد» لان هذا « الصوت » يجب الاّ يعطى للفرد باعتباره فرداً بل للفرد باعتباره عاملاً منتجاً . ولم تمر هذه الموجة من غير ان تترك أثراً ظاهراً في خارج الحقل الاقتصادية الصناعية ، حتى ان رعماء الدين في ديار الغرب اخذوا يؤيدون استقلال الكنيسة وضرورة خروجها من وصاية الدولة كما تنحو كثير من الجامعات العلمية الكبرى هذا النحو ايضاً ، وينفخون فيها روحاً جديدة باعطاء الدين مقاماً في حياة المجتمع مستقلاً عن حياة الدولة ومعادلاً لها في مستواها ، وكانت هذه السنون حافلة بالخطط العملية والنظرية لبناء حياة المجتمع ليس على قاعدة « صوت واحد للفرد الواحد» بل على اعتبار الجمعية البشرية مركّباً متناسباً مؤلفاً من وظائف متنوعة كل منها يحتاج الى تنظيم خاص

(البقية في باب الاخبار العلمية)

أشراف بلاد العرب

اشراف ابو عريش وآل عائض أو الادارسة[1]

لفؤاد حمزة بك وكيل خارجية الحجاز

١ — اشراف أبو عريش

إن تاريخ شرافة أبو عريش قديم غير ان معلوماتنا عنهُ ناقصة جداً . ويرجع أساس الشرافة إلى الاختلاف الذي كان سائداً بين سكان جبال اليمن وعسير وسكان التهائم . فان الاولين تشيعوا واتبعوا الامام زيد بن علي وظلَّ أهل التهائم شوافع سنيين . فنشأ عن الاختلاف مشيخات قبائلية موضعية في اماكن عديدة أهمها حكومة زيد التي كانت تشرف على شؤون الشوافع في تهامتي اليمن وعسير وتدفع أئمة صنعاء الزيديين ضمنها

بدأت شرافة ابو عريش تشهر منذ احتلال الجيوش العثمانية لجنوبي الحجاز ولعسير واليمن ففي عام ١٠٠٦ هـ (١٥٩٧ م) التحق مشائخ تهامة وفيهم شريف ابو عريش على القيام ضد الوالي العثماني حسن باشا الذي تولى من ٩٨٨ — ١٠١٣ هـ [2]

وجهز الترك حملة بقيادة احد موظفيهم واشترك فيها بعض اشراف ابو عريش وصبيا للاستيلاء على صعدة ، فالتقى بها جنود الامام الزيدي قبل وصولها وأفنوها وهرب قائدها الى الساحل عام ١٠٢٤هـ[3] . وفي عام ١٠٤٤هـ ثار امام صنعاء على العثمانيين وتمكن صالح بن احمد المؤيدي من ضبط ابو عريش من ايديهم ومن الاستيلاء على صبيا والحاقها بالامام الزيدي[4]

وبعد ذلك بخمس سنوات ارسل والي مصر قائداً جديداً الى اليمن اسمهُ احمد فاتصوه فتمكن من استعادة الترك وصبيا وابو عريش من أيدي أئمة اليمن الى حظيرة الدولة العثمانية[5]

وتنقطع هنا اخبار شرافة ابو عريش الى اوائل القرن الماضي حيث ظهرت الدعوة السلفية في نجد على يد حكومة آل سعود الاولى . فان الدعاة نشروها بين قبائل عسير وجنوبي الحجاز وتبعها اكثر قبائل عسير السراة وعسير تهامة ، وكان سعود بن عبد العزيز يجند قبائل عسير تحت امرة عبد الوهاب بن عامر الشمعي ابن عمه وهو امير عسير ورجال المع ويرسلهم تارة الى

---

(١) هذا هو الفصل الرابع عشر من كتاب الاستاذ فؤاد حمزة بك وكيل الخارجية في حكومة المملكة العربية السعودية عن تاريخ نجد والحجاز رأينا نشره على ذكر ما نشرته عنه الصحف عن مقاطعة عسير والادارسة . والكتاب يطبع بالمطبعة السلفية بمصر الآن

(٢) كتاب ظهور ائمة صنعاء تأليف أ. س. فريشون ص ٧

(٣) » » » » » » » » ص ٦١

(٤) » » » » » » » » ص ٨٧

(٥) » » » » » » » » ص ١٠٢

الحجاز وطوراً الى اليمن وهذه القبائل هي التي فتحت اللحية والحديدة [١]

في عام ١٢٢٤ كان صاحب ابو عريش الشريف حمود ابو مسمار وكان قبل ذلك قد بايع سعوداً وحالفهُ ودفع عشوره اليه واوفد ابنه الى الدرعية لزيارته . ثم حصل بينهُ وبين عبد الوهاب امير عسير السراة نزاع ادى الى رغبته الى سعود الاصلاح بينهما فلم تنجح وساطة سعود في ذلك . فاصدر امره الى الشريف حمود لكي يجهز قوة ويذهب بها الى صنعاء فلم يفعل . فحقد سعود عليهِ وأمر القوات بالمسير لقتاله . والتقت القوات ، قوات آل سعود وفيها قبائل عسير ورجال المخ واهل الوديان وأهل بيشة وقحطان وشهران ، وقوات الشريف حمود وفيها دهم وحاشد وبكيل وهمدان وبام، في وادي بيشة . فقتل عبد الوهاب امير عسير في الوقعة الا ان الغلبة كانت لعساكر آل سعود ففرَّ الشريف حمود الى تهامة ولجأ الى حصنهِ ابو عريش ولحقت العساكر بلاده صبيا وجيزان [٢] . وفي العام المقبل جهز عثمان المضايفي قوة من الحجاز وسار بها مع قوات عسير للقضاء على حمود واقتتلوا في محل يسمى رَحْلة فكسر حمود وفرَّ هارباً واحتلَّ طامي بن شعيب امير عسير الجديد ابو عريش وتقدم منها الى اللحية والحديدة [٣]

وتوفي الشريف حمود عام ١٢٣٣ وتولى ابنهُ احمد مكانه . وحصل بين احمد وبين حسن ابن خالد امير صبيا نزاع ثم اتفقا وفي هذه الاثناء جاءت القوات العثمانية والمصرية الى ابو عريش يقودها خليل آغا فالقت القبض على احمد بن حمود وارسلتهُ الى مصر [٤] ولكن احتلال ابو عريش لم يدم طويلاً فاضطرت القوات المصرية الى الانسحاب وتسليمها الى امام صنعاء الزيدي

وعقد محمد علي باشا اتفاقاً مع الشريف حسين ، شريف ابو عريش للعمل معاً ضد امام صنعاء وضد قبائل عسير المنحازة الى آل سعود ، وتقدمت قوات الاثنين الى الجبال فاحتلت ابها عاصمة عسير عام ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) . ولكنها لم تتمكن من البقاء فيها طويلاً [٥]

وحينما انسحب المصريون من البلاد العربية عام ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ — ١٨٤٠ م) وجد الشريف حسين نفسه قادراً على بسط نفوذه على سائر تهامة والحاقها بابو عريش فوصلت قوته الى مخا جنوبي الحديدة واستولت عليها بالقوة وظلت حكومته فيها وفي سائر تهامة الى ان شرع الترك في استعادة قوتهم في البلاد العربية فجردوا بتحريض الشريف محمد بن عون امير مكة قوة عسكرية عام ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) الزحني نفسه . وتمكنت القوة من فتح تهامة ودخول صبيا ابو عريش [٦]

وفي زمن حكم الشريف حسين المشار اليه قدم السيد احمد بن ادريس الى صبيا ونال من عطفه ومساعدته ما جعل له شهرة عظيمة بين القبائل تمكن حفيده من الاستفادة منها حينما قام لتأسيس حكومة الادارسة في مطلع القرن الحالي . وتوفي السيد احمد بن ادريس في صبيا عام ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧م) وظل احفاده فيها . ولا ندري كيف تغلب الادارسة على اشراف ابو

(١) تاريخ ابن بشر ص ١٣٣—١٣٤ (٢) ابن بشر ص ١٤٤—١٤٥ (٣) ابن بشر ص ١٤٩
(٤) ابن بشر ص ٢١١ (٥) تاريخ بلاد العرب لطوفارت ص ١٠٦ (٦) كتاب بلاد العرب وضع وزارة المستعمرات البريطانية ص ٢٤ وتاريخ بلاد العرب لطوفارت ص ١٠٦—١١٦

عريش ولا كيف كانت آخرة الشريف حسين واولاده وانما نعلم ان حكمهم ظل في تهامة عسير واليمن ضعيفاً الى ان ازيل تماماً على يد السيد محمد علي الادريسي

ذكر الشيخ عبد الواسع اليماني في حوادث عام ١٢٦٤ هـ ان امام صنعاء المتوكل عزم على انتزاع تهامة من يد الشريف حسين فجهز قوة تمكنت من اسر الشريف وحبسه في قلعة القطيع في تهامة فاستشارت ابنته قبائل نجران فخلصته من اسر المتوكل واستولت باسم الشريف على زبيد ونهبتها[١] . وذكر في موضع آخر ان الشريف حسين ذهب الى الاستانة مستنصراً الحكومة العثمانية فامدته بقوة قادها توفيق باشا وكان ذلك بدء استرجاع آل عثمان لعسير واليمن[٢]

٢ — آل عائض

ينتسب آل عائض الى عشيرة آل بو سراح من فخذ آل يزيد من بطن مفيد من قبيلة عسير وهم رؤساء قبيلة عسير المنقسمة الى اربعة بطون كبيرة ذكرناها في بحث القبائل العربية ومركزها بلدة ابها[٣] . وسط جبال السراة في عسير

امارة آل عائض في عسير، حديثة العهد ترجع الى ايام حكومة آل سعود وفتحهم عسير. وكانت الامارة قبل ذلك في رجال المع ووليها ايام فتح سعود الكبير للحجاز رجل اسمه عبد الوهاب بن عامر المكني بأبي نقطة صاحب الوقائع المشهورة في الحجاز مع الشريف غالب وفي تهامة مع الشريف حمود ابو مسمار شريف ابو عريش[٤] . وبعد موته وليها ابن عمه طامي بن شعيب عام ١٢٢٤ الذي خانه حسن بن خالد امير صبيا وسلمه الى قوات محمد علي باشا فأرسلته الى مصر وصلب فيها. ثم ولي امارة عسير بعد ذلك علي بن عجمل عام ١٢٤٩[٥] . ومن بعد علي هذا تبدأ امارة آل عائض في عسير السراة

اما كيفية انتقال الامارة من قبيلة رجال المع الى قبيلة عسير فغير معلومة على وجه الصحة وقد ذكر اليماني ان عائض مؤسس العائلة كان من الرعاة فاستقبل في النضال ضد الجنود المصرية فقربه ابن عجمل اليه واوصى به عند ابن سعود بعده فاثبتهُ في الامارة[٦]

بلغت قوة آل عائض اوجها ايام محمد بن عائض الذي ولي الامارة بعد والده ووسع حكمه على سائر عسير السراة وقسم من الحجاز غامد وزهران ، وقسم كبير من تهامتي عسير واليمن. فرأت الدولة العثمانية التي كانت من اقوى الدول ايام السلطان عبد العزيز ان ترك الامر على غاربه مضيع لهيبتها ومخرج لبلاد عسير واليمن من يدها. فجهزت حملة كبيرة بقيادة رديف باشا واحمد مختار باشا وسيرتها على عسير عام ١٢٨٥ هـ[٧] . وتوسط الشريف محمد بن عون

---

(١) تاريخ اليمن ص ٧١ (٢) تاريخ اليمن ص ٧٣ وايراد القصة على هذا النحو يخالف ما نقلناه من كتاب وزارة الخارجية البريطانية عن الكتاب الذين عن بلاد العرب وعن تاريخ نجد وزارت

(٣) تعرف ابها باسم مناظر وهي مؤلفة من اربع قرى كبيرة واقعة في منبسط تحيط به جبال مرتفعة عليها ابراج تحمي البلد (٤) انظر البلاد السابقة وابن بشر ص ١٣٢ — ١٣٤ (٥) ابن بشر م ٢ ص ٤٩

(٦) تاريخ نجد الحديث ص ٢٦٩ ومما يلاحظ ان ابن عجمل لم يكن اميراً على عسير ايام سعود الكبير فقد كان ولاة عسير الاشخاص الذين ذكرناهم عبد الوهاب وابن عمه (٧) تاريخ اليمن ص ١٠٦

بين الدولة وبين ابن عائض على ان يسلم المسيري بلاده وان تحفظ له الدولة امواله وخيوله وحصونه وان تعين له ولعائلته وبعض رؤسائه مرتبات ومشاهرات . فوصل الفرمان بالامان من السلطان عبد العزيز بينما كانت الجيوش العثمانية بقيادة مختار باشا محاصرة ابها ، فاستسلم محمد الى مختار باشا وسلما رسمان رديف باشا قلم يعبأ بالفرمان واعدم ابن عائض وصارت عسير منذ ذلك اليوم تابعة للدولة العثمانية . وجعلت متصرفية مركزها ابها . وتبعها ستة اقضية وهي : (١) بني شهر او النماص . (٢) خميس ومركزها رغدان . (٣) رجال المع ومركزها الشعبين ، (٤) محايل ومركزها محائن . (٥) القنفذة . (٦) صبيا وابو عريش

وتقمم آل عائض على الدولة وابتعدوا عنها الى ان كانت فتنة السيد محمد علي الادريسي عام ١٣٢٩ فعادوا اليها . وعينت حسن بن علي بن محمد بن عائض معاوناً لمتصرف سليمان شفيق كمالي باشا

وظل حسن على ولائه للدولة طيلة الحرب العمومية وتعاون مع محيي الدين باشا متصرف عسير وقائد فرقتها لدفع عدوان الادريسي . واستقل بعد جلاء الترك عقيب الحرب بالبلاد وشرع في ادارتها على شكل احفظ الناس وجعلهم يوسطون الملك عبد العزيز في امرهم . فرفض حسن الوساطة وكان من الملك عبد العزيز ان جهز عليه قوة بقيادة الامير عبد العزيز بن مساعد عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢١ م) وحصلت بين الفريقين معركة في حجلة بين ابها وخميس مشيط انهزم آل عائض فيها وهربوا الى تهامة فأسر الادريسي حليف ابن سعود بعضهم واستسلم حسن ومحمد ابن عمه لابن مساعد فذهب بهما الى الرياض . ووصلهما الملك عبد العزيز بالجوائز واعاد حسناً ومحمداً الى ابها . ولكنهما عادا الى سابق سيرتهما وحاصرا امير ابن سعود في ابها واحتلاها . فلما رأى الملك عبد العزيز خيانتهما وما كان من غدرهما جهز حملة جديدة من أهل نجد بقيادة نجله الثاني سمو الامير فيصل عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢م) فوصلت الى عسير وحصلت عدة وقائع آخرها واقعة بين السرية التي انتدبها الشريف حسين بن علي من مكة لامداد محمد بن عائض فقضى على السرية كما قضى على حسون ابن عائض وقلاعه واتبعت عسير السراة نهائياً بالمملكة النجدية واستبق حسن بن عائض الى الرياض ولا يزال فيها الى الآن

٣ — السيد محمد علي الادريسي

يبدأ تاريخ امارة الادارسة من محمد بن علي بن احمد بن ادريس . وكان جده السيد احمد ابن ادريس من أهل العلم والصلاح هاجر من المغرب واقام في مكة المكرمة برهة ثم ذهب الى تهامة اليمن لزيارة بعض تلاميذه ومريديه واستقر به المقام في عسير سنة ١٢٤٦ (١٨٣٠) في صبيا في جوار الشريف حسين شريف ابو عريش واقام هنالك بطريقته الادريسية الى ان توفي بعد ذلك بنحو سبع سنوات

قامت امارة السيد محمد حفيد السيد احمد على التراث الديني الذي خلفه لاجداده بين القبائل واعانته الظروف السياسية ، وما كانت عليه الدولة العثمانية من تضعضع واضطراب في أواخر ايام

السلطان عبد الحميد فراح يدعو الى نفسه دعوة اصلاح ديني املاً في الوصول الى اغراضه السياسية

ولد السيد محمد عام ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦م) في صبيا وجاء الى مكة مجاوراً عام ١٣١٣هـ. ثم رحل الى القاهرة ودخل الازهر الشريف ثم ذهب الى واحة الكفرة مركز السنوسية وانصرف منها الى دنقلة حيث اخواله بالسودان . ثم عاد الى صبيا مسقط رأسه في أواخر سني السلطان عبد الحميد فوجد مرتعاً خصيباً لعمله وساعده على ذلك فساد الادارة وانتشار الرشوة وبعد البلاد عن مركز الحكومة والاستبداد الظاهر ، فالتفت حوله الناس من كل حدب وصوب . وارادت الحكومة العثمانية عجم عوده فارسلت اليه وفداً سار خلفه جيش كبير يقوده القائد سعيد باشا . فافهم الادريسي حالة البلاد للوفد وانه وجدها ممطلة فاسدة الادارة ممدومة الامن فقام هو باصلاح احوالها عن طريق الاصلاح الديني ، وذلك في مصلحة الدولة وانه لا مصلحة له من ذلك فخدع الوفد باقواله . ونال الادريسي من قائد الجيش اعلاناً للقبائل يفوضه فيه بقيامه ببعض المهام فكان ذلك سبباً في ازدياد سطوته ونفوذه وعيثه الحكومة قائماً لصبيا وابو عريش

وبعد ذلك ببرهة قصيرة ألب على الحكومة العثمانية وأرسل من قبله قواداً لاحتلال البلاد ووجه ابن عمه السيد مصطفى الادريسي الى عسير السراة لاحتلال ابها وكان ذلك في ذي القعدة عام ١٣٢٨ . وشدد الادريسي الحصار على ابها وفيها المتصرف سليمان شفيق كالي باشا الى ان فك الحصار عنها على يد القوة التي قادها الشريف حسين بن علي امير مكة في السنة التالية

وتحصن السيد محمد بعد وصول القوات اليه في جبل فيفاء ولكنه عاد الى تهامة بعد اعلان الحرب بين ايطاليا والحكومة العثمانية واستولى على صبيا وجيزان وابو عريش واتفق مع الحكومة الايطالية التي امدته ببعض المال والذخيرة . غير ان علاقات السيد محمد مع ايطاليا وقفت عند هذا الحد واستبدل بها صداقة جديدة مع الحكومة البريطانية في السنة الاولى من اعلان الحرب العمومية فانه عقد عام ١٩١٥ معاهدة صداقة ثم جددت هذه المعاهدة عام ١٩١٧ واعترفت له بريطانيا بالسيادة على تهامة حتى اللحية في الجنوب والقنفذة في الشمال وتعهدت له بحمايته من اي تعد خارجي كما انه تعهد بعدم تأسيس علاقات سياسية أو تجارية مع اية حكومة اجنبية

واشتد ساعد السيد محمد بعد الحرب العمومية واستولى على الحديدة وتعاقد مع الملك عبد العزيز بن سعود للقيام معاً لتأمين مصالح الجانبين وظلت صلاتهما حسنة الى آخر أيام السيد محمد غير ان موقف السيد كان عصيباً نظراً لوقوعه بين عدوين كبيرين الامام يحيى في اليمن والشريف حسين في الحجاز ووقعت بلاده بعد وفاته في شعبان عام ١٣٤١ (١٩٢٣) فريسة في براثن الفتنة فاستولى الامام يحيى على القسم الجنوبي منها وانضمت الاقسام الاخرى الى ممالك ابن سعود

٤ — زوال امارة الادارسة

بعد وفاة السيد محمد الكبير ولي الامارة ولده علي فاغتنم الامام يحيى حميد الدين

الفرصة لاسترجاع تهامة منه فوفق الى ضبط الحديدة والاستيلاء على الساحل حتى مدينة ميدي . فثار اهل البلاد على علي وبايعوا عمه الحسن فتحاً السيد علي الى جلالة الملك عبدالعزيز اثناء فتحه للحجاز وما زال مقيماً في بلاطه حتى الآن

اما السيد الحسن فانه اراد أن يقلد اخاه محمد الكبير ففاوض جهات عديدة ، فاوض الملك عبدالعزيز مذكراً اياه بصداقة العائلتين ، وفاوض الامام يحيى ، وفاوض الايطاليين ، وفاوض كذلك الانكليز بواسطة ابن عمه مصطفى واقرت مفاوضاته مع الانكليز انه اعطى لشركة انكليزية امتيازاً باستخراج الزيت من فرسان بشروط مجحفة بحقوق البلاد والاهلين ، وبينما كان مندوبوه يفاوضون الامام يحيى في صنعاء لجمع مندوبه الآخر وابن عمه مرغني في عقد معاهدة مكة بين الملك عبد العزيز والحسن عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦م) ووضعت المقاطعة بموجب المعاهدة تحت حمايته وقطعت جهيزة قول كل خطيب

ولم يباشر الملك عبد العزيز حقوق الحماية اول الامر الاّ فيما يتعلق بامتياز شركة الزيت في فرسان فانه رأى فيه اجحافاً وغبناً عظيمين فوقف الى الغائه . وابقى ادارة البلاد في يد هيئة حاكمة تحت رئاسة السيد واكتفى بارسال مندوب يكون الى جانب الحسن ليعاونه في اعماله وحضر مندوبون من قبل الحسن الى بلاط الملك عبد العزيز في الطائف لوضع القواعد الاساسية لادارة البلاد — فوافق الملك على اقتراحات وفد الحسن وجعل الادارة الداخلية وتأمين الامن واعداد الجند للدفاع في يد الحكومة المحلية واحتفظ بالشؤون الخارجية فقط الاّ ان الادارة المحلية عجزت بعد سنتين عن ادارة الامور وتأمين الاحكام . ولم تكن قادرة على جباية الاموال الاميرية اللازمة لكيانها بالرغم عن مد الملك عبد العزيز يد المساعدة لها

وفي ١٧ جمادى الاولى عام ١٣٤٩ ارق الحسن الادريسي الى الملك عبد العزيز ما يأتي:

«كتبكم برفقة العبدلي وصلت وتذاكرنا مع وفدكم فتقرر بموافقتنا ورضانا اسناد ادارة بلادنا وماليتنا الى عهدة جلالتكم[1]» . وعهد الى مندوبين من الجانبين لوضع التعليمات الاساسية التي تتمشى عليها المقاطعة بعد ذلك وأصبحت المقاطعة الادريسية مقاطعة من مقاطعات المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها وجعل للسيد الحسن مقام استقلالي ممتاز محافظة على كرامته وكرامة عائلته[2]

وبعد اعلان توحيد اجزاء المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها ، وجعلها مملكة واحدة باسم المملكة العربية السعودية ، كان من المنتظر اعادة تنقيح التشكيلات الادارية في المقاطعة الاّ ان الحسن اغتر بمواعيد بعض المفسدين فحاول ان ينقض بالقوة ما تعهد به من قبل برضاء التام ورفع علم الثورة ضد الحكومة فجردت عليه حملة تأديبية قضت على فتنته ووضعت حداً لحكم الاسرة الادريسية في صبيا وجيزان وأبو عريش

(١) مجموعة معاهدات وزارة الخارجية ص ٦٦ (٢) انظر الوثائق الخاصة بذلك في مجموعة المعاهدات ص ٦٥ — ٧٦

فكاهة في نظرية النسبية

نسبية الوقت

هل تعتقد ان الدقيقة تكون في مكان اطول منها في مكان آخر ؟

لفقولا الحداد

من فكاهات نظرية « النسبية » التي ضبط قواعدها ايفشتين العلاّمة الالماني المشهور أن الوقت في مكان بعيد يختلف عنهُ في مكان قريب بالنسبة الى كل من المكانين . اعني ان الثانية او الدقيقة في المريخ مثلاً أطول منها عندنا متى كان المريخ يبتعد عنا ، او اقصر اذا كان يقترب الينا . وهكذا يرى المريخي (ساكن المريخ) ان ثانيتنا او دقيقتنا اطول او اقصر حسب الابتعاد او الاقتراب

اظن ان القارىء يستهجن هذا القول ، وربما حسبهُ سخافة وعدّ قائله مخرّفاً ، لانهُ يعتقد ان الدقيقة دقيقة والثانية ثانية اينما كانت . لانهُ اذا فرضنا ان الساعة التي تتك تكّ كل ثانية بالضبط تكها هكذا سواء كانت على الارض او في المرّيخ . يبني اعتقاده هذا على ان الزمن شيء ثابت مقرّر لا يتغير بتغير الامكنة . واذا قلنا له ان الزمن ليس كما يعتقد ، بل هو شيء نسبيّ وقيستهُ تختلف باختلاف بعده عن الشخص المراقب الحاسب لما قبل عقله هذا القول . فكيف به اذا قلنا له ان الزمن لا وجود حقيقي له ، بل هو تعبير عن خط الحركة فقط ، فلو وقفت حركة الأكوان لانتفى الزمن — كل هذا قد يتراءى خرافة للقارىء الذي لم يضطلع بمبادىء النسبية

وليس ايضاح هذه « القضية النسبية » بحيث تنجلي جيداً للقارىء بالامر السهل لان جميع قضايا النسبية مغايرة للمألوف عند الجمهور الذي تربّى وتعوّد ان يرى كل حقيقة بمفردها شيئاً مقرراً ثابتاً لا يختلف بالنسبة الى حقيقة اخرى . ولكني اجتهد بان اجلوها له ما امكن الجلاء . وعلى الله الاتكال

ان جميع قضايا النسبية نشأت من اكتشاف ناموس النور وسائر الامواج الكهربائية المغنطيسية التي ثبت ان امواج النور من جملتها — ذلك الناموس المخالف لنواميس الحركة . وهو ان النور لا يكتسب سرعة الجسم الذي يصدره كما تكتسب سائر الاجسام المنطلقة عن جسم آخر . ولا متسع لتفصيل هذا البحث هنا (وقد وفيتهُ حقهُ في مقتطف اكتوبر الفائت سنة ١٩٣٢ في مقالة سر ناموس النور)

النور ضرب من الامواج الكهربائية المغنطيسية العديدة التي تنطلق كلها بسرعة واحدة مهما اختلفت طولاً . فاقصرها اسرعها تموّجاً واطولها ابطؤها — وهذا تتعادل سرعتها . فسرعة امواج الراديو الذي ينقل الصوت والاشارات البرقية اللاسلكية (وسرعة كل موجة كهربائية مغنطيسية) واحدة ، وهي ٣٠٠ ٠٠٠ كيلو متر في الثانية . اي ان النور (والراديو) يستغرق وقتاً في انتقاله . يقضي النور الصادر من الشمس ٨ دقائق الى ان يصل الينا . وينعكس الينا عن المريخ في اكثر من ٨ دقائق اذا كان المريخ في اقصى بعده عنا او اقل جداً اذا كان في أقرب دنوّه الينا . ويقضي نور النجم قنطورس Proxima Centaurus اقرب النجوم الينا نحو سنتين وثلث سنة تقريباً الى ان يصل الينا

اذن ، نحن لا نرى ومضة نور ولا نسمع رجة صوت الراديو الا بعد صدورها بمدة ، حسب بعد مصدر الومضة او الرجة عنا . لذلك لا بدّ من حساب مسافة البُعد في كل حركة قادمة الينا على اجنحة الامواج الكهربائية المغنطيسية . فاذا تفهم القارىء هذا التمهيد جيداً واقتنع به سهل عليه ان يفهم كيف ان الوقت يختلف باختلاف بُعد المراقب للحركة عن مصدرها . ولجلاء القضية نضرب المثل التالي : —

نفرض ان شخصاً في المرّيخ عنده جهاز لاسلكي ، راديو ، ينبض كل ثانية بالضبط نبضة . وعندنا جهاز لاسلكي يسجل كل نبضة تصل الينا من المرّيخ — او لنفرض ان في جهازنا ساعة يتحرك عقربها بقوة هذه النبضة الواردة من المريخ . فلو كان المريخ والارض ثابتين لا يتحركان لكان عقرب الثواني في الساعة التي تدور بقوة راديو المريخ متفقاً تمام الاتفاق مع عقرب ساعتنا الاعتيادية اذا كانت هذه مضبوطة تمام الضبط . نعم ان التكة التي تَرِدُ الينا من المريخ لا تصل في الحال بل تستغرق بضع دقائق الى ان تتكها الساعة التي عندنا الدائرة بقوة راديو المريخ . ولكن التكات ترد تباعاً ، فتبلغ الينا في مواعيدها بين كل تكة واخرى ثانية مضبوطة

ولكن ليس في الوجود جسم ساكن بل كل جسم ، من الكهرب اصغر الاشياء الى النجم اكبرها ، متحرّك بسرعة خاصة به . فالمريخ يسير في فلكه بسرعة ١٥ ميلاً في الثانية والارض تسير بسرعة ١٨ ميلاً ونصف ميل بالثانية (تساوي ٣٠ كيلو متراً) — ولتسهيل الحساب نفرض ان المسافة بين الارض والمريخ تنفرج ٣٠ كيلو متراً في الثانية[1] أي انه كل ثانية يزيد ابتعاد المريخ عنا او نحن عنه نحو ٣٠ كيلو متراً ، وهذه المسافة تساوي جزءاً من عشرة آلاف جزء من المسافة التي تقطعها تكة الراديو من المريخ الينا . ففيما تنفرج المسافة بيننا وبين المريخ تتأخر تكة راديو المريخ الواردة الينا جزءاً من ١٠ آلاف جزء من الثانية ، وعلى

(١) والحقيقة ان هذا الفرق نحو ٣ ميل بالثانية تقريباً

النادي نرى ان تكتكة ساعة الراديو عندنا تتأخر عن تكة ساعتنا الاعتيادية ، حتى انهُ متى زادت المسافة بيننا وبين المريخ عشرة آلاف كيلو متر تكون ساعة الراديو عندنا قد سجلت ٩٩٩٩ ثانية في حين ان ساعتنا الاعتيادية تكون قد سجلت ١٠ آلاف ثانية ، أي ان الفرق ثانية واحدة في كل عشرة آلاف . اذن تكون ثانية المريخ عندنا ، اي بالنسبة الينا اطول من ثانيتنا بقيمة ١ من عشرة آلاف. واذا شئنا ان نتحقق موقع المريخ حين رصده فلا نكتفي بان نحسب مقدار الوقت الذي يستغرقهُ النور المنعكس عنهُ الينا، بل يجب ان نحسب ايضاً حساب هذا الفرق الذي نحن بصدده ، والذي لم يفطن له الفلكيون قبل ظهور النسبية

ولو كان عند المريخي ساعة يتحرك عقربها بقوة راديو صادرة من عندنا لكان يرى مثل ما نرى نحن ان ثانيتنا عنده اطول من ثانيته

واذا كان المريخ يقترب الينا او نحن نقترب اليهِ ، أي ان المسافة بيننا وبينهُ تقل وتقصر ، انعكست الآية وكانت ثانيته تصل الينا اقصر من ثانيتنا

هذا هو معنى نسبية الوقت ، اي ان الزمن نسبي ، وليس هو قيمة مقرّرة ، من غير اعتبار للمكان والمسافة بين الشخص المراقب وبعد المسافة بينهُ وبين الجسم المراقَب (بفتح القاف). بل لابدَّ من اعتبار هذين الامرين : اولاً مكان المراقب ، وثانياً : المسافة بينهُ وبين الشيء المراقَب . وحينئذٍ يظهر الاختلاف في قيمة الزمن او الوقت

بالطبع لا قيمة لهذا الفرق بين وقت ووقت على كرتنا الارضية التي تسير حولها ومضة نور او ومضة راديو نحو ٧ مرات ونيّف في ثانية واحدة . ولكن لهذا الفرق قيمة كبيرة في حساب حركات الاجرام السموية وابعادها ، وهي تقاس بسرعة النور لا بالاميال ولا بالكيلومترات . فاذا كان اقربها يبتعد عنا سنتي نور وثلث سنة فما قولك بما يبتعد بالسنين ومئات السنين . وما قولك اذا كان النور يقضي ١٨٤٠٠٠٠٠ سنة حتى يقطع نطاق المجرّة من جنب الى جنب؟

قبل ان تظهر نظرية النسبية لم يكن علماء الفلك الطبيعي يحسبون حساباً لهذا الفرق في الوقت الناجم عن تحرّك الاجرام. لو كانت الاجرام ثابتة لا تتحرّك لما كان من فرق بين الوقت هنا وهناك وهنالك . واما والاجرام كلها تتحرك بسرعات مختلفة بعضها يتجاوز الالف والآلاف من الكيلومترات في الثانية فلا بدَّ من ادخال حساب الوقت النسبي في حساب ابعاد الاجرام وتباعدها او تقاربها . وبمعادلة لورنتز :

$$\sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2}}$$

كافلة بضبط هذا الحساب مهما اختلفت الابعاد ،

باعتبار ان س رمز لسرعة الجرم و ن رمز لسرعة النور

اليست هذه النظرية فكاهة طيبة للقارىء؟

فلسفة تاريخ الفلسفة

لعلي أدهم

المعروف عن الفلسفة في العصور الحديثة انها تتناول بطريقة علمية منظمة بحث المسائل العامة المرتبطة بالكون والحياة البشرية . ولقد عرّف بعض المفكرين الفلسفة بأنها إدامة التفكير في الاشياء ومحاولة استطلاع خفاياها والكشف عن اسرارها . ولكن هذا التعريف لا يحيط بفكرة الفلسفة من جميع اطرافها ولا يحددها تحديداً واضحاً لان الانسان لا ينى يفكر في شؤونه العملية واحواله المعيشية حيث يعد الوسائل لبلوغ الغايات ويرسم الخطط لانجاز المشروعات . والعلوم جميعها من طبيعتها التفكير . فما ميزة التفكير الفلسفي عن التفكير العلمي وغيره من ضروب التفكير العملي ؟ وفي ماذا تختلف الفلسفة عن الطب والفلك والهندسة مثلاً ؟

لا خلاف في ان الفلسفة لا تمتاز عن هذه العلوم بمادتها لان مادتها هي بعينها مادة العلوم التجريبية . فهي تتناول نظام الكون وخطته كما تتناول الانسان من ناحية تكوين الروح وبناء الجسم وتبحث القانون وتدرس السياسة وبينها وبين مختلف العلوم اتصال وثيق وعلاقة مستمرة فالفلسفة اذن لا تختلف عن سائر العلوم من حيث الموضوع ومادة البحث وانما تختلف عنها من حيث الاسلوب وطريقة التناول . فالعلوم على اختلافها تستمد مادتها من التجربة مباشرةً ولكن الفلسفة لا تتناول الموجود كما هو بل تتعمق في البحث لتصل الى اسبابه النهائية

وكل علم من العلوم يحتل منطقة خاصة ويجمع الحقائق والتفاصيل المتصلة بمادته في ضوء فروضه المعينة والعالم يعمل في ميدانه ويصل داخله الى معلومات مقررة ونتائج عامة دون ان يلتفت بالة الى بحث علاقتها بالنتائج التي انتهى اليها العلماء الذين يكدحون في ميادين اخرى . وقد يحدث ان تتعارض هذه النتائج تعارضاً صريحاً واضحاً . فمثلاً بعض نتائج العلم الطبيعة الحديثة تعارض نتائج علم النفس بحيث ان صدق احدها ينقض حقيقة الآخر . ومن هنا تنشأ الحاجة الماسة الى مصفاة تراجع فيها هذه النتائج وينظر اليها نظرة جامعة كلية حتى نستطيع ان نستخلص فكرة عامة عن العالم الذي نعيش فيه ومصير الانسانية داخله . والذي يعين في الفلسفة ليس هو الحقائق في ذاتها وانما تفسير تلك الحقائق . ومتى اعتمدنا على الحقائق وشرعنا في التفسير يتدخل العامل الشخصي لان موقفنا ازاء الحقائق وتقديرنا لمكانتها يخضعه الى حد بعيد مزاجنا وتجاربنا وآمالنا ومخاوفنا . فكل فلسفة اذن شخصية الى حد كبير

وقد رمى بعض الناس الفلسفة بأنها قائمة على مجرد فروض تجريدية . وغاب عن هؤلاء ان نفس الافكار الكامنة وراء العلوم التجريبية هي في صميمها فروض . فالعلوم الطبيعية مثلاً تفترض وجود الاثير وعلم الحياة يفترض وجود القوة الحيوية والكيمياء تفترض وجود الذرة ويقبل العلم هذه الفروض ما دامت تخدم اغراضه وتلبي مطالبه وتعينه على اداء مهمته ولا يضطر الى رفضها الا عند ما تتسع هاوية النقص او تستدعي جملة فروض اخرى لتقيم اودها وتحمي كيانها وهذا يحدث من الحين الى الحين . من قبيل ذلك تغلب نظرية كوبرنيكس وظهور مذهب داروين . في كلا الحالين كان على النظرية الجديدة ان تثبت انها ايسر فهماً واقدر على تفسير الحقائق من النظرية القديمة . فرمي الفلسفة بانها تستند الى الفروض تهمة يصح ان يقذف بها ارسخ العلوم التجريبية كعباً واقدمها تاريخاً . وانما المهم هو الى أي حد تمكننا هذه الفروض من فهم الحقائق الواقعة . والفلسفة تتناول فروض العلوم كلها مثل النظرية الذرية للمادة والتصور الآلي للكون وعليها ان تلائم بين نتائج العلوم المختلفة . والعلم يتقدم عن طريق التجربة اما الفلسفة فان تقدمها رهن بعملية التسوية بين مختلف نتائج العلوم . وقد يعترض العالم على ذلك ويزعم ان وقت التسوية لم يحن بعد وانه عند ما يحل ميعاده فان العلم نفسه سيتولى هذا العمل ويشرف عليه ولكن هذا الاعتراض لا يؤبه له ونحن كلنا في حاجة قاسرة الى تصور عام للدنيا في مجموعها وهذا التصور العام قد ينقصهُ التحديد ويعتريه الغموض ولكنه على ما به من نقص من لزم ما يلزم لحياتنا العقلية وكياننا الأدبي

واول ما يرمي اليه العلم هو الوصف الدقيق المستوعب لمظاهر الكون وجمع الحقائق وتنسيقها فصائل وطبقات ثم البحث عن اسم مشترك يجمع اشتاتها ويصفها وصفاً بسيطاً مستوفياً جهد الطاقة ثم تلخيصها واختزالها في صيغة عامة تسمى عادة «قانون الطبيعة» . فالعلم عليه ان يصف وليس من عمله ان يفسر . وفكرة ان العلم قد فسر كل شيء وشرح المشكلات واستنفح المغلقات فكرة خاطئة لأن العلم لا يحاول ان يرد الاشياء الى الحقيقة النهائية وانما هو يفسر الاشياء تفسيراً محدوداً بتوصيفه لظروف حدوثها وارجاعها الى صيغ عامة بسيطة . فاذا ذكرنا ان العلم قد فسر طبيعة الجزر والمد فانما معنى ذلك اننا قد وقفنا على القانون العام المسيطر على الحقائق المتصلة بحدوث المد والجزر وهو تفسير لا يكاد يتعدى حدود الوصف . ويقول البعض ان العلم يستكشف الاسباب وهو قول يتنافر في ظاهره مع تعريف العلم بأنه وصفي وليس من شأنه ان يفسر . والحقيقة ان الاسباب التي يستكشفها العلم هي الاسباب الثانوية او الاسباب القريبة لان العلم لا يثير مسألة الاسباب النهائية . وقوانين العلم كائناً ما كان نفعها لا تخرج عن حيز الفروض وكلما امعن العلم في التقدم اشتدت الحاجة الى تناول هذه الفروض بالنقد والتمحيص فمثلاً النظرية الذرية استساغها الكيماوي لنفعها ولكن هذا غير كاف لاعتبارها تصوراً نهائياً للواقع

والفلسفة لا يعنيها ان تثبت او تنقض فائدة تصور من التصورات في أي ميدان خاص من ميادين العلوم لأن هذا عمل علمي محض . وانما هي تختبر هذا التصور لتقرر الكمال الصحيح لتطبيقه فالفلسفة تتساءل حيال النظرية الذرية هل هي تصلح نظرية نهائية لتفسير العالم العضوي ؟ وهل العالم المنظوم مكوّن من ذرات صغيرة كل ذرة مستقلة عن الاخرى ؟ واذا كانت هذه الذرات متصلة فأي حد تؤثر هذه الروابط والاتصالات في طبيعتها المستقرة ؟

فبين العلم والفلسفة خلاف في الغاية وخلاف في المذهب. فالعلم غرضه الاستيلاء والسيطرة والوقوف على حقيقة الاشياء بحيث يستطيع الانسان ان يتنبأ بما سيحدث لتعديل خطته وفقاً لذلك. والعلم في مواجهته للمستقبل وفي محاولته اخضاع الطبيعة لحاجة الانسان تجريبي . اما الفلسفة فهي نظرية بعيدة عن مآرب الحياة العملية وهي لا ترمي الى مد سيطرتنا على الطبيعة وانما تحاول ان تسدد خطواتنا وتنير سبيلنا في البحث عن الكمال والتوازن والنظام. والفلسفة لا تبتكر عمل طائرة او قاطرة ولا تخترع اختراعاً نافعاً ولكنها مع ذلك تحدد مرتفعا ازاء الطبيعة والله والانسان وتمهد للعقل سبيل العمل في مناطق العلم والسياسة والاجتماع. ويرى البعض انه من الخير نبذ الفلسفة والاكتفاء بالتعويل على العلم لأنه مضمون النتائج جم الفوائد والعوائد ولكن هؤلاء الحصفاء ينسون ان حياتنا الداخلية لها مشكلاتها الخطيرة ومطالبها الملحة ونحن ان كنا في حاجة الى الفروض العلمية لفهم تركيب العناصر وتكوّن الكواكب فاننا في حاجة اشد الى فرض نستجلي به غوامض النفس . هذه النفس التي تتدخل في كل شيء وتطالعنا من كل مرقب ولسنا نستطيع ان ننسى شأنها الا اذا اعمدنا اغماض العين وتخدير الفكر . والعلماء انفسهم متشعون بأن اشد تأملهم ثباتاً هي مجرد فروض . وصدق هذه الفروض متوقف على قوانين الفكر التي لا تتناولها غير الفلسفة

وكثير من الناس يتساءلون عن قيمة الفلسفة لعدم تقدمها الظاهر ولأن المسائل التي تشغل بال الفلاسفة والمفكرين اليوم تشبه نفس المسائل التي تناولها مفكرو اليونان . ونفس الحلول العقيمة تتوالى كدأبها في الماضي فلا عجب ان استبق الى فكر المتساءل هذا الفشل المتكرر والعجز المستمر ان المسائل التي تحوم حولها الفلسفة من وراء امكان العقل . وانا يغري بعض العقول بالشك في الفلسفة تأصل العامل الفردي فيها لأن كل مذهب فلسفي يتسم بميسم صاحبه وليس من اليسير التخلص العامل الفردي من التفكير الانساني [illegible] حد كبير وهي في ذلك تقبض العلم لأنه موضوعي صرف . ونتائج العلم يستطيع الكافة اختبارها وقبولها في حين ان غلبة العامل الشخصي على الفلسفة جعلها تبدو في صورة آراء متناقضة ومذاهب متناكرة . ورغم العلاقة المتبادلة بين العلم والفلسفة وتأثر كل منهما بالآخر فان الفلسفة لا تنمو وتتزايد وتتدرج في الكمال كالعلم لأنها عبارة عن سلسلة متصلة من الفلسفات التاريخية تمثل مراحل تقدم التفكير في جميع نواحيه العلمية والسياسية والاجتماعية وموضوع هذه الفلسفات المتوالية والصلة الداخلية بينها هو مجال تاريخ الفلسفة

ويختلف تاريخ الفلسفة عن تواريخ مختلف العلوم لأن كل علم له مجاله المحدود وتاريخه يمثل التقدم المحسوس في حدود هذا الميدان . وهذا خلاف الحال في الفلسفة لانك عند ما تحاول التدقيق في تحديد موضوعاتها يخذلك الفلاسفة . ونفس تعريف الفلسفة مثار خلاف . وكل فيلسوف يستهل لمحظة خاصة ويبدأ انشاء من جديد واذا اطال الانسان التفكير في الحركات الفلسفية المتتابعة ظهر له ان مشكلات الفلسفة في مجموعها ليست واضحة الحدود بارزة المعالم مثل مشكلات سائر العلوم ولعل اول واجب على الباحثين هو تحديد هذه المشكلات وربما كان هذا وحده هو اكبر عمل للفلسفة

ولقد كان الفيلسوف ديكارت يزدري تاريخ الفلسفة ويرى الاكتفاء بالتفكير الفردي المبتوت الصلة بما تقدم ومن مأثور اقواله « لا اريد ان اعرف ما تقدمني رجال ام لا » وكان ذلك منه رد فعل قوي ضد سيطرة القدماء التي غلبت على العصور الوسطى . وقد كان الفيلسوف ليبنتز اقرب منه الى الحق عند ما قال « الحقيقة اكثر انتشاراً وذيوعاً مما نقدر ولكنها في الغالب هزيلة ممزقة الاوصال فاذا تتبعنا آثارها عند القدماء امكننا ان نستخرج التبر من التراب والماس من المنجم والنور من الظلام » . وليست الفلسفة أن نكتفي بالتعمق في تفكيرنا الخاص بل هي ايضاً الوقوف على افكار الغير والتغلغل في بحثها

وتاريخ الفلسفة نافع كل النفع في تحقيق اطراف التاريخ العام وتصحيح اجزائه وادراك مغزاه وذلك لان الاسباب النهائية لحوادث التاريخ في اي عصر من العصور مردها الى الافكار السائدة في ذلك العصر . والافكار التي تسترشد بها الجماعات في الحركات الاجتماعية هي وليدة التصورات الادبية والدينية والعلمية وكيفية فهم هذا العصر لمعنى الواجب والحق والصورة التي يتمثل بها الكون في خطته العامة او في قوانينه الخاصة . ومعرفة تلك الافكار والتصورات تستلزم دراسة العبقريات الفلسفية التي تبوأت مكانها في تلك العصور . فاليونان في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد تتمثل في سقراط وافلاطون . والمؤرخ الذي يدون اعمال الانسانية دون ان يطيل النظر في تفكيراتها الفلسفية لا يستطيع الاهتداء الى الافكار المستترة التي تعمل وراء الحركات الاجتماعية الظاهرة . والفلسفة في الظاهر تبعدنا عن الواقعي وتنقلنا الى عالم المثال والفكرة ولكنها في الحقيقة تجلو لنا ما هو اكثر واقعية ونوفر نصيباً من الحقيقة وليس من المبالغة ان نقول بان تاريخ الاعمال لا يدرك على حقيقته الا اذا فهمنا تاريخ الافكار

ومما هو جدير بالملاحظة ان تاريخ اي علم من العلوم ليس جزءاً من هذا العلم فمثلاً تاريخ الرياضة ليس جزءاً منها . وتنفرد الفلسفة من بين العلوم جميعها بان تاريخها جزء منها وذلك لان الفلسفة وتاريخ الفلسفة غايتها واحدة وهي مشاهدة العقل أثناء اكبابه على التفكير في طبيعته وفي مبدئه وغايته

والفيلسوف مجل هو الذي وضع اساس فلسفة تاريخ الفلسفة لانه هو الذي استكشف الفكرة التي تقوم عليها تلك الفلسفة وهي ان تاريخ الفلسفة ليس مجموعة الآراء المختلفة

والمذاهب المتلونة للمفكرين المختلفي النزعات ولا هو مجرد اتساع نواحي الفلسفة واكتمال جوانبها الناقصة وانما هو العملية التي استبانت بها كليات العقل واكتدت ظهورها وارتسمت في شكل تصورات واضحة معروفة . وقد اعتبر هجل تاريخ الفلسفة حركة مفردة متصلة معقودة الاوائل بالاواخر

ولكن هذا الرأي الناقد العميق أضرَّ به ضرراً بليغاً اعتقاد هجل ان الترتيب التاريخي الذي ظهرت به الكليات في المذاهب الفلسفية التاريخية يلزم أن يكون متفقاً تمام الاتفاق مع الترتيب المنطقي بحسب ما يراد هجل في منطقه الخاص . فهو يرى اننا اذا صنَّفنا المذاهب الفلسفية من الاوشاب العالقة بها تكشفت لنا الفكرة المنطقية في مراتبها المتتابعة وهي الكينونة والصيرورة والوجود الخاص والوجود الفردي والكمية والكيفية الى آخره . ولكننا اذا تأملنا سير التاريخ وجدناه مزيجاً من الضرورة والنظام والحرية والفوضى ورأينا ان رابطة المنطق قد تظهر في امهات الحوادث . اما في التفاصيل المشتبكة فان الصدفة تلعب دورها ولا سبيل الى انكار تأثير الافراد في التاريخ ومهما لسبنا كل تأثير للفرد الى ظروف عصره واحوال قوميته فاننا لا نستطيع ان نسلبهُ حرية ارادته . وقد كان من جراء مغالاة هجل في اعتقاده ان سير المذاهب الفلسفية لا مفرَّ لهُ من ان يرسف في اغلال الضرورة المنطقية ان اساءت فكرته الى الحقائق التاريخية المقررة حتى اضطر التفكير الفلسفي في اواخر القرن التاسع عشر ان يثور عليها لمحاولتها ان تلوي الحقائق التاريخية لتتفق معها

وانما تسرب الخطأ الى فكرة هجل لاعتقاده الخاطىء بان تقدم الفلسفة قائم في جوهره على الضرورة الفكرية التي بموجبها يؤدي ظهور كلي من الكليات الى ظهور كلي آخر بحسب الطريقة المنطقية والواقع ان سير الفلسفة مخالف لذلك من وجوه كثيرة لان سير الفلسفة لا يتوقف على نظم التفكير الانساني وتسلسل كليات المنطق وحدها بل يتوقف ايضاً على حاجات القلب وومضات الفكر المفاجئة للافراد . فتاريخ الفلسفة باعتباره مجموعة كلية للتصورات الجوهرية لنظرات الانسان للدنيا وحكمهِ على الحياة هو نتيجة حركات فكرية متنوِّعة تختلف البواعث عليها باختلاف الازمنة والامكنة وسائر الملابسات الاجتماعية

والعامل المنطقي الذي وجه هجل اليه الانظار هو ولاريب عامل هام . وفي عودة مشكلات الفلسفة للظهور من الحين الى الحين في تاريخ الحركة الفكرية دليل ناهض على وجود تلك الضرورة الكامنة في الذهن التي تستدعي ظهورها . وتلك المشكلات تتطلب تلك الحلول التي لم يوفق فيها أحد التوفيق التام ولعل في هذا دليلاً على أن العقل لا يمكنهُ أن يحيد عن مواجهة مشكلات الفلسفة . وقد لوحظ في بعض العصور أن تقدم الفلسفة كان تقدماً منطقياً محضاً وانما مصدر خطإ هجل هو في أنهُ أراد أن يجعل عاملاً واحداً صاحب الحل والعقد في الموضوع . ونحن نخطىء في دورنا اذا أنكرنا على الاطلاق وجود منطق في توالي المذاهب

الفلسفية ورأينا في تتابعها مجرد أفكار شخصية خاضعة لاحكام الصدف . والأصدق في تاريخ الفلسفة هو ان مشتملات هذا التاريخ في كليتها يمكن تفسيرها بان الضرورة الموجودة في المذاهب الفلسفية تؤكد نفسها وتظهر حقيقتها في تفكير الاشخاص مهما كانت ظروفهم الخاصة والمصادفات المحدقة بهم وعلى هذه الفكرة قامت محاولات بعض المفكرين تنظيم المذاهب الفلسفية صنوفاً خاصة . وفوق هذا الاساس بني فكتور كوزان نظريته في المذاهب الاربعة وهي « المثالية » و« الحسية » و« الارتيابية » و« الصوفية » وكوّن اوجست كونت رأيه في المراحل الثلاث . مرحلة الدين ومرحلة ما وراء الطبيعة والمرحلة الوضعية

ولكن المنطق في سير الفلسفة كثيراً ما ينقطع خيطه والترتيب التاريخي الذي ظهرت به مسائل فلسفية كثيرة كان يدل على عدم وجود الضرورة المنطقية . والسر في ذلك ان هناك عاملاً قوياً ينبغي ان يحسب حسابه وهذا العامل الهام تخلقه اتجاهات الحضارة وذلك لان الفلسفة تتلقى مشكلاتها وتتأثر في حل هذه المشكلات من حاجات المجتمع ومطالب الوعي العام . فالفتوحات العظيمة والثورات الاجتماعية الخطيرة والتغيرات السياسية البعيدة المدى وتطورات الفكر الديني وبداءات الفن وملهيات الشعر كل هذه العوامل تزوّد الفلسفة بدوافع مستجدة وتيارات مستجدة وتقضي باهمال بعض المشكلات ونبذها وتعليق الشأن الكبير بمشكلات اخرى والتبحر في دراستها وهكذا الى جانب الاعتماد على العامل المنطقي فان هناك ضرورة ناشئة من الحضارة واتجاه تيار الثقافة تستدعي حق الوجود لنظم فكرية لولا هذه الضرورة لما تماسكت وارتفع بناؤها الفكري

وفضلاً عن ذلك فان الحركة التاريخية في تنوع اشكالها وتجدد اوضاعها مدينة الى حد كبير للافراد المتازين . وهؤلاء الافراد برغم انغماسهم في احوال عصورهم وخضوعهم للفكرة العامة المنطقية السائدة في عصرهم التاريخي يضيفون على الدوام من طريق فرديتهم البارزة وتخطيهم الاوحدي عاملاً جديداً . وهذا العامل الفردي في تاريخ الفلسفة جدير بالرعاية لان حاملي اللواء في الحركة الفلسفية كانوا من ذوي الشخصيات الرفيعة المستقلة والطبائع القوية المؤثرة

واذا لاحظنا في تاريخ الفلسفة تردد مشكلاتها من الحين الى الحين وعودة نفس الحلول والمحاولات فاننا عسيون بان نجد في ذلك الحجة الدامغة على خطورة المشكلات الفلسفية وعلى ان الفلسفة ليست وهماً من اوهام الخيال ولا هي ترجية فراغ ونوع من الترف في التفكير وانما هي تتناول مشكلات حقة ومسائل جدية ولعل المذاهب الفلسفية المتعددة على ما بها من اختلاف وتناقض اوجه مختلفة لمذهب فلسفي واحد في نمو متزايد هو المذهب الذي يتضمن حكمة الاجيال المتعاقبة وخلاصة التفكير الانساني . وتاريخ الفلسفة يرينا كيف صاغت الانسانية تصورات هذا المذهب وكيف كوّنت على الحياة احكامها المجتمعة فيه

الحياة

هاج النسيم العندليب في السَّحر فهزّهُ الغرامُ وجداً فصفر
وغازل الوردَ على ضوء القمر وردّد الفضا صداه فاستمر
والماء غنّى بخريره الشجر
وباتت الشمال ترقص الزهر

يا حبذا الالحان في الاسحار من بلبلٍ شادٍ وماءٍ جار
ومن نسيم مرّ بالازهار تخالهُ يلعب بالاوتار
امسى له في كل جوحةٍ أثر
وكل عودٍ فيه عودٌ ووتر

مرّ النسيمُ العذبُ والعيش حلا والبلبل العاني شدا ورتّلا
واذّن الديك بنا حيّ على ... والوقت قد طاب وساعت الطّلى
فاغتنم الوقت وفز واقض الوطر
واجن من اللذّة بالعيش النمر

واختلط الفجرُ بنورِ البدرِ اذ الدّراري انتثرت كالدرّ
في ليلةٍ ما خلتها من عمري قلتها سكراً وأي سكرِ
وكل ما شاهدت فيها قد سكر
من حيوان ونبات وحجر

واستتر النجمُ اذ الصبح بدا ومدت الظبا الى الورد يدا

تمسح عن جبينه قطر الندا تنثر ذاك اللؤلؤ المنضدا
فالطلُّ انجم ان انجم استتر
والروض كالسماء زاهٍ بالدرر

والزهر الكؤس والطلُّ ندى بين كرام الشرب باتت تجتلى
حتى اذا الورد بها قد ثملا عربد في الروض النسيم واعتلى
فاصطكت الكؤس والطلُّ انتثر
وانسكب الشراب والجام انكسر

بينا الصبا والروض في وفاق تميل بالاغصان العناق
تضمها من فرعها للساق تحكي الحبيبين لدى التلاق
اذا بريح صرصر تعمي البصر
اعقبها رعدٌ وبرقٌ ومطر

ما ابتسم الصباح حتى قطبا اذ جاءت الريح تسوق السُّحُبا
وبعد ما الهزار غنّى طرباً صاح الغراب ناعباً مكتئبا
فأعقب السرورَ حزنٌ وضجر
وبان بعد صفو عيشنا الكدر

كذا الحياة شأنها جزر ومدّ تعاقب السرور فيها والكمدْ
والعين اذ قرّت بها تلقى الرمد وكل شيء ينتهي الى امد
والمرء لا ينفك يحذر القدر
والموت لا يبقي غداً ولا يذر

طهران عباس الخليلي
صاحب جريدة اقدام الفارسية اليومية

ظاهرة دبلر

في الطبيعيات والفلك

قد اعتدنا نحن ابناء القرن العشرين سماع اصوات مختلفة كأصوات كثير من المخترعات الحديثة التي لم يتسنَّ لاجدادنا ان يروها كالقاطرة والباخرة والترام والسيارة وغيرها من وسائل النقل العديدة . واظنني غير مبالغ اذا قلت أن كل واحد منا شاهد قاطرة او باخرة وسمع صفيرها المتعالي مخترقاً طبقات الجو . ولكن قلَّ من اعار هذا الصفير عناية واخذ على عاتقه تطبيق احد القوانين الطبيعية المشهورة التي درسها في المدرسة . وهذا ما نريد ان نحاوله في هذا السطور

ربما لاحظ القارىء وهو ينتظر في محطة ما والقاطرة مقبلة نحوه ، يسبقها صفيرها المتعالي ان الصوت يتغير تدريجاً اي يرتفع وربما لاحظ كذلك ان صفيرها يظهر آخذاً في الانخفاض ان كانت القاطرة مدبرة عنهُ . ولا يخفى على سكان الموانىء ان الباخرة القادمة اليهم يرتفع صفيرها تدريجاً على ضدّ تلك التي على اهبة السفر فان صفيرها يظهر منخفضاً تدريجاً وهي تبتعد عن الشاطىء . هذه الظاهرة الطبيعية مدونة في اكثر كتبنا المدرسية شأن غيرها من الحقائق التي كشف عنها جهابذة العلم وتعرف بظاهرة دُبلر Doppler والقانون الذي تسير بموجبه يعرف بقانون «دُبلر» . ويبدو لاول وهلة ان هذا القانون عديم الفائدة او قليلها لا يستحق الالتفات اليهِ والنظر فيهِ ولكنهُ كبقية المكتشفات التي احتقرها الناس لجهلهم اياها له أثر خطير في تاريخ التفكر البشري وبوجه خاص في الطبيعيات والفلك

ولد دُبلر مكتشف القانون المنسوب اليهِ في سلسبورغ من اعمال النمسا وانتظم في جامعة فينا حيث درس الطبيعة ويمم فيها وربما اكتشف قانونه وهو بعد في سلك التعليم واخذ في تفسيره سنة ١٨٤٢ فقرض كما فرض علماء زمانه يومذاك — وفرضهم اصبح اليوم حقيقة مقررة — أن الصوت ليس سوى اهتزازات دقائق الهواء او امواج تسير فيهِ . فالقطار والعربة والناقوس ترسل امواجاً حين اخراجها للصوت تلتقطها آذاننا فتقرع طبلة الاذن وتنقل الى الدماغ وتختلف هذه الامواج بعضها عن بعض طولاً وقصراً كما ان الاصوات تختلف علوّاً وانخفاضاً وشدة

والصوت العالي او المرتفع هو ما كانت موجاته قصيرة فتكون سريعة الاهتزاز على الضد من الصوت المنخفض فامواجه طويلة قليلة الاهتزاز بطيئتهُ . وتتبين صحة هذا القول عند ما ننصت لاصوات الآلات الموسيقية المختلفة من بوق وارغن وكمنجة وقربطة وعود وغيرها

والقطار عند صفيره تنطلق منهُ امواج صوتية تهتز اهتزازات معينة وتسير بسرعة ٣٣٣ متراً في الثانية فاذا كان القطار مقبلاً نحونا اندفعت الامواج الكثيرة الى الامام فتتجمهر امام أذننا كأنَّ قائدها يضغط سابقها ، وكلما اقترب منا قصرت المسافة بيننا وبينهُ ونظراً الى كثرة

الامواج وازدحامها تحير على الانكسار فتقسم المسافة الطويلة الى اقصر فنقول عند ذلك ان « الصوت يعلو تدريجاً ». ويتبين ذلك لرجل واقف عند شاطىء البحر وامواج البحر تهاجمه وتتكسر عند رجليه فيرى كيف الامواج تصغر — تقصر — كلما دنت منهُ ويتعالى هديرها. هذا عند اقبال القاطرة نحونا اما عند ادبارها اي ابتعادها عنا فيجري عكس ما سبق. فالقطار المدبر يرسل امواجه الصوتية المعهودة والمسافة بيننا وبينه آخذة في الزيادة والنتيجة ان الامواج يصبح طول مدى اوسع فتأخذ في الاستطالة اي تقل ارتجاجاتها فنقول إن الصوت قد اخذ في الانخفاض. هذا ما يعلل به علماء الطبيعة هذه الظاهرة ودعامتهم الكبرى في ذلك ان الصوت امواج او ارتجاجات دقائق الهواء

وربما يسأل القارىء نفسه كما سأل كاتب هذه السطور السؤال التالي : اذا كان صفير القطار وهو مقترب نحونا يرتفع تدريجاً افلا يظهر كذلك اذا كان القطار واقفاً ونحن الذين نقترب اليه ؟ والجواب عن هذا السؤال بالايجاب ، فان المسافة والسرعة في الكون نسبية كما ابانت نسبية اينشتين الحديثة ومن اراد ان يتحقق ذلك فلينصت الى اجراس الكنيسة وهو مقترب نحوها فيسمع صوتها يعلو تدريجاً ان كان آتياً نحوها وهي تقرع وينخفض كذلك ان كان مبتعداً عنها . وانما الفرق في شعورنا في الحالين يختلف لان سرعة اقبالنا نحن او ادبارنا نحن ابطأ كثيراً من اقبال قطار او ادباره فالاختلاف في ارتفاع صوت الناقوس او القطار لا يبدو جلياً

بقي القسم الثاني من قانون دپلر اعني اثره في علم الفلك والبحث فيه شائق طريف فلما يخلو من اللذة والفائدة . واذا علمنا الفوائد التي جناها علم الفلك بواسطته عن حقيقة النجوم والسيارات والثوابت القريبة من ارضنا وحركة مجموعنا الشمسي والمجرة وسرعتها في الفضاء اللانهائي — اقول ولو عرفنا ان ما دما اينشتين ودي ستر الهولاندي للبحث في تمدُّد كوننا وتقلصه وفي صدق نظرية النسبية والكم — انما يرجع الى النتائج التي اسفرت عن تطبيق قانون دُبلَر لادركنا ما لهذا القانون من الشأن في صدر علماء الفلك

يعلم اكثر التلامذة وغيرهم من المتعلمين النظرية القائلة بأن الضوء أشبه بالصوت وانهُ ليس الاَّ امواجاً اثيرية تنطلق من الجسم المضيء الى شبكية العين حيث تؤثر في الاعصاب فنرى الاشياء وتتحقق وجودها . وهذه المعرفة مع بساطتها والسذاجة التي يظن انه تنطوي تحتها لم يعلمها امير الفلاسفة نيوتن ولا مَنْ سبقه من علماء الطبيعة الذين كشفوا عن نواميسها الزوية . وانى ان القراء يعلمون النظرية الذرية في الضوء Corpuscular Theory التي اثبتها نيوتن في كتابه « المبادىء » Principia وبقيت هذه النظرية الى ان تصدى لها العالم الهولاندي هو جنس سنة ١٦٦٠ وقاومها قائلاً : انها لا تستطيع تعليل خواص النور كلها . وادَّعى أن الضوء امواج اثيرية لا ذرات مادية فتفقد الضوء عند ذاك صفة المادة واصبح امواجاً يتقاذفها بحر مجهول الكنه والمادة دعوهُ الاثير . وقد لقيت هذه النظرية ، نظرية الامواج Wave Theory رواجاً عظيماً بين الاوساط العلمية اولاً لبساطتها في تعليل جميع مظاهر النور — كما كان

يظن — وثانياً لان لكل جديد طلاوة غريبة . وظلت هذه النظرية حتى أواخر القرن التاسع عشر النظرية الوحيدة التي يعتدُّ بها العلم لانها ثبتت امامه في بوتقة التجربة والامتحان الطويل. ولكن ما عتم ان أتى القرن العشرون حتى ظهر ان نظرية الامواج امست على وشك الانهيار. وما تجارب الدكتور جوزيف جنسن وابنه ووندرفرس وبلنك الا برهاناً واضحاً على فشل هذه النظرية في بعض نواحيها . وكان البروفسور بلنك من جملة من حمل عليها حملته الشعواء فهاجمها بسلاح التجربة والبرهان وقال بأنها امست على فراش الموت ووضع من ثم أُسس نظرية جديدة تعرف في علم الطبيعيات بنظرية الكم Quantum . وقد بسطها المقتطف سابقاً باسلوب رائق سهل التناول وعلق عليها قائلاً : نظرية الكم كأختها نظرية النسبية من ثمار الفكر الالماني زعزعت كثيراً من معتقداتنا القديمة وازالت جلالة « البيبة » عن عرشها القديم

وقد يدرك اللبيب ان قانون ديلر لا يصح في علم البصريات الا اذا عُدَّ النور أمواجاً أثيرية وهذا ما وعدنا به هوجنس في نظرية الامواج فلنبسط بحثنا اذاً لنرى اي مكان لقانون ديلر من الاعراب . جاء في كتاب المبادىء لنيوتن ان النور مركب من سبعة ألوان أولها الأحمر وآخرها البنفسجي وقد اثبت ذلك نيوتن وهو طالب حديث السن وجاء هوجنس فقسر لنا هذه الالوان قائلاً . انها امواج مختلفة الطول. والقصر فهي مختلفة الارتجاجات كما تختلف اصوات السلم الموسيقي تماماً في الارتفاع والانخفاض نظراً الى اختلاف طولها وقصرها وذكر من ثمَّ ان اقصر الامواج في الوان الطيف هي للون البنفسجي وأطولها للون الأحمر

ولنفرض ان شعاعة آتية الينا من نجم سحيق في بعده ثابت في مركزه فأمواج نوره تبقى بلاشك على ماهي عليه من لون طبقه اللهمَّ اذا لم يعترض ذلك النجم كارثة عظمى تمحو أثره من الوجود. ولكن لو فرضنا ان النجم مقبلٌ نحونا بسرعة عظيمة فلا بدَّ من ملاحظة تغيير يطرأ على طيف نوره اعني انه لابدَّ ان يحدث للامواج الآتية الينا منه كما حدث للامواج الصوتية الخارجة من صفير القطار المقبل أي تقصر وتميل نحو اللون البنفسجي وذلك لان الامواج البنفسجية هي اقصر الامواج كما ان الصوت المرتفع اقصر الامواج الصوتية. ولو كان لدينا آلة بصرية دقيقة تستطيع ان تدوّن لنا هذا التغيير — كما هو للسكترسكوب اليوم — لتوصلنا الى معرفة هذا النجم باستعمال قانون ديلر

ولنفرض كذلك ان نجماً آخر يسبح في الفضاء يبتعد عنا بسرعة ١٠٠ ميل في الثانية فلا بدَّ لسرعته البطيئة نسبياً ان تؤثر في طيفه وحالته تكون اشبه بحالة القطار المبتعد عنا اي ان امواجه تطول فيقل اهتزازها فتميل او تحيد نحو اللون الاحمر لان امواج الاحمر اطول امواج الطيف المرئية. ولو استطعنا ايضاً حساب هذا الاختلاف لتسنى لنا معرفة سرعة هذا النجم الشاسع. وبمثل هذه الاستنتاجات أخذ علم الفلك يتحص اختلاف طيف النجوم المرصعة القبة الزرقاء لتطبيقها بموجب هذا القانون لاستخراج نتائج غريبة جداً وبعيدة عن التصديق والاحتمال . فقد ثبت مثلاً ان لبعض النجوم سرعة تزيد ١٥٠ ميلاً في الثانية مقتربة من سيارنا وظهر ان اخرى تبتعد عنا

بسرعة تماثلها . وعرف ايضاً ان مجموعنا الشمسي يسير في الفضاء اللامتناهي بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية ويزعم بعض الراصدين في مرصد جبل « ولسن » ان سرعة الاجرام السماوية تزداد بمقدار ما وقفوا أن نظرية النسبية تؤيد مزاعمهم فالنجوم التي تبعد عنا ١٠ ملايين سنة نورية لها سرعة تقارب ٩٠٠ ميل في الثانية والتي يحتاج نورها الى ٥٠ مليون سنة للوصول الينا لها سرعة تقارب ٤٥٠٠ ميلاً في الثانية . والعمليات الرياضية في هذه المسائل تستوعب زمناً طويلاً وتفكيراً عميقاً حاداً ولكن النتيجة التي توصلوا اليها بعيدة الاحتمال جداً فضلاً عن انهُ اذا عادينا في البعد وحساب السرعة وجدنا ان هناك في آخر اركان الكون — ولا اركان للكون — اجرام تدور بسرعة النور، وهو قول تنفيه نظرية النسبية على خط مستقيم. والعجب كل العجب ان العقل الذي ابدع قوانين الرياضيات هو نفسه يعجب للنتائج التي توصل اليها ولا يكاد يصدقها . فلا غرابة اذا قام بعض الباحثين لانتقاد هذه الاعداد الغريبة ولتأكيد عدم دقتها واشهرهم جيمس جينز مؤلف كتاب « الكون المفعم بالاسرار » وزفسكي استاذ الطبيعيات في جامعة كاليفورنيا بأميركا . قال الاول ما خلاصته :

ان النتائج التي حصلنا عليها لسرعة الاجرام السماوية ليست حقيقية فيها كثير من المبالغة وذلك لانها لم تقس رأساً كما قيست ابعاد النجوم بل باستخدام قانون دبلر في فحص طيوف النجوم وقياس زاوية الاختلاف فيها ولكن هناك مسببات اخرى قد يكون لها المقام الاول في جعل الطيف ضارباً الى الحمرة والزرقة فالشمس مثلاً يحمر لونها عند الشفق والغسق فتكسب الغيوم لوناً احمر قانياً وذلك لمجرد مرور اشعتها في جو الارض . وهناك سبب آخر ارتآه الفلكي دي ستر وهو ان البعد ايضاً يجعل لون النور مائلاً نحو الحمرة حتى ان البعد الشديد اذا سلمنا بأنها ثابتة تظهر لنا حمراء عند رصدها . بقي علينا تعليل الاستاذ زفسكي لهذه المسألة الخطيرة وهاك رأيه :

ان الاشعة الصادرة من النجوم والسدم تصادف في اثناء سيرها في الفضاء كثيراً من الالكترونات الضالة السابحة فتنحرف بتأثيرها عن سيرها فيحمر من ثم طيفها الواصل الينا . ولاثبات رأي زفسكي رُصد عدد من السدم المتساوية الابعاد تقريباً واختيرت بحيث يكون البعد بينها وبينها تارة محتشداً بالمادة وطوراً قليلها فأسفرت النتيجة عن ان طيف الاولى كان اشد احماراً من طيف الثانية كما اثبتت معادلات زفسكي الرياضية . وعلى ذلك لا تكون هذه النجوم السحيقة البعد عظيمة الحركة كما زعم الفلكيون سابقاً . وتفسير ميل طيفها نحو الحمرة لا يتأتى عن سرعتها فحسب ولكن لتعليل زفسكي المقام الاول لهذه المسألة . اذ ثبت ان هناك عوامل خفية هي السبب في جعل طيف النجوم ضارباً الى الحمرة وجهلنا بهذه العوامل هو الذي جعلنا نعتقد ان الحمرة ناتجة عن سرعتها . وقد اخذ العلم يكشف النقاب عن هذه العوامل السرية. فلننتظر ما يتحفنا به في القريب العاجل

القدس حمزه بيا

السوبرمان

او « الانسان الكامل »

« السوبرمان » أو « الانسان الكامل » هو تلك الصورة البراقة الرائقة من « الانسانية » الناضجة المستكملة الجوانب التي لا تعتور أسوار متانتها ثغرات من الوهن أو فتحات من المثالب

بل هو « الحلم النهبي » الذي يداعب آمال « البشرية المعاصرة » ، ويتبدى لخواطرها كما تتبدى الغادة الهيفاء أمام عيون العاشقين فتنة متحركة تستهوي الالباب بسحر جمالها الخلاب

بل هو غاية المطاف من المعارج ترقاها البشرية على متدرجة التطور نحو المثل الاعلى الذي تطمح اليه ، وتوجه جهودها المتواصلة الشيقة نحو بلوغه : ليتمثل في يدها عصا سحرية تبدل آلامها المضنية حالة راضية مرضية من السعادة والرفاهية

بل هو ذلك الندى المبارك الذي تشرئب اليه زهرات الانسانية تستزله في شوق ولهفة : لتتفتح اكمامها عن شذاها العطري المتأرج الذي يروّح عن النفوس بعد أن استبدّت بأنفاسها تلك الرائحة الخانقة التي نشرها روح النضال بين « أفراد النوع » : مدفوعين بعوامل الانانية والاثرة ، التي تحبب الاستعلاء والسيطرة ، جرياً وراء مطامع أثيمة من التسخير والاستغلال

بل هو تلك المرحلة النهائية التي تبلغها البشرية في تطوّرها : بعد أن تعبر جسراً من المتاعب وتخوض بحراً من المصاعب المجهولة . . . فإذ ذاك — وإذ ذاك فقط — تلعب الانسانية أمجد أدوارها على مسرح الحياة ، بل تقوم بأشرف واجباتها نحو مختلف مظاهرها أفراداً وجماعات ، ونحو باريء الاكوان الذي استخلفها في الارض

خصائص السوبرمان

ولعمري لم يستطع الانسان أن ينهض بأعباء تكاليفه الجديدة الا وهو مزوّد بأسلحة اخرى من كيانه المتجدد : الذي سيتكيف أنموذجه وفق قالب من تفاعيل التطور والارتقاء ، وسيتكشف هذا التطور في الشخصية الانسانية عن تقوية مقوماتها المادية والعقلية والادبية والوجدانية ، كما سيكفل تحقيق التوازن بينها ، وتنظيم روابطها ، بحيث تتساند وتتعاون ، وينتفي عند بعضها الاستعداد للطغيان على حساب البعض الآخر

ولكن ، على أية صورة سيتسق هذا الطراز المرموق للانسان الكامل ؟ والى أي مدى سيتسع مجال النشاط أمام مقومات شخصيته ؟ سننتظر من السوبرمان أن يكون ذا جسم

صحيح قوي متين ، سليم التكوين ، يتمتع بمرونة الاجهزة والاعضاء ، وحرية نشاطها في الاداء

وسننتظر من السوبرمان مواهب عقلية فذة : كريمة الجوهر ، رائعة الاثر ، بمقدار ما متحرر من شوائب القصور عن التعمق في الادراك ، والعجز عن استكناه الحقائق وطبائع الاشياء . . . . وذلك بفضل ما سيتسع امامها من آفاق جديدة لدقة النظرة وسلامة الارتياء : نظرة شاملة كاملة مستوعبة تستعين بالاخيلة الابداعية والحافظة الواعية والارادة الحديدية على فتح المجاهيل المغلقة امام الذهن ، ليرتادها منقباً عن النواميس المكنونة ، فيضم كل حلقة الى سلسلتها ، ويرد كل فرع الى اصله ، ويرجع كل فرد الى نوعه ، ثم يستخدم الجميع وما يستجد من كل جوهر فرد ، في كشف عوالم فكرية اخرى : يسخرها بدورها مع غيرها في تحقيق اغراضه ومطامحه وما تصبوا اليه الجماعة الانسانية كافة من سعادة ورخاء وطمأنينة وسلام

وسنطمع من « الحاسة الفنية » في « السوبرمان » بأزهى ما يفيضه طيفها من باهر الالوان : وأشجى ما تترنم به بلابلها من فاتن الانغام في ساحر الالحان : لتأتلف من تلك الالوان وهذه الالحان صورة مناجية : وأنشودة داعية : نحو الكمال في أروع مثال : تحت قبة التآخي والوحدة الوارفة الظلال

وسيتجلى السوبرمان في صفاء « روحانيته » : بعد أن يتخلص تيارها من رواسب القنق والحيرة ، وبعد أن ينجلي عن رؤاها صدأ الغرائز ونوازع الاثرة ، وبعد ان يسجح ما ترسف فيه من أغلال المادية المركوزة المستقرة ، وبعد أن ينجاب ما يظلها من غيم الفردية المنقبضة المتحجرة : فاذا هي روحانية نقية طاهرة ، مجلوة متحررة طليقة طائرة : تسبح في جو جديد فسيح تعطره نسمات الحنين الى التسامح ، ويحقق فيه الضمير الانساني بهمسات هاتفة تمجد الاخاء والمساواة وتغري بالاندماج بل التلاشي طي تلافيف الروح الاعظم الذي ينتظم العالم والاكوان جميعاً

نظرية السوبرمان في الميزان

ولقد طالما كانت هذه الصورة الاخاذة التي اسلفنا عرضها عن السوبرمان موضع تشكك طائفة من الباحثين ، ويأس من امكان تحقق نظريتها التي تسمو في تقديرهم عن مستوى المعقول . فراحوا يرصدون عليها اشتاتاً متنافرة من جدل سقيم لا ينهض ، وتفنيد عقيم لا يدحض

(١) ذلك انهم زعموا ان « عقل » السوبرمان الهائل الجبار سيستغرق مقداراً كبيراً من قوة الانسان . فيضعف جسمه ، وهو الاساس في التغذية والاصل في التكوين — لكن ذلك تعسف منهم في تأويل قانون الطبيعة في « المنح والاستعاضة » ، وقياس مع الفارق البعيد على ما نشاهده من حال بعض النوابغ الذين يضطرب ميزان كيانهم . فترجح كفة عبقريتهم نظيرتها الجسدية . والعلة في خطإ هذا الدليل كامنة في اختلاف اساس القياس . اذ ان السوبرمان لن يتطور بأحد شطريه متخلفاً بالآخر عن النهوض واللاحقة في نفس الميدان ، بل سيستفيض

من جسمه جسداً آخر مختلف الخصائص والوظائف كما سبق البيان وسيكون هذا الكيان المادي كفيلاً بحمل ما قُدِّر ان يستقر في عُمْقه من قبة العبقرية الذهنية المشخصة

وسيتعهد هذا الكيان الجسدي عوامل مختلفة من نواحي التربية والفسيولوجيا وغيرها. بيد انها اللتام ما يعالجه العلم من بذل الجهد والتجارب في هذا السبيل . بل اننا نلمح من الآن نواة هذا التطور المنتظر : — فأمامنا نظم التربية في دول كثيرة كألمانيا وايطاليا وتركيا تتجه بوجه خاص نحو الاعداد الرياضي لتقوية الابدان وتنميتها وتمريسها بالقيام بوظائفها على اكمل اسلوب يفي بالغرض المرتقب . وأمامنا كذلك تلك العناية التي ينبع وراءها البحث الحثيث لتحسين النسل وتهذيب النوع حتى نظفر بنماذج سليمة قوية لا تشوّهها العلل ولا يمسخها النقص في التركيب

وأمامنا امل فسيح الرحاب في ان يكشف العلم الحديث ما غمض في الجسم من نواحيه الفسيولوجية ، كما كشف اخيراً عن « الغدد الصماء » ذات الاثر الحيوي في نشاط وظائف الاعضاء

ولا يزال في مضمار البحث متسع بعيد المطارح مترامي الآفاق . ولن تزال الهمة مبذولة لاستجلاء ما في هيكلنا الجسدي من استعدادات وخصائص كامنة : هي اما مجهولة الاثر واما راكدة يعوزها التطور لتنضج وتتجاوب مع نشاط واحد او آخر من الاجهزة العاملة . وما يدرينا ان يهتدي علم «الكيمياء العضوية» الى سر ما انغلق حتى الآن من خصائص المناعة وغيرها مما تتطلبه سلامة الجسم من المرض او دقة مكافحته على اهون سبيل وأسرع اجراء؟ ثم ما يدرينا ما تنقلب اليه البحوث الطبية من استغلال ما في كياننا الجثماني من ذخائر الكهربائية والمغناطيسية في سبيل فتح بديع جديد يأتي بالطوارق والمعجزات في علم الطب وطرق العلاج والنهوض «بحيويتنا» نهوضاً وثباً قد لا يأتي تصورنا على الغاية من اثره وخطره!

(٢) وحسبنا هذا القدر تأييداً لنظرية السوبرمان من الوجهة الجسدية . ولنعمد اذن لتناول ما يسوقه المعترضون من اوجه اخرى . فهم يزعمون ان مسألة التطور ان هي الا فرضية بحتة هيهات ان تتحقق . وهم يدللون على هذا الزعم بتخريجاتهم الطريفة لفلسفة « كانت » عن « الزمن » . فما دام « كانت » قد اثبت ان الزمن ليس له وجود مستقل او حقيقة ذاتية، فليسقط اذن في تقديرهم كل اعتبار يمكن ان يقوم لنظرية « التطور » . لان التطور يستلزم جسراً من « الزمن » [illegible] على غير اساس صحيح ، وايراداً على غير قياس صريح . ذلك ان فلسفة « كانت » ذات كيان «مطلق» لا يمكن ان ينضب في قالب ما نحن بسبيله من «النسبيات» . اذ القاعدة لدينا موجودة يخضع لحكمها « انسان العصر » و « السوبرمان » على حد سواء . لانهما يساهمان بنصيب متعادل فيما اصطلحت عليه « البشرية » من « اقية زمنية » هي وليدة ادمغتها وصنيعة ما جرى عليه تفاعلها وعرفها ، بل ميراث اجيالها وأطوارها على ظهر الارض ما بقيت

الارض تحمرها مظاهر الانسانية في مختلف عصورها وشتى صورها. وسيظل «التعاس الذهني» بأقيسة الزمن مستمراً قائماً ما قام «الانسان» على ظهر الارض «حيًّا»: لان الزمن «كائن تصوري» تمخض عنه «الفكر» تحت تأثير «ظرف مكاني» معين هو الموضع الذي تحتله الكرة الارضية في الكون كوحدة من المجموعة الشمسية

(٣) هذا ولقد أثار المتشائمون غبار اعتراض آخر في وجه نظرية السوبرمان. فلم يفلحوا في غير استثارة كوامن الدهشة لهم والاشفاق عليهم، رغم ما حاولوا أن يستروا ضعف حجتهم بطلاء خجول من رأي الفيلسوف «شوبنهور» أقحموه على غير مناسبته وفي غير موضعه: فهم يرددون معه أن «العقل لم يخرج من أيدي الطبيعة ليعلم حقائق الاشياء، بل ليرينا كيف نحصل على القوت ... هذه الوظيفة الحقيرة!!» .... لكن أنا الزعيم لهم أن «شوبنهور» لم يقصد الى ما لالفاظه هذه من دلالة سطحية .. وإنما ترجى أن يستنفر بأسلوبه الساخر هم الباحثين وغيرهم من «العقلاء» التأمل الدقيق المتغلغل الذي ينفذ وراء «القشور» الى أعماق «اللب» حتى يكون «العقل الانساني» قد أدى بذلك غايته العليا ولم يعطل أداء مدخلق لتحقيقه والاضطلاع بأعبائه من أنبل المهام وأشرف المرامي

أما ان العقل أداة رخيصة كما يريدون أن يهبطوا بقدرها، فذلك ما تتميز به بالانسانية الكاملة التي تتنزه بطبيعتها عن الاسفاف الى هذا الدرك السحيق، وحاشاها أن تستوي «بعقليتها» مع سائر المخلوقات بل الحشرات الدنيا التي تلهمها «الغريزة» وحدها سبل الحصول على القوت .... تلك الوظيفة الحقيرة!! .... بلى! فهذه طبائع الواقع ومنطق الحقائق وخصائص التكوين تتحداهم أن يطلقوا على صروح سلطانها وعول سفسطتهم ذوات القرون الزجاجية الهشة المتهشمة؟.. ولسنا مجامدين عند هذا الحد السلبي من المحاجة والمقارعة وان كان فيها كل دليل مقنع: يسمو على أي تطلع: ويدق دونه كل مطمح .... فهاهي باحة «الايجابيات» مفتحة الأبواب فسيحة الرحاب، فليلجوها ليروا من آثار العقل الانساني العجب العجاب الذي يبهر الألباب: وليتفقدوا اذن كل ما أبدعه الفكر في نواحي نشاطه المتعددة من علوم وفنون وفلسفة وآداب.. وليتمثلوا كل أولئك ليعلموا بعد ذلك أن مثل هذا الانتاج الفياض يزخر بكرامة تستمد وجودها من مصدره عن أن يحبس كل ذاته على خدمة المآرب الحيوانية الصغرى، واشباع الحاجة الطبيعية الى الغذاء، فالانسانية تأبى بشرف مقاصدها ونبل جهودها، كما تربأ بها حكمة وجودها، عن أن تعيش وتحيا وتموت، لغير وجه البطون وجم القوت!!

وبعد: فما العقل في صميم غايته الا أداة تتأمل الحقائق الماثلة والصعود على أجنحتها الى عالم الاسرار القصية المجهولة: حتى اذا ما كشفها ثم عرفها، وضعها تحت تصرفه من وجهتين:

فأما الاول فهي استغلال النواميس الكونية لمصلحة الانسانية وفق حاجاتها المادية والوجدانية وأما الثانية فهي تنظيم أشتات هذه النواميس المتفرقة : بحيث يؤلف من حياتها عقداً : ومن أشلائها جسداً : ومن اجزائها واحداً فرداً ... فتتمثل له دقائق الوجود وحقائق العالم كما تمثلها جميعاً قوانين الطبيعة الخالدة التي شرعتها روح الوحدة الأزلية بحكمة أسرارها السرمدية ... وهو بعد مكتف بأعجاز الأثر ، عن الظفر بما يعز من امتكناه الجوهر ، وواجد عزاء الاقتناع وسلوى الاطمئنان في بعض ما هداه اليه بحثه . كالكهرباء التي ولد قواها وانتفع بمظاهرها : وان ابهظت كاهل ادراكه اعباء أسرارها ...

عندئذ تتجرد من خلال هذه التأملات مشكلة وجدانية تغمر جنبات اليقين بأشعة ضوئها : وتهتك حجب الحيرة امام الروح فتطمئن الى بارئها . بل ترقى الى فيض الانوار العلوية : تتزيد مما يتجلى عليها ، وتتزود بما يلهمها سبل الرشاد والتوفيق في حسن القيام بواجباتها نحو خالقها وما ابدع في الاكوان !

(٤) الى هنا وتنتهي المعركة بيننا وبين المعارضين لنظرية السوبرمان

فلننظر نحن في آخر حلقة من النظرية : لتكمل السلسلة وتنتهي المناجلة . ولنتساءل إذن : الى أي مدى يصل التطور بالقوة الأدبية لدى السوبرمان ؟؟ لاشك أنها ستنتعش وتنمو وتزدهر وتؤتي أكلها ثمراً جنياً شهياً ! ولسنا نسوق القول على عواهنه ، دون تدبر لمعنى ظواهره وبواطنه . بل أن الشواهد على صحته لتنطق بأجلى بيان وأنصع برهان . وها هي الانسانية فلنستعرض اطوارها وعبر سيرها : لنرى كيف انتقلت من حمأة الذلة والسخرة والعبودية : الى مكانتها العزيزة في بحبوحة الحرية والاعتداد بالكرامة الفردية ، ولنرى كذلك كيف تجاوبنا «الروح الادبية» في الانسان مع ما أحاطها من ظروف وملابسات : تفاعلت معها وتحدتها مادة لغذائها ، وصقلا جوهرها في بوتقتها ... أجل ! فلقد موتنها العلوم بذخائر المعرفة فتدرجت بسلاح التفهم لحقائق الكون والتقدير لذاتها . ثم أنارت لها الفلسفة السبيل الى تحديد الروابط وتصحيح الاوضاع وتنظيم العلائق : فعرفت لنفسها شرف قدرها في الوجود واستأنست لكرامة مرتقاها في الحياة .... ثم أهاب بها هاتف الوجدان اليقظ المتنبه : [illegible] تحت نير التقاليد البائدة : متطلعة الى مزاولة مهمتها في حياة جديدة : تقتسم فيها عبء «تقرير حقوق الانسان» وتستدفيء فيها بأشعة حارة منعشة من شمس الحرية والديمقراطية . . وشتان إذن بين راهنها الحاضر ، ومستقبلها الزاهر المنتظر على أوج الغاية من التطور : وبين ماضيها الكئيب المنحط : حين كانت في عهود الاقطاع : من سقط المتاع !!

السوبرمان على جناحي الزمن

والآن لمحة سريعة متعمقة متبينة : نجوس خلال حقب الزمان : لنرى هل تضامت دفت خاليه وجانبه على غير حفٍ قليل او كثير من أمثلة السوبرمان : جادت بها الطبيعة في صورة من الصور ؟ ولنرى هل بذلت الطبيعة هذه النماذج في سخاء المسرف المبذر : ام في شح البخيل المقتر ؟؟ .... أما في عصرنا هذا فان الانسانية لم تحرم من مظاهر امثلتها العليا . لكن أغلب الظن أنها امثلة متحيفة الاطراف : وان سمت خصائصها فرق مترامي الاطراف اوهاكم الناحية العلمية شاهقة بادهة في شخص «اديسون» و«ماركوني» و«ايفشتين» وغيرهم .. كما يتمثل الجانبان الفني والجسدي في شخص « ڤاغنر » .. ولعل « فاندي » أروع مثال للشخصية العامرة : بقيمتها الادبية الجياشة الواخرة : وجلال روحانيتها الساحرة المسيطرة : تلك الروحانية المتشحة بظلال الزهد والتصوف والغيرية : التي تستمد الرفد من بعض مناحي القداسة ونبل السمو في شخصيات النبوة ... والانبياء أبدع مثال للانسانية الكاملة التي حبتها العناية بنفحاتها السامية ... فلا غرو ان استووا امام الانسانية صراطاً مستقيماً للحق النير : ولا غرو ان انسكبوا على رأس الانسانية تاجاً من الكمال يتلألأ ويتوهج ! !

على ان العصور القديمة والمتوسطة قد استخلصت هي الاخرى من ربقة الطبيعة فلتات فذة من الابطال الذين امتازت بعض مقومات شخصياتهم بنحو جبار . سواء أكان ذلك من الوجهة الفنية « كرفائيل » ، او الجسدية كشجعان اسبرطة ، او الخلقية « كجان دارك » ، او العلمية كبناة الاهرام ، او الفلسفية كأفلاطون وسقراط والغزالي وابن خلدون . فالى مثل مواهبهم الطامية الطاغية يرجع الفضل في ازدهار الحضارة التي تفيأت الانسانية وارف ظلالها. وارتشفت من فرات مناهلها

والآن بعد هذه اللمحة على محيط الزمن ، في جزائر حاضره وساحل ماضيه الناأي . لنرجع البصر كرتين ونطلقه مرة اخرى الى شاطىء المستقبل البعيد المترامي . ثم لنهتك حجب الغيب وسجف المجهول بأشعة تصورنا . لنتبدى لنا ما ستثمره تفاعيل التطور في الشخصية البشرية والظواهر الطبيعية والحقائق الكونية : من « عالم سوبرماني » تسير فيه أجيال متتابعة من الانسانية الكاملة في أتم تكوينها وأبهج مثلها العليا

ترى أي نظام سيسلك الروابط بين الافراد والمجاميع ؟ واي مبادىء ستسود قواعد الحياة في الاصول والتقاريع ؟ ... لا مراء في ان الجواب على هذا السؤال الدقيق تستهدفه المجازفة بين حائطين خانقتين من الرجم بالغيب : وغياهب الغموض والريب . . لكن هذا الجواب مع ذلك هو النتيجة المنطقية لما اسلفنا من مقدمات التصور لشخصية السوبرمان ، وما تندعم عليه من خصائص تستتبع تقييد الكيان الاجتماعي على اسس صريحة وطيدة من التعاون البريء الصحي

الحال وفق ما ترسمهُ مبادىء الاشتراكية في أبسط نمط من التطبيق فستودعهُ الآن ذمة الخيال على ان الواقع المحسوس ينهض الاطمئنان الى تحقيق هذا الخيال : وان بدا ضرباً من المحال وها هي أدلتنا لا تزال تدوي فيها بين الحين والحين صيحات مستصرخة من حنا وهناك: تنشد التعاون بين الامم والتضامن بين الشعوب : نهوضاً بالانسانية من كبوتها : واقالة المدنية من عثرتها — وانا اعترف بما تنطوي عليه هذه الدعوة من جلال : وما لها من أثر قوي فعال . . ولكن في الوقت نفسه اعترف كذلك بما تنطوي عليه هذه المناشدة من دوافع منتكسة وغاية منعكسة . . فالسير « بريان » — مثلاً — كان يعرض في سبيل السلام مشروعه الخاص بالتعاون الاقتصادي بين جماعة الدول الاوربية لكنهُ لم يكن يبذل جهده — عن عمد او عن غير قصد — لوجه السلام حبًّا في السلام ! لان هذا النظام الجركي من شأنهِ ان يوقع الاضطراب في ميزان المبادلات التجارية الدولية كما تقتضيها طبيعة الاقتصاديات في العصر الحاضر ومن ثمَّ يتولد شرر الحقد والبغضاء : فتلتهب النفوس بروح المنافسة الموجاء : وتتقاطر زمراً الى ميادين الحرب الشعواء !

واخيراً لنستمع قليلاً الى « ولز » وهو ينشر في العالم رسالته ويبشر بالدعوة الى التعاون: منفراً من الحرب في نذر هلوع : وتحذير جزوع . . افلا نلفيهِ يستوحي الخوف والاشفاق من اهوال الحرب وغوائلها وفق ما يحصر جهده في دائرة التصوير لما ستكون عليهِ معداتها من فتك ذريع يعفي على كل أثر : فلا يبقي ولا يذر ؟ ؟ هلاَّ معناه يتناجى في دعوته بمعاني حب السلام المجرد كما تلهمهُ روح الحق والاخاء والمساواة ؟؟ كلاَّ ثم كلاَّ !! ولماذا ؟؟ ذلك لان الانسانية لم ينضج بعد استعدادها لقبول هذه المعاني واستساغة مبادئها . . وهيهات لهذه المبادىء السامية ان تثمر الاَّ اذا صادفت تربة خصبة كريمة في نفوس نجيبة مثلية مغذية . تتوافر فيها عناصر المثل العليا للانسانية الكاملة الشاملة: كما تؤمل في « العالم السوبرماني » ان يكون : —

فلسوفه اذن تعني اعتبارات المسألة بالتلفزة واستخدام الطاقة الذرية . ولسوف تتآزر الثقافات وتتضافر اساليب الاداء الفكري . ولسوف يفيض الانتاج العقلي موارد الارزاق تترى : ولسوف تنمحي فروق الطبقات والجماعات . بحيث تتناحى الوطنية المحدودة الضيقة ، عن الانسانية المجردة المطلقة . ولسوف ينظم تجاوب النشاط بين افراد النوع وفق [illegible] من زينة التفكير وسلامة التدبير . فلكل من نفسه اذن وازع من الغيرة . ولكل من نفسه اذن دافع الى الخيرية . ترفرف فوق الجميع اجنحة خفية. لروح ملائكية موحية . تمجد الخير والحق والكمال والاخاء . ثم تهتف عالياً بمنادٍ يشق عنان السماء . « عاش السوبرمان على مدى الزمان . خليفة الله في الارض وآيته في الاكوان » !

ابراهيم مسلم
مدرس بالعباسية الابتدائية الاميرية

شم النسيم

مكانه من تاريخ مصر القديم

قلت في مقالي المعنون «أثر الأساطير في قصة خروج بني اسرائيل» المنشور في مقتطف أكتوبر الماضي ان شم النسيم بقية عيد كان يعيده الأقدمون لهاتور في رأس السنة لذكرى الخلاص . وكان من رأيي ان بني اسرائيل بعد طردهم من مصر عيدوه في الصحراء كشأنهم من قبل وان التمثال الذي صنعوه بهذه المناسبة كان تمثال بقرة لا تمثال عجل لان هاتور صاحبة هذا العيد كان يرمز لها بالبقرة . ووعدت القراء بمقال أثبت فيه هذا الرأي والآن وقد شارفنا شم النسيم بمباهجه ومسراته أنجز لهم ما وعدت

كان أول توت وهو مبدأ السنة المصرية يحسب منذ أقدم العصور من وقت اقتران الشمس بكوكب الشعرى وكانوا يعرفونه باسم «سوذس» لموافقة شروقه لابتداء فصل الفيضان لأن الفصول عندهم كانت ثلاثة : فصل الفيضان وفصل الزراعة وفصل الحصاد. وقد عرف بالرصد ان شروقه في خط عرض عين شمس يوافق ١٩ يوليو وانما اختيرت عين شمس لذلك لانها كانت دار الحكمة ومقر عبادة الشمس ومنها ولا ريب كانت تؤخذ الارصاد لضبط أوائل السنين . الا ان سنتهم كانت تنقص ربع يوم عن السنة الحقيقية فلم تكن تبدأ في موعدها المقرر الا مرة كل ١٤٦٠ سنة وهو جامع ضرب عدد أيام السنة في أربعة. وكانت المواسم والاعياد تختلف أوقاتها سنة عن أخرى . لكن عند ما كان الخطأ يتعاقب السنين يبلغ مبلغاً جسيماً حتى لتقع الاعياد في غير فصولها المقررة كان الكهنة لحرصهم على ضبط هذه الاوقات يرصدون الكوكب ويردون الأمور الى نصابها . وقد وجدت شذرة من رسالة مؤرخة في السنة المائة والعشرين من حكم الاسرة الثانية عشرة وجهها أحد رؤساء الكهنة الى مرؤوسية ينبههم فيها الى ان عيد سوذس سيوافق اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن ويطلب اليهم اعتبار هذا اليوم اول توت . وقد ضبط تاريخ هذه الرسالة بالحساب الفلكي فوجد انه يوافق سنة ١٨٨٠ قبل الميلاد

***

خلا هذا التقويم على ما به من نقص الى ان ولي الحكم بطليموس الثالث الملقب افرجيت

الاول وكان محبّ لرعية مخلصاً للدين فاقترح الكهنة عام ٢٣٨ قبل الميلاد ان ينشئوا عيداً باسمه يتم اربعة ايام تباعاً لتكريمه لقاء ما انفق على الناس والمعابد من الخيرات وقرروا اصلاح التقويم بإضافة يوم الى كل سنة رابعة لتقع الاعياد في اوقاتها المقررة

ولما دخلت مصر في حكم الرومان امر اغسطس قيصر في السنة السادسة والعشرين قبل الميلاد بتعديله بحيث تتوافق شهوره دائماً مع شهور التقويم اليولياني فجاء اول توت موافقاً لليوم التاسع والعشرين من شهر اغسطس . وقد أسخط هذا الشعب المصري فقاوم التقويم المعدل زمناً طويلاً لكن طول زمن خضوعه لحكم الاجنبي أفقده العزة القومية وأضعف فيه روح المقاومة فغلب على أمره واستتب الأمر للتقويم الجديد . الا ان الشعب وهو من أشد الشعوب محافظة على التقاليد حرص على مهرجان أول توت وظل يقيمه في موعده القديم . ومع كرور الأعوام تنكرت معارفه للناس وغاب عنهم أصله فسمي شم النسيم لوقوعه دائماً في فصل الربيع

أول ما يدهني هذا الرأي إذ كنت أقرأ أسطورة من أساطير الاولين عن رع الله الشمس ربهم الاعلى وخلاصتها ان الناس تمرّدوا على الاله وخرجوا عن طاعته فوجّه اليهم هاتور لتنتقم منهم جزاء لهم بما كفروا . فانخنت فيهم وأعملت يد الهلاك . ولما أن رأى الاله من السماء ما حلّ بالناس عفا عنهم وبادر الى خلاص البقية الباقية منهم قبل ان تفتك هاتور بهم وذلك بأنه أمر النساء ان يطحنّ الشعير ويصنعنهُ جعة وأنفذ الرسل الى جزيرة الفيلة القريبة من اسوان فحملوا من هناك ثماراً ارجوانية وقرمزية يتخذ منها عصير أحمر مسكر هو النبيذ . ثم أمر رع فمزجت الجعة المتخذة من الشعير بعصير تلك الثمار فكان مزاجها شراباً أحمر بلون الدم . ثم أريق الشراب حيث وقعت المذبحة . فلما قدمت هاتور في الصباح لاستئناف المذبحة انحنت على الارض وولغت في الشراب وهي تحسب انه دم الخلائق الذي أهدرت فثقل رأسها ونامت فنجا الناس من بطشها وفتكها وتلقاء ما كان لهذا الشراب من فضل في خلاص الناس شرع لهم رع ان يشربوه كلما جاء عيد رأس السنة فريضة للذكرى

***

قرأت هذه الاسطورة فذكرتني الفريضة التي فرضها رع لذكرى الخلاص ما عليه الناس في عيد شم النسيم من عادة شرب الاشربة المتخذة من الشعير كالبوظة وهي ضرب من الجعة ولعلها هي التي تشير اليها الأسطورة والسوبيا ثم مازلت أجيل النظر في سائر التقاليد المتصلة بهذا العيد وأدمن الفكر في استنباط مراميها حتى اقتنعت انها بقايا تقاليد كانت للأقدمين في العيد الذي تحدثنا عنه الأسطورة

من الامور التي تسترعي النظر اتصال شم النسيم بعيد القيامة الذي يعيده المسيحيون لذكرى الخلاص على كونه لا يمتُّ الى هذا العيد بسبب وليس له نظير في غير مصر . وعندي ان هذه الصلة مؤيدة لمذهبي بانه كان في الاصل يعيَّد لذكرى الخلاص وقد وصل من ثمَّ بعيد القيامة لاتفاقه معه في ذلك . ومما يؤكد هذا ان كثيراً من العادات التي تمارس في الاسبوع السابق للعيد وهو المعروف عند المسيحيين بأسبوع الآلام كعادة أكل البقول المسلوقة في ايام الاربعاء والخميس والجمعة وعادة التكحل في يوم السبت لا مدلول لها عند المسيحيين من الآثار الدينية ولا رمز فيها الى الذكرى التي يحتفلون بها . لكن اذا امتحنت هذه العادات على ضوء الاسطورة التي نحن بصددها اتضح لنا انها ترمز الى بعض حوادثها

فاما أكل البقول المسلوقة فيراد به التنويه الى ما تولى الناس من الذعر في الايام الاخيرة قبل ان يستنقذهم رع وكيف انهم خرجوا من ديارهم لا يلوون على شيء حتى لم يكن لديهم متسع من الوقت لطهي الطعام فأكلوا البقول مسلوقة ليقيموا بها اودهم . واما تكحل النساء عقب تلك الايام فاشارة الى ان عيونهن قد رمدت في الليلة السابقة من السهر حيث فسيئها وهنَّ يطحنَّ حتى اذا كان الصباح وقد امتلأت قلوبهنَّ سكينة بما وعد الاله الناس من العفو جعلنَ الكحل لتبرأ

***

ومن العادات المستغربة في هذا العيد عادة شم البصل فكل والدة تحرص في شم النسيم أن تبكر بايقاظ ابنائها لتنشقهم رائحته . ومن الاقوال المأثورة في ذلك ان من تطلع عليه شمس هذا اليوم وهو في فراشه يلازمه الخمول طوال السنة

وفي ظني ان هذه العادة ترمز الى ما جاء في الاسطورة من ان الاله استحيا الناس في هذا اليوم وجعلهم كذلك اول الايام

وسبب اتخاذ البصل لهذه الغاية كون رائحته اول ما يتنشقه الوليد مع انفاسه الاولى . ذلك انهُ بما لهُ من رائحة نفاذة قوية كان ينشق للاطفال عقب ولادتهم لتنبيههم ولا تزال هذه العادة عند الفراعنة الى هذه الايام

لما رأيت ذلك تحقق الظن عندي بأن شم النسيم يرجع في اصله الى عيد اول توت في الزمن القديم . وايقنت اذ ذاك حين نشم النسيم اننا نحيي عيداً منسيًّا ونتنسم ريح الماضي البعيد ونبدي من أنفسنا ما لم تقدر العصور على اخفائه من الآواصر التي تربطنا بالجدود

أسيوط ناشد سيفين

ولز الاديب

محاضرة للدكتور ابراهيم ناجي في جمعية الشبان المسيحية

احدثكم الليلة عن ولز الاديب ، اي احدثكم عن عقل جبار ممتاز قليل النظير في تاريخ العقول الانسانية ! احدثكم عن عقل احاط بالماضي والحاضر وتغلغل في اعماق المستقبل. احدثكم عن ذهن عجيب اؤكد لكم اني لو اردت ان الخص بعض ما أنتجهُ لما كفتني عشرات المحاضرات. واني لحائر حقاً الليلة في اي النواحي اتكلم ؟ اي القصة وهو فيها قد اتى بالعجب العجاب؟ ام في التاريخ والطريقة التي ابتدعها في كتابته ، وهو اول من تكلم في العالم كاسرة واحدة... لا كام منفصلة وطوائف مستقلة ! ام في علم الحياة ، وقد اشترك مع العالم الشهير جوليان هكسلي حفيد هكسلي الكبير، في اخراج كتاب يعد من المراجع الشاملة الخالدة ؟ ام أتناول آراءهُ في علم الاجتماع وهو ميدانه الذي لا يجاريه فيه كاتب ولا عالم

ان ولز الاديب هو الذي يمثل الانسان والانسانية معاً بكل ما في الكلمتين من معنى . يمثل الانسان لان التعريف الكامل للانسان هو انهُ مخلوق يتميز بادمان النظر في الحاضر والماضي والمستقبل ، وهو يمثل الانسانية لانهُ وقف حياته على الدعوة للاخاء العام ، في خلق اسرة واحدة من امم متنابذة متطاحنة تخيم على آفاقها دائماً اشباح الحروب والويلات

﴿ميلاده﴾ ولد ولز في مقاطعة كنت بانجلترا سنة ١٨٦٦ .... فهو اذن قد قارب السبعين، ولكنهُ عمرٌ حافل بكل ما هو جليل وعظيم. هو الآن في الشيخوخة ولكنهُ لا يزال في عزم الشباب الحار المتوثب . فقد اخرج اخيراً كتاباً ضخماً تناول فيه الكلام في سعادة العالم وهنائه وثروته ولم يكد يظهر حتى نشر رواية جديدة Bulpington of Blup .... حصل ولز على شهادة B. Sc. في العلم في سن باكر. ثم اضطرتهُ احوال الحياة ومطالبها القاسية ان يعمل في محل صانع الاقمشة ، ثم صيدلياً ، ثم مدرساً حتى أصيب بنزيف رئوي كاد يقضي على حياته ولكنهُ كان المنحة التي وجهت ولز الى ما خلق له حقاً . فانهُ اضطر محافظة على صحته وحياته ان يشتغل بالتأليف والصحافة. وكثيراً ما كانت محن كهذه من البواعث على ظهور عظمة مستترة وموهبة خبيئة ، وما اكثر الكوارث التي كانت سبباً في ارتفاع الشخصية الكبيرة التي لا تهن ولا تتراجع !

وجد ولز نفسه مضطراً بحكم حالته الصحية ان يشتغل بالأدب . وهو يتميز عن كل

معاصريه وبفوقهم — يتميز عن هاردي وكبلنغ وشو ومع انهم من ناحية الفن الادبي البحت يتفوقون عليه — فان نظرته الى الحياة أرحب وعقله يمتد الى آفاق مترامية تكاد تصل الى الغيب

هو رجلٌ يغوص في لجج الحياة الى اعمق اعماقه ، يغوص حيث يقف الآخرون على الشاطىء ..

هو ذكاء اكثر منهُ شخصية هو شبه نبيّ يحمل رسالة للعالم ، يشرّع للناس ويبين لهم اخطاءهم ويشير عليهم كيف يتلافونها ، .... ثم ينزل الى مستواهم ، فيجلس اليهم مسامراً منادماً كاحسن وأصفى ما يكون الندمان والخلان !

﴿ ولز H. G. Wells ﴾

﴿ مميزات ادب ولز ﴾ ما قيمة ولز ؟ ولماذا هو خليق بالدرس وجدير بالتأمل ؟ ان اول ميزة له تضعهُ في القمة وتجعله نسيج وحده هي انهُ متصلٌ اتصالاً وثيقاً بالحياة الحقيقية ومندمج فيها اندماجاً تامًّا ! وما هو الادب ؟ الادب انما هو تصوير للحياة وتسام بها ، وكل ادب يخرج عن هذه الدائرة فهو ادب مصطنع مزيّف ! . . .

والميزة الثانية انهُ الاديب الذي يرمي الى غاية ، ويهتم بموضوعه ويعنى فيه ... ومع ذلك لا ينسى الوسيلة ، اي لا ينسى ان يكون فناناً يكتب باسلوب الاعجاز ويتخير لغة النجوم ! ولو انك جئت الى فنان كبروست او كبلنغ وطلبت اليه ان يكتب فيما يكتب فيه ولز ، في العمل والصناعة والتجارة والحراجز الجركية ، ... وان يؤلف قصصاً في مثل هاته النواحي ... والله لتعثر وظهرت فضيحته

فولز هو الاديب الوحيد الذي وسّع دائرة القصص ونوّع الاغراض ، وتنقل في شتى المواضيع ، وطرق ما لم يطرق من قبل ، فلم تعد القصة قاصرة على الحب ، بل تعدّت ذلك الى الموضوعات العلمية يبسّطها بقلمه الجميل وبفكره بذهنه الذكيّ ويبتدع فيها بخياله الوثّاب فيأتي باغرب التخيلات ومنها كثير سبق فيه العلم والاستنباط ، كل ذلك في جوّ سحريّ متصل باللانهاية

واتوافق انك اذا طرحت من ادب ولز ثلاثة ارباع ما يتميز به من اتصاله الوثيق بالحياة ، وما كتبهُ في العلم والاجتماع .... لبقي الربع الاخير كافياً لان يعود على عدة مؤلفين بالشهرة ويغمرهم غمراً . لقد وصف الحياة والحب والموت ورسم الجمال والزهر بما لم يرسمه احد . خذ مثلاً هذا الوصف البديع لحديقة يسمعك فيها لحن جوقة من الازهار

«لقد كانت الزهرات تتدفق وتتعانق كالحان الموسيقى العذبة . وترفع اليّ عيوناً كعيون الاطفال ، وسرى الى اذني غناء سحري من فم الزهر والاغصان والاوراق وفجأة سمعت من اعماقها اغرودة طائر وخفق جناح مرتاع »

على ان القيمة الكبرى في ادب ولز هي رسالته للعالم . انهُ يريد ان يلفتك امراً ، ويحمل اليك نبأ ويهمه ان تعي ذلك النبأ ، وتدركه وتتبصر فيه . فسوف يقرأ الناس ولز في كل زمان ومكان ناظرين الى المعنى الذي يريده والغرض الذي يرمي اليه ، والصورة التي يرسمها فيبدع في رسمها وبهذا سيخلد ولز ويعيش ادبه على الاجيال بينما يموت ادب بعض الآخرين ويبلى . ادبه هو صورة واضحة جلية بارزة ، وأدب الآخرين اطار بديع الصنع مزركش منمّق اما الصورة فغامضة قلقة مبهمة وسهلٌ جدًّا على الزمن ان يمحوها

على ان ولز فوق كل ذلك بعيد النظر الى المستقبل . فهو اختصاصي في التنبؤ بما سيكون ومن قرأ كتبه التي كتبها قبل الحرب يعجب جد العجب لانهُ وصف ما سيحدث وصفاً جليًّا دقيقاً وهكذا يصيح كما صحت نبوءته ألم « اقل لكم » . ولقد بلغ من صدقه ان اقترح بعض الظرفاء على الحكومة ان تعينه متنبيء العرش ! ما دامت تعين شاعر العرش Poet Laureate

على انهُ شخصيًّا يحب ان يذكره الناس كرجل توفر على درس الماضي . انهُ اعطى للتاريخ معنى غير ما كان له فهو الذي تكلم عن العالم كأسرة واحدة ، وهذه الوحدة هي امنيته التي يريد ان تتحقق اليوم . يريد ان يمحو الفوارق والاجناس ، ويمزق العصبيات ، ويقسم ان هذا هو الطريق الوحيد الى السلام !

على ان صدق حدسه عن المستقبل مبني على افهمه النادر للواقع ، حتى خاطبه احد ادباء فرنسا قائلاً :

«ان الذين يعرفونك يدعونك رجل احلام . ليسوا بمخطئين . فأنت تحلم بسرعة ولكنك تفكر بشكل مخيف : فأنت تفهم كل شيء دفعة واحدة واحاديثك السريعة المطبوعة بطابع العبقرية هي اضواء تخطف الابصار ولكنك تخطف الابصار بالفكر وهذا ما لم يتمّ لاحد

سواك . اي كاتب واديب كنت تغدو لو كنت اقل افكاراً وذكاء وعلماً ! »

لقد صار في زماننا من السهل اطلاق كلمة العبقرية على اي رجل يجيد الكتابة ولا يعنى بملبسه وانتظام حياته. فهذا الرجل الذي يبدع في وصف النساء والحرب والمدن والقسس واهل الصين ورجال المصانع والمعامل والحيوانيات، والذي يرى ما في سهول اميركا وحقول اوربا، ويرى ما تتجه اليه الانسانية ؛ وما يتدفق نحوه تيارها — الرجل الذي يكتب في كل هذا ماذا نسميه ؟ !

بعد هذه الالمامة التي اقدم بها الاديب ولز اليكم ، اجدكم في شوق لان تعرفوا موجزاً عن آرائه وتحيطوا ببعض من قصصه . فابدأ برأيه في حاضر الانسان ومستقبله ، ثم في العالم وحاضره ومستقبله ، ثم نختتم المحاضرة بموجز لبعض قصصه الرائعة

﴿ اهتمام ولز بالفرد ﴾ ان ولز يهتم بالفرد كما يهتم بالمجموع ، ولفرط ما انتقد وحبّس وغربل دعاه بعضهم متشائماً ، ولكنه ردّ عليهم ردّاً بليغاً في كتابه «انحياء العالم» Where the World is Going تناول فيه مستقبل الفرد وبنى ملاحظاته على قواعد علمية ثابتة . وخلص منها الى ان حياة الفرد اليوم — مع الضيق الشامل والازمات المتعاقبة — اسعد منها في اي عصر من العصور الماضية . وبيّن ان الانسان يتطور تطوراً بيولوجيًّا في السنين الاخيرة غير ملحوظ للذين لا يدققون ولا يبحثون ، للذين يعتقدون ان الطبيعة الانسانية ثابتة على مر العصور ! ونددّ بالذين يدعون الانسان للرجوع الى الوراء ، الى حضن الطبيعة ، الى ندي الام الطبيعي ! اما من جهة التطور البيولوجي في الفرد ، فتقرر اولاً ان الاحصائيات الجديدة في العالم المتمدين دلّت على ان طول الحياة الانسانية في ربع القرن الاخير قد زاد نحو اثني عشر عاماً في المتوسط ولا يهمنا من هذا ان تطول الحياة الى السادسة والخمسين بعد ان كان المتوسط يقف عند ٤٤ وانما يهمنا ان الطفل يمكنه ان يعيش اربعة اعوام مقابل كل ثلاثة كان يعيشها في الماضي ، واذن يمكن للطفل في البيئات المتمدنة في المستقبل ان يبلغ المراهقة بسلام ، ولنتذكر ان احصائيات المواليد هي خمسون لكل الف ، وان ٣٠ من هؤلاء الخمسين يموتون في سن الطفولة او المراهقة . والنقطة الثانية في التطور البيولوجي ان الحياة الانسانية كانت قديماً حياة جنسية تناسلية محضة . لم يكن امام الرجل غير ان ينشىء عائلة وينجب نسلاً . لم يكن امامه غير ان ينشىء العائلة ويشقى لها ويحمل اعباءها ، يفرح بالمولود ، ويبكي على الميت ويدفنه ، ثم يبدأ من جديد . تلك حياة الهرة المخصبة الانتاج . ولكن التناسل اليوم ليس الكل في الكل ، بل تسمعون صيحة تدوي في كل ارجاء العالم ، تحض على تحديد النسل . وحين يتكلم ولز عن السلام في العالم ، فيدعو الى محو الفوارق . والاجناس ، وتغيير الحكومات ، يعود الى موضوع تحديد النسل ، ويؤكد انهُ لا سلام للعالم بغير العناية بهذه المسألة الخطيرة

لم تعد العائلة هي الكل في الكل، بل اصبحت دوراً خاصًّا في دائرة اوسع ، تتخطاها الحياة الانسانية وتتجاوزها . لقد كان الرجل يبكر في تكوين العائلة، وينهكه القيام بكل مقتضيه ثم يتهدم ويعطب بسرعة . تسقط اسنانه ويكلُّ بصره ويذوي ويمضي الى القبر . تلك كانت القصة كلها . اما اليوم فماذا نرى ؟ نحن في حال جديدة . الرجل لا يبكر الى الزواج كما كان يفعل قبلاً ، وفي حياته امور غير الامور الجنسية والرغبة الجامحة . واذا بلغ المشيب استعان بالطب والاطباء على الضعف والخور

والواقع ان هؤلاء امكنهم بكل يقين ان يصبنوه على ان يكون في مشيبه في حالة لا بأس بها من النشاط والصحة ، واذن فالذي هو حادث والذي ينتظر ان يكون في المستقبل انه بدلاً من ان يبدأ الرجل في تكوين العائلة وحمل مسئولياتها والقيام عليها وهو في سن غض ، ثم يذبل في سن مبكر بعد ان تلتهك قواه وتتحطم من دون ان يجد حيلة في الهدم وعجز المشيب ستكون الحال ان يأخذ الرجل — وقد اخذ فعلاً — في تكوين العائلة في سن مناسب ، ولن يحصر قواه التناسلية في الانجاب ، واذا شاخ وجد من اطباء الاسنان والعيون ، والاطباء الذين همهم اعادة النشاط والشباب بواسطة العلاج بالغدد ، سيجد من كل هؤلاء من يصد عنه العطب السريع والذبول المهلد ، .... اذن فنحن سنترك حياةً منهوكة بها شبه حمى الى حياةٍ اكثر استقراراً واوفر نضجاً ، الى عمر اطول واشدَّ حيوية ونشاطاً

هذا فيما يختص بالتطور البيولوجي للفرد ، اما فيما يختص بسعادة الفرد فان ولز أشد تفاؤلاً . نعم ان الفرد اليوم اسعد منهُ في أي وقت آخر ، من بدء حياة الانسان على الارض الى يومنا هذا . هو أسعد رغم كل القوى التي تعترض هناءتهُ وتعوق تطوره ، وهذه القوى موجودة حقا ، وكثيرة . يقول المتشائمون اننا شذذنا عن حضن الامّ الطبيعة فعوقنا واقينا جزاءنا ، وهو قول منقوض من اساسه ! الام الطبيعة ، تحلمون بها حينما تتفرجون على التلال العظيم والجبل المنيف والصخر الأشم ! تفرحون بها وتتخيلونها في الربيع الزاهر والنجم المتألق والقبة الساحرة ، ولكن تعالوا اليها حيث تتجمع المخلوقات ، تعالوا اليها في الغابة ، هي قسوة وفوضى . هي مراد وشهوة . هي جوع وخوف . هي كين وشرك . هي كلمة القتل تهمس في الأرواح . وتتقاتل في الغابة ، وتتردد في الأدغال ! ان اهمَّ ما يشقى به الحيوان هو ضعف الذاكرة وقصر البصر ، واهمُّ ما يسيطر عليه الغريزة الجنسية ، وما الغريزة الجنسية غير عذاب وقلق . غير لذة مخيمة يختلط بها خوف ويظللها كئيم قاتم !

هذه هي الحياة في الطبيعة ! عمل مفكك غامض حتى جاء الانسان فوصله وجمعه واحكم نسجه

ثم ان اولئك الذين ينادون بالرجوع الى الطبيعة بغية الصحة ، يحسبون ان الحيوان معافى من العلل . ولو أنهم قرأوا التاريخ الطبيعي لعلموا أن الامراض جميعها كانت متفشية تفشياً مريعاً .

فان صيادي القبيلة يقتفونهم بواسطة الأصوات التي تحدثها امعاؤهم من كثرة الغازات ، وحياة البر ليست الا سلسلة من جوع فظيع الى شبع بلا راحة ، وهل كان الانسان الأول غير مخلوق شبيه بهؤلاء ! مخلوق يتحكم فيه الجوع والخوف والغريزة الغشيمة . . . . والذين يقرأون عن التطور يعلمون ان اغلب العظام التي تركها الانسان الاول هي عظام مريضة

والواقع انك لا يمكنك ان تضع اصبعك في أي عصر من عصور التاريخ مهما كان زاهياً جليلاً لتقول ان الفرد هنا كان اسعد من الفرد في عصره هذا ! حتى الكتاب الى عهد قريب ما كان يعنيهم الفرد وقليلٌ جداً منهم من عني بوصف حياته اليومية . . . . والذي اهتم بتصوير عيشة الفرد رسمه منغمساً في الجهل والمرض والظلمات

وفي ازهى عصور التاريخ — سواء عهد الرومان او المصريين — كان الفرد سخراً . وما الاهرام ، وما المشيدات الرومانية الفخمة الا بيد الفرد المستعبد المسكين المرهق

على انه في منتصف القرن التاسع عشر فقط ، وعلى أثر المخترعات العلمية ، وعلى أثر التطور والتقدم الحديث في المعرفة ، اخذ يطلع على العالم فجر جديد ، فجر يبشر بزوال تسخير الفرد وارهاقه . فأخذ يعرف طعم الراحة ، وزال الرق وتحسنت الصحة العامة وقلت الوفيات !!

وعلى رغم العوائق التي تعترض تقدم الانسانية ككتلة العوائق التي سنبينها فيما بعد ، على الرغم من كل هذا فان الفرد ارغد حالاً ، وسيطرد الرخاء والرغد في المستقبل . ثم يصيح ولز : اذن فاعلموا اني متفائل : أرى الفجر يقترب وارى البشائر في حواشي الافق !

﴿ولز والعالم﴾ علمتم رأي ولز في مستقبل الفرد ، وقد تبين لكم عمق بصره وحدة ذكائه اما في ما يختص بآرائه في العالم فهي اعظم شأناً واكثر جدة وطرافة ، ومنها تتبينون اموراً لفتها المضللون في اثواب من الزور ، وطلوها بطلاء كاذب ، فاذا اردتم ان تناقشوا العصر وتقفوا على دخائله ، اذا اردتم ان تعلموا شيئاً عن حكومات العصر ، وعيوبه ومن أين نشأت . . . . وعن النظام المالي ، وعن شبح الحروب المهددة للعالم ، اذا اردتم ان تعرفوا ذلك بوضوح فعليكم بولز . وقد قال احد كبار ادبائنا انهُ لم يفهم الاشتراكية الا بعد ان قرأ كتاب ولز «عوالم جديدة عن عوالم قديمة» New Worlds for Old . وقد اجتهدت ان اغرف لكم من البحر الزاخر الغني بالدرر فعذراً اذا قصرت فقد اخذت على عاتقي مهمة تنوء بها الهمم

نحن في عصر الديمقراطية . والديمقراطية متأصلة في نفس الانسان من اول نشوئه ، ولكنها لم تأخذ في سبيل التحقيق الا في القرن السادس عشر . في ذلك العهد بذرت بذورها وفي العصور التالية نبتت ونمت ، وفي عصرنا ازدهرت ، وليست فكرة الديمقراطية فكرة سياسية فقط بل هي تتناول الأدب والفن والموسيقى

ماذا نعني بالديمقراطية ؟ الواقع ان اغلب الناس حتى المفكرين منهم يلتبس عليهم ادراك

معناها الحقيقي ، وكيف هبطت اليها ، ومكانتها تيوم . ان الديمقراطية ترمي الى غايتين

(١) كل الناس متساوون تحت عرش الله

(٢) كل الناس متساوون في نظر القانون

ومعنى هذين بكل وضوح انهيار النظم المالية المتحكمة ، وتحدي الاستئثار والسلطة ، ومعنى هذين أيضاً انفصال الفرد عن كتلة المجموع ، وتحرره منها وشعوره بذاتيته ، والاعتزاز بنفسه كشخص حرّ له ان يحب ما يشاء ويصنع ما يشاء

اما في السياسة فتعلمون ان الحكم اصبح دستوريا ، معتمداً على اصوات الافراد الانتخابية

أما في الادب فبعد ان كانت الرواية تعنى بالمجموع ، وتتكلم عن الملوك والامراء والابطال والديانات وما اليها ، اصبحت تعنى بخلق الفرد وحياته وتحلل ميوله واهواءه ومعيشته . ولا شك ان اكثركم قرأ رواية « دون كيشوت » الشهيرة ففيها بوادر السخرية بالارستقراطية والتمرد عليها ، وان في انتصار الطاحونة ، التي هي ملك للعامل البسيط ، على البطل المدرّع ، لرمزاً جديراً بالتبصر . وخذوا مثلاً روايات الادباء جبارة القرن التاسع عشر كزولا وبلزاك وديكنز وترجنيف تجدونهم يصورون العالم كسوق كبير فيه البائع والشاري كل يعمل لحاجته ، حرًّا منفصلاً وهو مع ذلك متصل بالانسانية الكبيرة اتصالاً لا يغير شخصيته ولا يمحوها

وكذلك في الفنون : فقد كان الفن يعنى بتنسيق عمارة ضخمة ، او النقش في هيكل ديني او خدمة نزعة سياسية ، وكانت الموسيقى مقتصرة على ألحان دينية ، او ألحان تطرب الملوك وتستثيرهم ابطالهم وجنودهم في ميادين الحرب والقتال . لقد تغير كل ذلك واصبح كل فنان يعمل كما يهوى ... حرًّا طليقاً كالطائر الباسط جناحيه حيث تسهويه اجواز الفضاء !

إذن ... فان الديمقراطية هي انفصال . هي تجزء ، هي انطلاق ذرات كانت ثابتة في هيكل السياسة والآداب والفنون . . ويجوز لنا اذن ان نسميها الديمقراطية التحليلية . . ومن المتناقضات العجيبة ان يقابلها في نواح اخرى نظام تركيبي ، وبخاصة في العلوم . فلقد كانت الحقائق العامة منفصلة لا انتظام بينها فأصبحت هذه الحقائق خاضعة لتجارب تحققها وتنظم عقدها حبة حبة

قلنا ان الفرد قد انفصل عن كتلة المجموع واصبح معتزًّا بنفسه ، ثائراً على التقاليد القديمة فاذا جرّ عليه اعتداده بنفسه ؟ جرّ عليه امرين ، الامر الاول اضاله في حدود بلاده ضد ما بقي فيها من آثار التحكم والقوة ، وانضمامه خارج بلاده معتزًّا بما يسميه بالعصبية القومية ، فخوراً بنعته مدافعاً عن وطنه بلا حساب .... ولكن من العجيب انه وهو في هذا الانفصال والتحرر يتطلع الى المشروعات الاقتصادية المركبة الضخمة التي تحتاج الى جهود متجمعة اي ان الديمقراطية التحليلية تؤدي عن غير قصد الى نظام اقتصادي مركب . . . . . وهنا

يعطي الفرد من جديد بالروس التي تريد ان تتزعم ، وتدير العمل وتتحكم فيه ، ومن هنا نشأت فكرة الاشتراكية فما الاشتراكية مهما تختلف الآراء فيها الا نظاماً يراد به بث الديمقراطية في النظام الاقتصادي ، كما بثت في النظام السياسي ، او بعبارة اخرى ان ينقل الحكم في عالم الاقتصاد من رأس يتحكم فيها ويديرها الى جماعات من نفس العمال ، او من قوم ينتخبهم العمال. فالديمقراطية التحليلية امرٌ جميل جليل ولكنه يمتدُّ ويتشعب في غير حدود ولا نظام . على ان شعور الفرد بنفسه وكرامته وقوميته في كل امة جعل شبح الحرب دائماً ينذر ويهدِّد ، وان كل فرد في سبيل المغامرة المالية لنفسه جعل النظام المالي مضطرباً قلقاً والاصطدام بين العمال وأصحاب رؤوس الاموال ، جعل النظام الاقتصادي متداعياً على وشك الانهيار ، وتلك هي المشاكل الثلاثة التي تواجه العالم الآن . وهي كما تبين لكم ايها السادة منشؤها ديمقراطية تحليلية ، تتشعب وتمتد وتطغى بلا حد ولا قوام

بعد هذا التفسير المنطقي المعقول لهذه المشاكل الحاضرة نريد ان نسمع من وز طريقته في العلاج . ما دام قد شخص الداء ، يقول هذا الطبيب المشخص لعلل العالم اننا لا يمكننا بالطبع بحال من الاحوال الرجوع الى الاساليب القديمة والنظم العتيقة ، ولكننا في حاجة الى اصلاح هذه الديمقراطية التحليلية ، وايجاد ما يسمى بالديمقراطية التركيبية Synthetic Democracy

ان الحكومات الحاضرة في نظر وز غير صالحة ، ان الزعماء الذين يصلون الى مراتب الحكم معتمدين على صوت الفرد ، جلّ همهم أن يرضوه ، وأن يصلوا ... وهم لا يصنعون شيئاً ينفعون به سلام العالم ، انما هم يجتمعون ويتكلمون ويؤدبون المآدب ولا يقومون بعمل جدي . فوز غاضب على السياسة ، غاضب حتى على أمته ، غاضبٌ على الاستعمار ، يود أن يفتح عينه ويغمضها ، يرى مقاعد الحكم وقد خلت من هؤلاء ، وجلس عليها قومٌ ينظرون بعينهم لا الى امهم فقط بل الى العالم كاسرة ، ولا يتعصبون لمواطنيهم وذوي رحمهم بل يتعصبون للاخاء العام ويصلون لمحو الفوارق وهدم الحواجز الكاذبة التي تفصل بين امة واخرى وبين شعب وآخر !

يريد ان يرى في كراسي الحكم قوماً متطوعين ، مستعدين لان يموتوا في سبيل اغراضهم وما اغراضهم هذه غير ان تنتهي الحروب ، وتخلق وحدة اقتصادية كبرى تشمل الدنيا ، ووحدة مالية تحفظ العالم من الخراب والدمار ! هذا ما يقصد وز بالديمقراطية التركيبية ، في كتابه يوتوبيا الجديدة ، التي يتخيل فيها المدينة الكاملة والحكومة المثالية ... يريد تعاضداً وتسانداً في الحكم والاقتصاد والمال .... ويقول انه ليس يحلم وانه يرى في الافق طلائع مقبلة تميزهم وتؤكد وجودهم وان حسبهم عنا الغبار الذي تثيره حوافرهم

***

هذه بعض آراء وز وتنبؤاته ألا تجدونه جديراً بالاجلال ، جديراً بان تقرأوه وتلتفتوا اليه؟

﴿ دار القصص ﴾ الاديب دار قصص بديع ، كتب في جميع الاغراض وتناول كل الشؤون ، وجوّد في القصة القصيرة كما ابدع في القصة الطويلة ؛ وكل قصصه جيد وممتع ؛ بحيث يحار الانسان ماذا يلخص وماذا يترك ! ولقد اجمع النقاد على ان احسن قصصه القصيرة هي قصة «صانع المعجزات» وقد اتفقنا هو نفسه عندما دعي لان يختار احسن قصصه ؛ ولكني وجدت قصة « قلب الام وينشلزيا » اجمل واظرف وسأبدأ بتلخيصها لكم . . .

الس وينشلزيا فتاة جميلة راقية تدرس في احدى الجامعات اصطحبت صديقتين لها في سياحة الى روما . وينهم من سياق القصة ان الفتاة هي وصديقتها جمالاً وثقافةً ومالاً وجاهاً . يقطعن الطريق في دعابات وحوار ، فكلما رأين شيئاً ضحكن وسخرن في مرح وجذل . الى ان وقف القطار ساعة في محطة من المحطات فصاح صائح يدعو شخصاً لم يرينهُ باسم غريب ضحكن له واستغرقن في الضحك: هذا الاسم بالانجليزية هو Snooks يقابله عندنا جُعْلص مثلاً فتضاحكن وتخيلت كل واحدة انها حبيبة او زوجة لشخص يدعى بهذا الاسم وكلما افتكرن في هذا أغرقن في الضحك. حتى بلغن روما . فصرن يتنقلن بين آثارها وهياكلها العظيمة ، ففي اثناء طوافهن تعرفن الى شاب مثقف جميل وسيم صار يطلعهن على ما لا يعرفن ثم ينصرف في ادب ووقار تام . وصار الحظ يجمعهن به مراراً فتعلقت به وينشلزيا ، ورأت انهُ يبادلها عطفها .... حتى خلت به مرة وأخذا يستمدان لحديث اعمق ، ويهمان بان يبوحا باسرارهما ، ، فاذا بصاحب له يناديه عن بعد « انت هنا يا جُعْلص » فبهتت الفتاة ... وكأنما اسدل بينها وبينهُ حجاب كثيف وتنكرت له من ذلك الوقت ؛ تنكرت لاسمه الذي لم يعجبها ... ولكنها راحت تفشي سرها لاحدى صديقتيها : وتقول لها اذا عدنا الى وطننا فاتصلي انتِ به واكتبي اليَّ .... وفي انكلترا تتصل به « فاني » ... و«فاني» هذه فتاة ضخمة لا تصلح لغير الطبخ والكيّ ، اي لا تصلح لفتى مثقف مهذب جميل

المهم انها اتصلت بصاحبنا ... ولكنها لم تكتب الى صديقتها عنهُ غير كلمات قليلة لا تشفي غليلاً ... الى ان ارسلت اليها خطاباً ذات يوم تخبرها فيهِ انها تزوجت «جُعْلص» . . . وعلمت انهُ مرضاة لخاطرها قد غيَّر اسمهُ ... فانهارت آمال وينشلزيا اولاً لان صديقتها خانتها، وثانياً لان العقبة التي تخيلتها كبيرة : عقبة الاسم كانت غاية في البساطة ، وثالثاً لان فاني هي الوحيدة التي لا تصلح زوجة لذلك الرجل

على انها تعللت بالمحال ، وتوقعت ان يحصل بينهما خلاف ، فلم يحدث ، فزارتهما في منزلها فرأت ما زادها حسرة وألماً . وجدت الحبيب المثقف الرقيق قد سمن وتكرش ، كلّ شيء في الادب فلم يذكر حرفاً ، وفي الفن فلم يفتح فمه ، لمحادثتهُ في الاكل فاندفع كالسيل ...!

﴿ صانع المعجزات ﴾ كان المستر فوندرشجاي حتى الثلاثين من عمره ممن لا يؤمنون

بالمعجزات . وهو صغير الجسم شديد سواد العينين يشتغل كاتباً في احد مصانع الدراجات

فذات ليلة اجتمع بصاحب له في بار لوتج دراجون وما لبثت المناقشة ان دارت بين الصديقين حول امكان حدوث المعجزات او استحالته ، فصاحبنا فوذرنجاي متصلب لا يقبل ان يستمع الى مثل هذه الخرافات ، وصاحبه شديد الايمان بها . وثارت المناقشة حتى صاح فوذرنجاي مشيراً الى المصباح الكهربائي الذي ينير الحانة : اتظني لو حصرت ارادتي واشرت الى المصباح بقوة الارادة وامرته قائلاً « انقلب ايها المصباح رأساً على عقب على ان تظل مضيئاً » أتتحقق مثل هذه المعجزة . فلم يكد ينتهي من قوله حتى انفصل سلك المصباح المعلق من مكانه في السقف . وانقلب كما امره . اما هو فوقف باهتاً . واختبأت فتاة الحانة مرعوبة ، وفرّ بعض الرواد ولم يطل هذا المنظر غير ثوان صاح بعدها فوذرنجاي « النجدة النجدة ! ان قواي لا تستطيع ان توقف المصباح على هذه الحال طويلاً ! اني اشعر بالعجز » . قابلت المصباح ان وقع فعطل وساد الكل ظلام دامس ! واخذ الجلوس يلومونه لوماً شديداً على جنونه هذا واقترحوا عليه ان يسرع بالانصراف ففعل ! ووصل الى حيث يسكن مفكراً مهموماً لا يصدق ما حدث . فارتمى على فراشه بملابسه يفكر . وخطر له من جديد ان يجرب قوته الخارقة في الشمعة المضاءة . فحصر ارادته وقال لها ارتفعي من مكانك وانقلبي وظلي مضيئة . . . . فكان في الحال ما اراد . ثم أمرها بالنزول فسقطت مشتعلة واحرقت الغطاء . . .

فعرف ان الله حباه قوة غير عادية ... واخذ يجرب من جديد . طلب ان يهبط عليه عود ثقاب . فرأى بصيصاً من الضوء وعود ثقاب يقع في قبضة يده . وشعر بالظمأ فامر بورقة ان تصير كأس ماء ، فكان له ما أراد ، ثم خطق على هذه الطريقة مشطاً ثم فرشة اسنان ...

وأراد ان ينام من دون ان ينفق جهداً ، فامر ملابسه بترك بدنه ، وبحذائه بخلع ، وامر لنفسه بقميص من الحرير ثم امر نفسه بالنوم العميق والاستيقاظ في ساعة حددها

وذهب الى عمله في اليوم التالي مضطرباً كمن يكتم سراً ويحمل أمراً عظيماً ، وانصرف في المساء ، ومشى في شارع قليل الضوء مفكراً يضرب بعصاه الارض فخطر له فجأة ان يصنع معها ما صنع موسى بعصاه .... ان يقلبها حية تسعى . ولكنه خشي العاقبة . فامرها ان تستحيل « زهرية » فاستحالت ، وان تعود عصا كما كانت فلم ترفض له « [illegible] ليث ان ... ضجة ورجلاً من المارة يتقدم اليه في الظلام سائلاً شاتماً لان العصا في حركتها اصابت ذقنه فأدمتها .... وجاء على الضجة الكونستابل رونش ولامه كثيراً على اعماله الجنونية وذكّره بفصل الحانة ليلة امس ، وانه كان حاضراً كل شيء . ومازال يسبّه حتى ضاق به صاحبنا ذرعاً فصاح به « إذهب الى جهنم » Go to Hell . فلم يعد هناك كونستابل ما . ذهب رونش راح حقيقة الى جهنم ! فازعج فوذرنجاي وانبه ضميره على ارسال الكونستابل الى جهنم ، وشاء

مخافة عقاب العقاب عنه فأمره بالذهاب الى سان فرنسيسكو

وذهب في اليوم التالي الى الكنيسة ، وخطر له ان يخبر راعي الكنيسة بما وهبه الله ، فانتظر حتى انتهت الصلاة ، وزاره في بيته ، وباح له بكل شيء ، وامر اليه نفسه على ما فعله بالكونستابل رونش ، وانه بعد ان نقله من الجحيم الى سان فرنسيسكو لا يزال ضميره يؤنبهُ اذ ماذا يسمع الكونستابل المسكين في ذلك البلد النائي السحيق . فطمأنه القسيس واخبره ان الله اختاره والله يختار مايشاء ، وطلب اليه ان يعرض «العاهة» . فنظر صاحبنا الى علبة التبغ قائلاً كوني وعاء مملوءاً بزهر البنفسج فكانت ، ثم قال كوني صحن سمك فكانت ، .. وهكذا. فطرب القسيس وآمن ،ودعاه للعشاء معه .. فشكا القسيس اليه كسل الخادمة ، فقال فورذنجاي انك سترى عجباً . وامرها امراً خفيًّا ان تقلع عن الكسل ، فسمعوا في الحال صوت الاطباق والمعالق وحركة جيئة وذهاب ونشاطاً غير معتاد ، . . . . لقد استيقظت الخادمة من نومها العميق ، وهي تهيء طعم العشاء في اهتمام لم يره القسيس ولا أحد من قبل

وطاب للقسيس ان يستغل هذه القوة الخارقة في اصلاح الناس ، فكان يدور بصالح المعجزات في الحانات وبؤر الفساد . فاستحالت الخمور ماء ، وانمحت الجرائم ،وصلح الاشرار ، وكثر الابرار

وذات ليلة سهر فورذنجاي مع القسيس حتى الساعة الثالثة صباحاً ، فخطر للقسيس ان يجرب صاحبه من جديد فاشار اليه ان يأمر الزمن بالوقوف والارض بان لا تدور فوقف واستجمع كل عزمه وصاح «أيتها الارض قفي عن الدوران» . فوقفت الارض كلها ووجد الرجل نفسه يطير في الفضاء بسرعة مليونين ميل في الثانية ... فحاول ان يستجمع قواه ويأمره بالعودة فخانته قوته .فشحذ عزمه وامر الكرة الارضية ان تعود الى الدوران وان يعود هو الى الارض سالماً

فدارت الكرة الارضية ، وعاد هو سالماً ، ولكن ماذا وجد ! وجد الزلازل في كل مكان ، والاعاصير تهب والمباني تتطاير والماء يتدفق ... فجمع ارادتهُ وقال « يا الله ! يا ايتها القوة العظيمة ... يا جميع القوى السماوية والعالمية اعيدي الحال الى ما كانت عليه .. وخذي مني قوتي الخارقة مقابل ذلك . اعيديني عاجزاً وانقذي العالم » . فلم تتم صيحتهُ حتى وجد نفسهُ جالساً في الحان ... والكأس العاشرة في يده ... يناقش صاحبهُ في امر المعجزات وينكر وجودها بتاتاً ... ويصيح كلاً . انها كلام فارغ ... انهُ يوجد معجزات

﴿ القصة الطويلة ﴾ اشهر قصص ولز الطويلة هي تونو بانجاي وكيبس واستيقاظ النائم وملم وليم كليسولد ومكيافلي الجديد. ولكنني اختار قصتهُ تونو بنجاي لانها شبيهة كل الشبه بما يحدث في مصر ... مصر التي يكثر فيها البنزول والكاتلويد ، ويثري فيها ثراء فاحشاً اصحاب هذه العقاقير . بينما يجوع اصحاب الضمائر ،يتمتع الدجالون بالرخاء واليسر ويترحون في اثواب النعمة

تونو بنجاي Tono Bungay اسم دواء اخترعهُ العيدلي الحقير السيد بوندريفو . رن

في اذنه نجاة ... فهمس به في اذن مساعده وابن خاله جورج : وصاح الا تجده كصوت القنبلة هذا هو تركيبه يا جورج انه مقو للاعصاب. وهذه صورة الاعلان وسوف نتفق على الاذاعة عنه المال الذي يخلصك من ابيك. لا تحتج بالضمير يا جورج ودعك من الفلسفة ودعني اعمل

وبعد ان كان دواء مقوياً تفرع منه مسحوق للاسنان ، وآخر مانع لسقوط الشعر ، وقنبرة ، وصابون ... وكذلك تدريجاً اختفت العناصر التي تكونه ... ومع ذلك صار مسير البرق والمهال المال ... وصار العم يزداد وجاهة وايماناً بذكائه وازداد كرشه الضخم تطبلاً وتكوراً وصار لنسمه شكل افواه العظماء : اذا صح قول فاليروذي ان اعيننا هي ما نحن اما الفم فهو ما نعبر اليه . وتعددت المشاريع وكبرت الشركة ... واتسم المعمل على لا شيء

واخذ العم يبتني قصراً ... واخذ جورج يتحبب الى فتاة غنية تدعى بياتريس ، ومن يقرأ قصة الحب بينها وبين حبيبها يؤمن بان وزر عالم تنمي من الطراز الأول : تقول له وقد خرجا الى الفابو والمطر يسقط رذاذاً اني احبك الآن لا لما فيك من مفاتن بل احبك باجمعك ، احب فيك شرورك وحمقك ، احب قطرات المطر على معطفك . ثم يوصلها الى منزلها فتقول له تعال : ادخل اني احبك الآن . ولكن الابله يجيبها نعم ولكني مضطر الى الذهاب... فتغلق الباب غاضبة وهي تقول « اذن فاذهب . »

وكل من قرأ علم النفس الخاص بالمرأة يعلم ان المرأة غير مستعدة لان تهب نفسها الا في ساعة واحدة ترمي فيها بين ذراعي حبيبها وقد فقدت كل وعي . وهذه الساعة يعرفها وينتظرها كل «دون جوان» خبير ، ويمر على الغر الابله دون ان يلحظها

قلنا ان الثروة انهمرت كالسيل ، واستعملت في المشاريع الجديدة ؛ أي في نصيب جديد الى ان حدث ذات يوم ان كان العم متعباً مريضاً وفي عينه أثر الدموع ، وعلى وجهه ذلة ومسكنة . فسأله جورج عما به ، فاجاب لقد ذهب كل شيء ... ان الخراب والعار يهددانا .. انهم يحققون معي ، ويحللون الادوية ... ويسألوني عن الترخيص ، وليس لدي ترخيص . ثم يبكي كما يبكي الطفل وهما امام القصر الذي يعلو ويتطاول

يهربان في طيارة ويمرض العم وتشتد عليه الحال في باريس . وهنا فصل من اقوى الفصول في الادب على الاطلاق ، فبينما انت تعرف ان الرجل نصاب فاذا بك تشفق عليه وتجد الدمعة تترقرق في عينيك ، وتؤمن بقوة وزر الاديب لانه يجعلك تشعر انك لست امام الرجل النصاب يحتضر ، بل امام الانسان بكل ضعفه وعيوبه وعجزه امام المقادير والموت ، امام الآمال التي تتجمع ثم تنهار ، وامام العظمة التي تكاد تقبض عليها فاذا هي تتوارى كالشبح ، واخيراً امام الماء الذي تغني اليه ظامئين فاذا هو سراب يلمع في الصحراء ثم يختفي

وختاماً اوجه نظركم من جديد الى الاديب وزر فهو جدير حقاً بأن تنفقوا في درسه اوقاتكم

من الارز الى الزوفى

تأليف الميس كروفوت والميس بلدنسبرجر

بحث علمي لغوي بقلم الدكتور معلوف باشا

دفع اليّ صديقي رئيس تحرير المقتطف هذا الكتاب لأرى رأيي فيه فلما قرأت اسمهُ وما جاء في الصفحات الاولى منهُ لم احفل بهِ كثيراً لاني ظننته كتاباً يبحث في بقول فلسطين وأحاديث القوم فيها ولكنني لم اكد انتهي من قراءة فصل منهُ او فصلين حتى شعرت أني عاجز عن نقده لان عملاً مثل هذا يقتضي بحثاً دقيقاً في ما ورد في الكتاب من أنواع البقول المختلفة وفي اسمائها العلمية والعربية والانكليزية وهو أمر شاق يستوجب معرفة واسعة في علم النبات وعلم اللغة والعلوم الاخرى وهذا مالا قبل لي بهِ الآن . ولكنني قبل الدخول في البحث اقدم للقارىء الى المؤلفتين الفاضلتين كما عرفتهما من كتابهما لاني لم احظَ بمعرفتهما بالذات بل من فضلهما على العلم والأدب . فقد علمت من الكتاب ومن مقدمتيه ان الميس كروفوت هي التي كتبتهُ ورسمت الصور التي فيه بقلمها وجمعت ما جاء فيه من فوائد البقول الطبية مما ذكره ديسقوريدس وغيرهُ من القدماء .(١)

واما الميس بلدنسبرجر فهي التي قامت بجمع أحاديث القوم عن البقول وفوائدها الطبية والمنزلية واخبار زراعتها ونحو ذلك . ويظهر ان المؤلفتين تجيدان العربية فالميس بلدنسبرجر اقامت العمر في فلسطين وخالطت القوم حتى صارت واحدة منهم . والميس كروفوت اقامت زمناً في مصر والسودان وفلسطين وجالت في انحاء السودان مع زوجها . واذكر أني رأيت لها كتابين أحدهما اسمه «بعض أزهار الصحراء» والآخر «ماله زهر من النبات في السودان» وهما مزينان برسوم انواع النباتات التي وصفتها وذكرت اسماءها العلمية والعربية والانكليزية وقد استعانت في تحقيق الاسماء العلمية بمعرفتها الواسعة في علم النبات وبالعلماء القائمين بادارة

(١) ديسقوريدس عشاب مشهور ذكرت الميس كروفوت ان اسمه من عين زربة في كيليكية وانه أخذ كثيراً عن أهل البلاد التي على سواحل بحر الروم او البحر المتوسط. اما عين زربة هذه فواقعة الى الشمال من طرسوس وعلى عشرة اميال الى الغرب من نهر جيحان فتحها هرون الرشيد ثم حصنها سيف الدولة ثم فتحها الدمستق نقفور ابن النقفس . ثم صارت من اعمال ارمنية الصغرى وهي الآن قرية صغيرة يسميها الترك نورزة

معشبة بالحكومة في الخرسوم ومعشبة كيو في بلاد الانكليز . كذلك في هذا الكتاب فانها لم تأل جهداً في تحقيق الاسماء العلمية المذكورة فيه فالاسماء العلمية الواردة في هذه الكتب الثلاثة لاشبهة في صحتها وفي انها آخر ماوصل اليه علم النبات . أما الاسماء العربية فهي الشائعة على ألسنة العامة وبعضها فصيح او وارد في المؤلفات العربية . والمؤلفتان الفاضلتان لم تدّعيا الفصاحة في الاسماء العربية بل ذكر الاسماء كما هي تماماً وهي مكتوبة بحروف لاتينية بعناية تامة وفي غاية الدقة فلا يتعذر اعادتها الى العربية . اما الآن وبعد هذه المقدمة الوجيزة فاني أبدأ في نقد الكتاب

فالنقد على ما جاء في كتب اللغة والأدب مأخوذ من نقد الدراهم يقال نقد الدراهم وغيرها نقداً وتنقاداً ميزها ونظرها ليعرف جيدها من رديئها ومثله تنقّد وانتقد اي ان نقد وتنقّد وانتقد بمعنى واحد فالنقد والتنقاد والتنقّد والانتقاد معناه تمييز الجيد من الرديء لا إظهار العيوب وحدها كما هو شائع عند بعض الكتّاب . فاظهار العيوب سهل جداً ولكن نقد المؤلفات كما يفهمه الادباء ليس بالأمر الهيّن لان له أصولاً وقواعد يجب اتباعها وللعالم المحقق قسطاكي بك الحمصي مؤلف نفيس في النقد قرأته في دمشق سقى الله أيامها وأعادها الينا وإني أشير على كل أديب ان يقرأه فالنقد ليس اظهار المساوىء وحدها فهذا ذم ولا بيان المحاسن دون المساوىء فهذا مدح بل هو العدل في التمييز بين الجيد والرديء كما تنقد الدراهم

ثم اني قرأت هذا الكتاب اي « من الارز الى الزوف » من أوله الى آخره فاذا كله جيد لا رديء فيه لذلك يعدّ نقدي له تقريظاً وليس ذلك لان مؤلفتيه الفاضلتين من الشق المحسن بل لانه يستحق التقريظ والثناء فاني لو وجدت فيه عيباً لقلته ولذلك جعلت نقدي له بحثاً علمياً لغوياً لعل في ذلك بعض الفائدة للقراء فلخصت فصلين منهُ وذكرت ما ورد فيهما من النبات باسمائه العلمية والانكليزية والعربية كما وردت في الكتاب تماماً وعلقت بعض الحواشي بقلمي

في الفصل الاول كلام على السنة الزراعية في فلسطين جاء فيه ان السنة عند الزرّاع نصفها شتاء والنصف الآخر صيف فالشتاء عندهم يبتدىء في شهر تشرين الثاني أي نوفمبر وهو أول السنة الزراعية اما في سورية الشمالية اي الشام فأوله قبل ذلك اي في تشرين الاول (اكتوبر) وهو يوافق اول السنة العبرانية . ومن اقوال الزراع عندهم آخر السنة آخر الصيف واول السنة اول الشتاء وهم يريدون بالشتاء المطر فاذا جاء عيد لدّ اي عيد مار جرجس وهو يقع في ٣ — ١٦ من الشهر وقع المطر اما قبله او بعده بايام فاذا وقع في العيد استبشروا بذلك وقالوا اوسخت الدنيا من الوسم (الوسمي) اي أول المطر

قلت وجميع ما تقدم يوافق ما جاء في كتب اللغة (المخصص ٨٧:٩ وما يليه) فأول امطار

السنة الوسمي سمي وسمياً لانهُ يسم الارض بالنبات . اما قولهم في فلسطين ان اول السنة اول الشتاء فهم يريدون بالشتاء المطر كما تقدم . اما الشتاء عند العرب فالنصف الاول من السنة وأوله من حين انتهاء النهار في القصر وابتدائه في الزيادة وذلك لخلول الشمس برأس برج الجدي اي ما يعرف عند الفلكيين بالمنقلب solstice الشتوي ويقع في الحادي والعشرين من كانون الاول(ديسمبر)ويُعَيد عيد البربارة وآخره عند انتهاء النهار في الطول وابتدائه في النقصان اي ما يسمى عند الفلكيين بالمنقلب الصيفي وهو يقع في الحادي والعشرين من حزيران (يونيو) فهذه الاشهر الستة هي الشتاء عند العرب وهم يسمونهُ الربيع ويقسمونهُ الى ربيعين الاول منهما ربيع الماء والامطار والثاني ربيع النبات فالربيع الاول ابتداؤه اول الشتاء وآخره الاستواء الربيعي وهذا ما يسمى الشتاء في ايامنا والربيع الثاني من الاستواء الربيعي الى المنقلب الصيفي وهو المسمى ربيعاً في ايامنا لذلك يسمون الموصل ذات الربيعين اي الربيع الاول وهو ربيع المطر والربيع الثاني وهو ربيع النبات . اما الصيف عند العرب فأوله المنقلب الصيفي اي ٢١ حزيران (يونيو) وآخره المنقلب الشتوي اي ٢١ كانون الاول(دسمبر) . والصيف قسمان فالقسم الاول منهُ يسمى الفصل الصيفي والقسم الثاني يسمى الفصل الخريفي اي ان السنة كلها فصلان اي اربعة ارباع فالفصلان الشتاء والصيف والارباع اي الفصول الاربعة ربيع الماء والامطار وهو الشتاء في ايامنا وربيع النبات وهو الربيع عندنا والفصل الصيفي اي الصيف عندنا والفصل الخريفي وهو الخريف عندنا . الى ان جاء في الكتاب :

فاذا ارعدت قال الزرّاع من النصارى هذا فرس مار جرجس يطارد في السماء وقال المسلمون هو الخليل او الخضر . فمار جرجس في فلسطين هو الخضر الاخضر ولهما اي لمار جرجس وللخضر علاقة بمار الياس اي ايليا . ولعل للخضر علاقة بالهٍ قديم هو رب الامطار واخضرار الارض بالنبات

قلت لا ادري من هو الخضر وانما انقل هنا بعض ما ورد في كتب اللغة فقد جاء في تاج العروس الخَضِر والخِضْر والخَضْر ابو العباس احمد على الاصح وقيل بليا وقيل الياس ... وقيل خضرون بن مالك ... وقيل هو اخو الياس ... وقال جماعة كان في زمن سيدنا ابرهيم عليه السلام ... وقال ابن عباس الخضر نبي من انبياء بني اسرائيل . وقيل عبد صالح من عباد الله ... وقيل نبي معمر محجوب عن الابصار وانهُ باق الى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة وانهُ يؤخر حتى يكذب الدجّال وانهُ في كل مائة سنة يصير شابًّا وانهُ يجتمع مع الياس في موسم كل عام الى آخر ما جاء في هذه المادة وفي محيط المحيط قيل هو صاحب موسى ويكنى بابي العباس وقيل اسمه آليا وهو نبي والمشهور انهُ مار جرجس

قلت اما مار جرجس فقد قيل انهُ كان فارساً من فرسان الروم تنصّر واستشهد في زمن

ديقلطيانس ودفن في اللدّ سنة ٣٠٣ وقيل غير ذلك وقيل ان جثتهُ نقلت من اللدّ في الحروب الصليبية . فان كان الخضر مار جرجس فان اهل بيروت يزعمون انهُ قتل التنين فيها وله مقام هناك بين نهر بيروت والمدينة القديمة يقال له الخضر وكان له كنيسة في قلب المدينة قيل هي الآن المسجد العمري فبنى الروم كنيسة اخرى لا تبعد عن المسجد اسمها مار جرجس . فاذا كان الخضر مار جرجس فقد لقيتهُ في بيروت ولقيتهُ في اللد لانهُ قتل التنين في يافا على زعم اهل فلسطين لا في بيروت . ثم اني لقيتهُ في حيفا ولعله اجتمع فيها مع مار الياس ومقامه هناك في جبل الكرمل في جوار مار الياس . ثم عدت ولقيتهُ في الموصل مدينة الانبياء والصالحين وقبره هناك وله فيها مسجد يقال له النبي جرجيس يزعم النصارى انهُ كان بيعة لهم باسم مار جرجس

ثم ان مار الياس لهُ معابد كثيرة اشهرها دير مار الياس للآباء الكرمليين في جبل الكرمل حيث يقال انهُ استلّ سيفهُ وقتل انبياء البعل وكانوا اربع مائة ثم اني سمعت اسمهُ في بغداد وهو محلة في جانب الكرخ يقال لها الخضر الياس قرب دار آل السويدي . ثم ان مار جرجس وقتل التنين في زمن الملك صبرا يذكرنا باسطورة فرساوس حامل رأس الغول وهو الآن صورة من الصور النجومية وابنة الملك صبرا التي يزعم اهل بيروت انها ابنة ملكهم العذراء تذكرنا باسطورة المرأة المسلسلة وهي كذلك صورة من صور السماء . وصفوة القول اني ضعت بين الخضر ومار الياس ومار جرجس الرومي وبين النبي جرجيس الموصلي . ولا يخفى ان مار جرجس هو شفيع الانكليز فهل هو يا ترى النبي جرجيس الموصلي او الخضر البيروتي او الخضر الفلسطيني وعلى كل فاذا كان الخضر نبيًّا او من عباد الله الصالحين فانهُ شفيع انكلترا او منتدب عليها بلغة رجال السياسة في هذا العصر . ثم جاء في هذا الفصل من الكتاب ذكر اسماء الشهور الشائعة في ارطاس . وهذه الاسماء لا تختلف كثيراً عن الاسماء الشائعة في سائر فلسطين والشائعة في شمال سورية والعراق وهي سريانية جرت عليها الدول العربية في معاملتها لان شهورها ثابتة لا تتغير وهي عندي اصلح من الاسماء الافرنجية الشائعة في مصر

***

وفي الكتاب فصل في الحب والخمر والزيت Corn, Wine and Oil فن الحب القمح ويقال الحنطة ومنهُ الشعير والذرة والارز . ثم كلام على الحصاد والدراس اي دق الحب او درسه اما بارجل البقر او النورج . ثم تذرية الحنطة وعمل الخبز وهو عند زراعيهم نوعان خبز الطابون اي الفرن وخبز الصاج . ويصنعون ايضاً خبز الملّة . ثم كلام على الكرم جاء فيهِ ان اهل ارطاس لا يعصرون الخمر لانهم مسلمون وانما يدبّسون ويزبّبون . ثم كلام على الزيتون والزيت وعصره

قلت والحَبّ بالعربية ويقال الطعام الحنطة ونحوها وفي الكاثرة الحنطة وفي ارلنتة واسكتلندة الشوفان وفي اميركة الذرة المعروفة في الشام بالذرة الصفراء وفي مصر بالذرة الشامية فالحَبّ بالانكليزية يقابله الحَبّ او الطعام بالعربية . اما القمح فن اسمائه بالعربية الحنطة كما تقدم والبُرّ وهي شائعة في اليمن والطعام وقد تقدّمت الاشارة اليه فاذا قال السوداني الطعام فهو يريد الذرة اي الذرة البلدية فالذرة بالعربية هي الذرة البلدية او الذرة البيضاء وهي اصلية في الشرق . اما الذرة الشامية او الصفراء فهي اميركية ولم تكن معروفة في الشرق قبلاً فالذرة في كتب اللغة هي الذرة البلدية فقط

أما ارطاس ويظن ان حدائق سليمان كانت فيها قرية صغيرة قرب بيت لحم تقيم فيها المس بلدنسبرجر احدى مؤلفتي الكتاب

ثم فصل في الاطعمة البرية كالبقول واحرار البقول والجذور والقطاني وطعام البر وما يأتي بعضها كما وردت بأسمائها العربية والانكليزية والعلمية

البقول Greens

البقل واحده بقلة وجمعه بقول كل ما ينبت الربيع مما يأكله الناس وكل نبات اخضرت به الارض ويقال للبقل والبقول الخضرة والخضر والخضراوات فترجمت اللفظة الانكليزية بالبقول كما جاءت في سفر الامثال . قال : اكلة من البقول مع المحبة

خُبّيزة Common mallow. Malva rotundifolia. L.

يأكلونها مطبوخة مع الارز ويجعلون الارز بين طبقاتها فاذا طبخت كذلك سموها مقلوبة او شختوره وكانت الخبازى معروفة في زمن الرومانيين وكان اكلها شائعاً في العصور المتوسطة

قلت والخبيزة عامية وبعض العامة في سورية اي في الشام ولبنان وفلسطين يقولون الخُبّيزي على عادتهم في كسر ما قبل تاء التأنيث في اواخر الكلم فيقولون مثلاً ضربي ومصيبي في ضربة ومصيبة بخلاف عامة اهل العراق ومصر فانهم لا يفعلون ذلك بل يقولون ضربة ومصيبة . اما فصيح الخبيزة فالخُبّازى والخُبازى بالتخفيف والخبّاز والخبّازة والخُبّيز ولم اعثر على الخبيزة في كتب اللغة . والخبازى واخواتها اسم جنس لها . وقد يكون واحد الخبيز خُبّيزة فاستعملها العامة بمعنى الخبازى كما قالوا الحُطيّة في الحُطمي . وارى ان نخصص الخبيزة لجنس آخر منها كما فعل الدكتور بوست في كتاب نبات سورية وفلسطين والقطر المصري وبواديها فيقال في ترجمة Malvella خُبّيزة

فالخبازى بقلة من الفصيلة الخبازية التي منها الخطمي والملوخية والبامية والقطن ومن اسمائها الرقبة والقبلة ولعل هذه في الاصل مقلوب بقلة . وليست الخبازى الخطمي ولا العضرس ولا شحمة المرج ولا النسل ولا الفول فهذه جميعها الخطمي لا الخبازى فالخبازى الجنس

المسمى عند علماء النبات Malva فهذا هو الخبازى دون غيره ولو تعددت انواعه اي ان جميعها خبازى ورقة وقبلة وربما كانت الرقة خبازى نيقية لان علماء نقلت سموها بهذا الاسم . ولما كان التبسر في تعريف الكتاب بالخبازى والخطمي فلا بأس بايضاح سمة استعمالهما . فالخبازى من الجنس الذي تقدم ذكره اورد منهُ بوست ستة انواع سماها بالعربية ما يأتي : الخبازى المصرية والخبازى الاجمية والخبازى النيقية (وهي الرقة) والخبازى المستديرة الورق (وهي الخبازى المعروفة التي تؤكل) والخبازى الصغيرة الزهر والخبازى الحادة الفصوص

أما الخطمي ويقال خطمي الواحدة منهُ خطمية اي النبتة الواحدة بالتاء . والعامة تستعمل الخطمية بمعنى الخطمي كما تستعمل الخبيزة بمعنى الخبيز او الخبازى اي ان الخطمي اسم جنس لنبات من الفصيلة الخبازية وهو من جنسين آخرين غير جنس الخبازى هما Alcea & Althea ومن اسماء الخطمي بالعربية الخيمل والخشوف والخشول والعضرس وورد الزواني واما الخطمي المستعمل في الطب فاسمهُ ما يأتي :

Common or Officinal Marsh mallow. Althea officinals. L.

وارى ان اصلح اسم عربي له الخطمي المعروف او الخطمي الخزفي واغفال ورد الزواني وسائر ما جاء من المترادفات فاسم واحد صواب خير من تعدد اسماء قد يكون بعضها خطأ

والخطمي انواع كثيرة ترجع كلها الى الجنسين المتقدمين فمنها الارمني والقنبي (وهذا الذي سماه ابن البيطار بالقنب البري) والوردي (ولعله الذي سماه ابن البيطار ورد الزواني) والتيني الورق وغيرها والاصلح ترجمة هذه الاسماء كما فعل الدكتور بوست فقولنا الخطمي الوردي خير من قولنا ورد الزواني وقولنا الخطمي القنبي خير من قولنا القنب البري لانهُ ليس قنباً بل خطميًّا اما تسمية الخبازى التي تؤكل بالخطمي والعضرس وشحمة المرج والخشل والخشول فخطأ

الفسيت Hoary brassica. Brassica nigra. Boiss.

يطبخ ورقه ويصب التميز بينه وبين الخردل الاسود . والاسم العربي اي لفسيت والعبراني اي لفلاف والاسم النوعي مختلفا واحد اشارة الى التفاف غلاف الثمر او لفته الى الساق

لسان الثور Bull's tongue. Salvia horminum. Boiss.

هو نوع من السالمة او المريمية احمر اللون يطبخونهُ محشواً كالكرنب المعروف في الشام بالملفوف

لوف . اذن الفيل Arum of several species

لا يأكله الا الفقراء وهو سام فيغلونه بالماء الحار ويطبخونه محشواً كالملفوف

الرحلة والرحالون

في القرون الوسطى

لنقولا زيادة

وانا مضطر الآن ان اكتفي بعدد قليل من رحالي القرون الوسطى لاحدثكم عن أسفارهم ، لان ذكرهم كلهم يطول بنا ، والذين احب ان اتحدث عنهم هم الحجاج المسيحيون الذين زاروا الارض المقدسة . وهؤلاء قد جاءوا بلادنا قبل العصر الذي حددناه في بدء الحديث اليوم

﴿حجاج القرن الرابع﴾ نجد بين هؤلاء اربعة كان لبعضهم شأن كبير لا في الاخبار والرحلات فقط ، ولكن في تطور المسيحية نفسها ايضاً . وابعد هؤلاء اثراً جيروم الذي هبط بيت لحم في القرن الرابع واتخذها مسكناً له ، واشتغل في اثناء ذلك بنقل الكتاب المقدس الى اللاتينية وقد كان جيروم سبباً في جذب كثيرين الى البلاد المقدسة رجالاً ونساء[1]

واقدم ما كتب عن الارض المقدسة على ما وصل الينا كتاب (حاج بوردو) ونحن لا نعرف اسم هذا الكاتب وكل ما اتصل بنا انهُ فرنسي من مدينة (بوردو) ، زار البلاد سنة ٣٣٣ م ، وكتب دليلاً لمن يزورها بعده ، معتمداً في وصف الاماكن على ما خبره بنفسه ، وفي الاخبار على ما سمع من غيره . ومن الامور التي ذكرها انه رأى الغار الذي كان سليمان يحبس فيه الجن والشياطين

وبين حجاج هذا القرن ايضاً سيدتان الاولى القديسة (باولا) ، والثانية القديسة (اتريا) او (سلفيا) . اما الاولى فقد لبت دعوة جيروم . وكانت ثرية جداً ، فاقامت في الطريق بين يافا وبيت لحم تكايا ونُزُلاً للحجاج [2] . وسكنت بعد ذلك بيت لحم حتى الموت . وقد كتب جيروم اخبارها ورسائلها بنفسه [3] . واليك وصف بيت لحم منقولاً عن القديسة باولا [4]

« في قرية المسيح كل شيء ، خلا التسابيح ، هادىء . حيث قلبت وجهك سمعت الهليل . فالحارث القابض على محراثه يصيح هللويا ، وحارس الكرم يصرخ هللويا ، والفلاح يرتل مزامير داوود في عمله . هذه اشعار واناشيد السكان في هذه البلاد . وهذه هي اغاني الحصاد عندهم . لا يهمنا في الواقع ان نفكر فيما نعمل ، ولا كيف نظهر ، بل ان نرى ما تتوق اليه نفوسنا [اي الخلاص] »

واما القديسة سلفيا فقد كانت رحلتها اوسع نطاقاً ، وابعد مدى ، اذ شملت مصر وسيناء وفلسطين وسوريا وبعض آسيا الصغرى ، وكانت دقيقة في كتابتها حتى حملت الاستاذ بيرلي على القول[5] « بان معرفتنا عن الشرق كانت يمكن ان تكون صحيحة لو ان الكل كتب مثلها »

---

(١) Bliss. p. 51 (٢) Bliss p. 50 (٣) Rappoport p. 266 (٤) Rappoport pp. 264-5
(٥) راجع Bliss p. 57

وقال الدكتور بلس [١] « لم يكتب احد عنها قبل الحروب الصليبية » . وقد كانت زيارتها في اواخر القرن (٣٨٥ م) واقامت في القدس ثلاث سنوات . والراجح انها فرنسية الاصل ، وقد لوحظ انها كانت تقابل بالحفاوة والتعظيم اينما حلّت مما يدل على نبل اصلها وشرف اهلها . ونحن نجهل هذه الامور لان القسم الاول من المخطوطة مفقود الى الآن . ولم نسلم مع كل عنايتها من ذكر ما يبدو لنا صعباً تصديقهُ . فهي تقول انها رأت شجرة الحق التي غرسها موسى وهارون في صحراء التيه ، والمكان الذي اقام فيه بنو اسرائيل العجل الذهبي والعليقه التي كلّم موسى امامها الرب بعد ان رآها تتقد . ومن اجل ما تركتهُ لنا وصف حفلة تقبيل الصليب يوم الجمعة الحزينة اذ تقول [٢] (جلس المطران في مقعده الخاص ، ووضعت امامه طاولة عليها صندوق فضي يحوي خشب الصليب المقدس . فتح الصندوق ووضع ما فيه على الطاولة ، فوضع المطران يديه على الخشبة وتلبه الاساقفة المحيطون به للحراسة . ثم تقدم الناس واحداً واحداً فانحنوا ثم لمسوا الصليب بجباههم اولاً ، ثم بعاجرهم ، ثم قبلوه ومرّوا . والغاية من وجود الاساقفة هو المحافظة على خشب الصليب اذ كان من عادة البعض انهم اذا اقتربوا لتقبيله عضّوا جزءاً منهُ وهربوا للتبرك)

﴿ حجاج القرن الخامس ﴾ يحدثنا القديس داود الانكليزي اول حجاج هذا القرن ، انهُ اوحي اليهِ والى اثنين آخرين ان يتجهوا الى القدس ، ليقوموا بواجب الزيارة للاراضي المقدسة فلما اجتازوا البحر الانكليزي وهبطوا فرنسا لم يستطيعوا التفاهم مع اهلها ، فحلّت نعمة الروح القدس على داود فصار يتكلم بكل لسان ، فلم يبق ثمة صعوبة ولما وصل القدس قابل البطريرك الذي كان قد اوحي اليهِ بقدومهم ، بالتبجيل وسام القديس داود رئيس اساقفة . ثم طلب اليهم ان يحضروا حجج اليهود الدينية فقاموا بالامر ، حتى اقنعوا الكثيرين الذين اخذوا يدخلون في المسيحية افواجاً . وقد كافأ البطريرك داود على خدماته بهدية مقدسة حوت مذبحاً ، وجرساً كبيراً وهراوة وحلة منسوجة من الذهب . وقد كان لكل من هذه عجائب وكرامات . ولما اعتزم داود العود الى بلاده حملت الملائكة له كل هذه اذ لم يكن في استطاعته ان يفعل ذلك بنفسه

وعندنا من رواد القرن الخامس ايضاً ثيودوسيوس وهذا ، على ما يتراءى لنا من المغرمين بمكان اعتماد المسيح . فهو يذكره بشيء من العناية والاطالة ، ويصف العمود الرخامي الذي رآه في نفس مكان العماد ، والصليب الذي يعلوه وكنيسة يوحنا المعمدان . ويقول ان الجبال الكثيرة المحيطة بالاردن قد رقصت يوم اعتماد المسيح في النهر وان الناظر اليها الآن — في زمنه — يخيل اليهِ انها قافزة من مكانها ومن هذا نرى ان حجاج هذا القرن لا يتسمون بسمة الكتاب الحريصين على الحقائق كثيراً

اما في القرن السادس فقد كثر الاهتمام بالآثار المقدسة فانطونيوس يخبرنا انهُ رأى في

---

[١] Travel & Travellers p. 47 (٢) Bliss p. 54 (١)

صفورية (سل العذراء) وفي المناصرة الكتاب الذي تعلم فيه المسيح «الالف باء» وان نساء هذه المدينة جميلات لانهن قريبات العذراء. وجميع قولنا ان اهل الناصرة كانوا يكرهون المسيح حتى انهم كانوا يحرقون آثار اقدام السياح المسيحيين ويأبون ان يأخذوا منهم التراب قبل طرحها في الماء لتطهر من دجس ايديهم [١] والطوبيري ينقل لنا ان البحر الميت لا يصلح للسباحة لان الاجسام تطفو في مائه !!...

﴿ القرن السابع وما بعده ﴾ : منذ القرن السابع تغيرت الاحوال في الشرق الادنى كله. ففي اوله كانت الحروب بين الفرس والبزنطيين واحتلال الاولين للاراضي المقدسة، وما صحب ذلك من تدمير الكنائس وغيرها من اماكن التعبد والقداسة. ولما استعاد البزنطيون البلاد رمموا بعض ما تهدم ومن ذلك كنيسة القبر المقدس. وفي اواسط هذا القرن كان العرب قد احتلوا كل سوريا ومصر ووطدوا حكمهم في هذه الديار، والذي نعرفه ان هذا الاحتلال لم يمنع الحجاج من المجيء الى الاراضي المقدسة [٢] بل ان العرب شجعوهم على القيام بهذا الفرض الديني. فالحجاج الذين زاروا البلاد في العصر الاموي مثلاً، لا نجد في كتاباتهم اثراً للشكوى او التذمر. الا اننا نلحظ فيهم انهم اخذوا يفدون الى فلسطين بطريق مصر، بدل طريق آسيا الصغرى لما كان من العداء بين العرب والروم. وقد وقعت مع ذلك حوادث فردية عدائية نحو بعضهم بسبب وشاية بعض اليهود فقط. ولما انتقل الحكم الى العباسيين، وقام هرون الرشيد اتسع نطاق الزيارة والتجارة مع العرب في زمنه على شكل لم يعرف قبلاً

وفي آخر القرن العاشر احتل البزنطيون جنوبي فلسطين، وبذلك تدفق الزائرون اليها، ثم استردها منهم الفاطميون في مصر. وهؤلاء ايضاً فتحوا باب الحج والزيارة للغربيين على مصراعيه، حتى اوائل القرن الحادي عشر، ايام الحاكم بامر الله. وفي زمنه زار البلاد المقدسة جيربرت، الذي صار فيما بعد بابا لرومية، وكان ممن لقي اضطهاداً في حجه. لذلك لما عاد الى اوروبا واعتلى الكرسي البابوي، دعا الاوروبيين الى تخليص الاراضي التي عاش فيها (المخلص) وصلب وبعث، من أيدي المسلمين. ومنذ ذلك الحين صار الحجاج المسيحيون يأتون مدججين بالسلاح [٣]، فقلق ذلك بال الحكام، وحملهم على التضييق عليهم خشية منهم

ارنولف: مطران من بلاد الغال، زار الاراضي المقدسة ودمشق، وصور، والاسكندرية، والقسطنطينية في أواخر القرن السابع، وقضى في القدس تسعة شهور وتردد على كل البقاع المحيطة بها. وقد املى أخبار سياحته على راهب انكليزي اسمه ادمنان

على ان الاخير هذا لم يوضح كيف وصل ارنولف اليه، ويعتبر كتابه دليلاً صحيحاً ولا سيما انه رسم خرائط تقريبية لكنيسة القبر المقدس وغيرها. على أنه لم يستطع ان يتخلص من الروح الدينية العامة التي كانت تسيطر على اذهان الجماعة في تلك العصور،

(١) Dies p. 60 (٢) Rappoport pp. 267 & 270 (٣) Rappoport pp. 272--3

والمبنية على ان للآثار المقدسة فعلاً عجيباً في شفاء الامراض وغفران الخطايا ، فهو يعدد الآثار التي رآها ، مثل الكأس المقدسة الفضية ، والاسفنجة ، والحربة التي شهدت صلب المسيح . وقد لمسها وقبّلها أيضاً . ونحن نعرف منه أيضاً ان الصليب الحقيقي موجود في القسطنطينية [١] وقد زار برية الاردن ووصف النهر ومكان العماد ، والجراد والعسل البري الذي استعمله يوحنا في حياته ، اذ يقول [٢] « وفي البرية نوع من الجراد صغير لا يتجاوز واحده حجم الاصبع ، يسهل القبض عليه لانه يقفز ولا يطير ويقلى عندها بالزيت ويستعمل طعاماً وفيها أيضاً شجر له أوراق كبيرة مستديرة ، اذا ضغطت خرجت منها عسارة حلوة . وهذا هو العسل البري » . وذكر أنه توجد على جبل الزيتون (الطور) كنيسة الصعود لاسقفها ، لان العاصفة التي تهبّ كل سنة في نفس الوقت الذي صعد فيه المسيح الى السماء تعصف بالسقف وبكل المواد لمثل هذا البناء ، كما شاهده بنفسه

ويقول في مكان آخر « اعتاد الناس ان يفدوا الى القدس جماعات كبيرة في الخامس عشر من ايلول (سبتمبر) من كل سنة للاحتفاء بعيد الصليب المقدس ولتبادل السلع والبضائع حتى انهُ كان من الصعب اختراق طرق المدينة لكثرة الاقذار المسببة عن الحيوانات الكثيرة التي يؤتى بها . ولكن العناية الالهية كانت تبعث على أثر مغادرة الناس للمدينة بامطار غزيرة تنظفها »[٣]

﴿ منديل المسيح ﴾ وبين الآثار المقدسة التي رآها ارغولف المنديل الذي غطي به رأس المسيح في القبر . « وقد سرقه يهودي بعد قيامة المسيح وخبأه . ولما حضرته الوفاة جاء بولديه وخيّرهما بين كل ثروته وبين المنديل فكان من جراء ذلك ان شقي الاول وخسر كل ما ورث ، وسعد الثاني واثرى ببركة ما أخذ وبقي هذا المنديل ارثاً في عائلته جيلاً بعد جيل حتى نشب نزاع بين الذين كانوا يؤمنون بقدسيته والذين كفروا بها من أفراد العائلة . فاحتكموا الى الامير (؟) في ذلك . فاشعل النيران في الساحة العامة ثم وضعه فيها ، لكن النيران لم تمسه قط بل أخذ يرتفع ويعد دقائق هبط على الفريق المؤمن أي المسيحيين الذين كانوا طول الوقت يصلون ويضرعون الى المسيح ان ينبئهم إياه »

اما القرن الثامن فيطل سياحه ويلبولد الانكليزي الذي زار البلاد في اوائله (٧٢١ — ٧٢٧م) وقد كان من عادة الكثيرين من جوابي تلك العصور وحجّاجها ان يكتفوا بذكر اسماء البلاد التي مروا بها قبل وصولهم فلسطين ، فاذا وصلوها ذكروا اخبارها بالتفصيل . وأما ويلبولد فانهُ يصف رحلتهُ كلها في اواسط اوربا واجتيازه الالب وروما ، والبراكين التي مرّ بها . ويقول مثلاً ان سكان المدينة المجاورة لبركان اتنا في صقلية يدفعون عن انفسهم غائلة ثوران هذا البركان برفع وشاح القديسة « اغاثا » المدفونة عندهم فيهدأ ثائر باب جهنم

ولما كان العرب يخشون عندها تجسس الغربيين بسبب ما كان بينهم وبين الروم من حروب ،

(١) Early Travels in Palestine pp. 8—9 (٢) Travel & Travellers p. 65
(٣) Early Travels p. 1.

ولما كان عدد رفاق ويلبولد قد بلغ الثمانية فقد انتي القبض عليهم وزجوا في السجن الى ان حقق معهم، ومثلوا امام الخليفة يزيد الثاني (٧٢٠—٧٢٤) فلما عرف بلادهم وغايتهم اطلق سراحهم وزودهم برسائل تمكنهم من التجول في البلاد، واعفاهم من ضريبة الحج [١] واتخذوا القدس مركزاً لزيارتهم، وقد مرّوا في احداها بحمص فزودهم حاكمها بكتاب لكل اثنين منهم وأمرهم ان يسافروا اثنين اثنين فقط، اذ لم يكن سبيل لهم ان يحصلوا على طعام يكفيهم جميعاً اذا سافروا معاً [٢]

وقد كان نقل البلسم من فلسطين ممنوعاً وكان عقاب من يخرجه الموت ولكن ويلبولد رغب في اخذ شيء منه الى بلاده فملأ انبوبة صغيرة منه، ثم وضعها في انبوبة اخرى اكبر منها وملأ الثانية زيتاً صخرياً لعله النفط او القار، حتى عبرت الاولى. فلما وصل الى صور وفتشوا امتعته، منعهم الزيت وراثحته من ان يعرفوا بوجود البلسم [٣]

برنارد الحكيم: هذا نموذج سيّاح القرن التاسع الميلادي وهو القرن الاخير من عصر التفاهم والتسامح بين الشرق والغرب الذي سبق الحروب الصليبية. وبرنارد جنى بعض ثمار العلاقات الطيبة التي توطدت بين الدولة العباسية في الشرق والامبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب؛ بسبب صداقة هرون وشارلمان. وهذا سائح لا يبدأ الرحلة قبل ان ينال رضى قداسة البابا وهو يمر بالاراضي الايطالية التي كانت خاضعة للنفوذ الغربي، فيحمّله سلطان باري رسائل الى امير الاسكندرية والى امير الفسطاط في مصر. وكذلك كان شأنهُ في كل مدينة مرّ بها ان يعطى الى السلطة الحكومية في المدينة الثانية رسالة لقاء دينار او دينارين، والطريق التي يسير فيها من مصر الى فلسطين الطريق البري مخترقاً سيناء فاذا وصل الرملة سار الى القدس بطريق عمواس، ونزل ضيفاً في النزل الذي بناه شارلمان

وبرنارد اول من ذكر «فيض النور» في يوم السبت السابق للفصح المقدس، فقد قال «ويجد الداخل الى القبر قناديل كثيرة معلقة فوقه. فاذا كان صباح يوم السبت السابق ليوم الفصح بدئت الصلاة في الصباح حتى اذا تمّ ذلك، انشد الكل بصوت رخيم «كيرياليسون» الى ان ينزل الملاك وينير القناديل المذكورة وعندها يتقدم البطريرك ويعطي لكل مطران جمعه من هذا النور المقدس؛ ثم يسمح للشعب ان ينير كلٌّ قنديله». وعلى ذكر ما اورده برنارد انقل ما كتبهُ ابوالفرج عن فيض النور زمن الحاكم في اضطهاده للنصارى. يُقال انهُ وشى بعضهم الى الحاكم ان النصارى يوم فيض النور يدهنون السلاسل التي تعلق بها القناديل بزيت البلسم فاذا جاء الحارس الغربي المكلف حراسة القبر في ذلك اليوم خشية التلاعب فيه، وخلع بابه اشعلوا البلسم الذي على السلاسل من ثقب خفي فتضاء القناديل وعندها تنهمر دموع الفرح من مآقي الناس ويصيحون «كيرياليسون» حاسبين ان هذا النور قد هبط من السماء وبذلك يثنوى ايمانهم»

(١) Early Travels p. 20 (٢) Early Travels p. 15—6
(٣) Rappoport p. 271 and Early Travels p. 68

كتاب الاغاني

لابي الفرج الكاتب الاموي المعروف بالاصبهاني

واختزل ثروة طائلة من « رواية عالية ، وأدب غزير » وعلم واسع باللغة والاخبار وصناعة خلفها اصحابها ولم نجد من الاخلاف من يحسنها مثلهم

وكان ابو الفرج الاصبهاني من ندماء المنصبين بابي محمد المهلبي وزير معز الدولة بن بويه الديلمي . واحتل العلم ودواته وكثرة الحفظ قلب الكاتب الاموي فلم يكن كثير العناية بمظهره . ومثله عدد لايحصى من المشتغلين بالادب والتأليف حتى في عصرنا هذا . وقد روي ذلك عن « اميل فاجيه » الناقد الفرنسي المحدث . ولم تسلم مكانة ابي الفرج وعلوكعبه في العلم من الحساد . وكان لايغتفر ذلك والناس يحذرون لسانه ويتقونه لقوته ومقدرته وكان ربما صدر منهُ شيء من ذلك في حضرة الوزير المهلبي فكان ابو محمد يتكلف احتمالها لوروده ا من ابي الفرج

وكان العصر منصرفاً الى البذخ والاسراف . وكان ابو محمد المهلبي اشبه بوزير من وزراء لويس الخامس عشر ، روي انهُ ابتاع له في ثلاثة ايام بالف دينار ورد لكي يجعلها مناسبة في مجلسه !

وزاد العصر على اسرافه انهُ اطرح عنهُ بعض القيود التقليدية التي كانت تعل انتاجه الفكري والمادي . ولم يخل مع ذلك من شيوع الاوهام والاباطيل التي فوّتت عليه دراسة الحكمة والعلم العميق . فان تلك الظرائف الملكية التي وقفت عندها صناعة الاندلسيين الفني واشباهها حين وصلت الى القاهرة استحالت الى تماثيل كاملة للشعراء وغير الشعراء صيغت من الابريز واتسع استعمال الالوان من التزويق الى التصوير حتى لقد استعمل للاعلان وللانذار . وفي ذلك الوقت كان الكاتب الاموي قد فرغ من تأليف كتابيه الغريبين « الخراقات » و« الخارين والخارات » . وكان مدخراً لمؤرخ رواية كالمقريزي ان يؤلف عن ذلك العصر كتاباً في « طبقات المصورين والمزوقين »

واذا كان كتاب « الاغاني » قد حوى كل ضروب الظرف والبذخ والابهة التي اتسم فيها العرب لعهد اتساع دولتهم فان عصر الاصبهاني كان قد بلغ الغاية القصوى في التأنق في اللباس والمآكل . فكان من دون الوزير من عمال الدولة يستعمل صحاف الذهب والفضة فكيف بالوزراء والخليفة . وكان استعمال الكماليات مألوفاً شائعاً . وينسب الى ذلك العصر لبس الجوارب الحريرية والنعال المؤلفة من لونين من الجلد والتخفف بانواع من الاثواب الخالية التي

كانت عزيزة نادرة في غير الدولة الاسلامية . وكذلك نلحظ في كتاب « الاغاني » واخباره مرآة صادقة لتظرف العصر نفسه وشغفه بادب السمر والنوادر . وحتى في عهد سؤدد الدولة الاسلامية وسيطرتها بعث الدم العربي في اخلاف الجاهليين حب الشعر . بعث فيهم الهوى القديم الى رواية الشعر الغنائي

ولما اهدى ابو الفرج كتابه الذي جمعهُ في خمسين سنة الى سيف الدولة بن حمدان كان نصيبه كنصيب الفردوسي سيد شعراء فارس لما اهدى « الشاهنامه » التي نظمها في ثلاثين سنة الى الامير محمود سبكتكين (١)

فاعطاه سيف الدولة الف دينار . وبلغ ذلك الصاحب بن عباد فقال : لقد قصر سيف الدولة وانهُ يستأهل اضعافها . ووصف الكتاب فاطنب : لقد اشتملت خزانتي على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو متيسر غيره ولا راقني منها سواه

وقيل : لم يكن كتاب « الاغاني » يفارق عضد الدولة في سفره ولا حضره . ومن الممكن ان نستخلص من ذلك ذوق العصر وطبيعة ميله الى الاطلاع وتقديره للتآليف

وتأنق الكاتب الاموي في جمع كتابه وتصنيفه ودل على عناية فائقة بشرح مذاهب المغنين في صناعتهم . اما طريقة او « اسلوب » التصنيف الذي اختاره ابو الفرج الاصبهاني فهو مذهب اتبعهُ جيل عظيم من الاخباريين والمؤرخين والرواة . ولما اطلعنا على المقدمة التي صدر بها « ياقوت الرومي » كتابه « معجم الادباء » وجدنا تفاصيل تعين على تمييز ذلك الاسلوب في التصنيف وتأويله

قال ياقوت في نقد ابي بكر بن عبد الملك التارتشي « ... هذا مع ان كتابه — في اخبار الادباء — صغير الحجم ، قليل التراجم ، محشو بالنوادر التي رووها لا يختص « باخبارهم » انفسهم . . . . ثم ألف بعده في هذا « الاسلوب » (٢) ... الخ

و « صنف » فيه ابو عبيدالله محمد المرزباني كتاباً حفيلاً كبيراً على عادته في تصانيفه ... الخ

و « ألف » فيه ابو سعيد السيرافي كتاباً صغيراً في نحاة البصرة تقلنا « فوائده »

« ثم « جمع » في ذلك ابو بكر الاشبيلي كتاباً وهو اكثرها « فوائد » و « تراجم » ...

« وفي « اخبار أهل الأدب » وجدت كتاباً لعلي بن فضال المجاشعي كثير التراجم الا انه قليل « الفائدة » لكون لا يعتني بالاخبار ولا يعبأ بالترتيبات والاعتبار (٣)

وقال ياقوت في تصدير معجمه . و « جمعت » في هذا الكتاب ما وقع اليَّ من « اخبار » النحويين واللغويين ... وكل من « صنف » في الأدب تصنيفاً او « جمع » في فنه تأليفاً ... الخ

فاستعمل في معنى « التأليف » : صنف وجمع . وصنف الشيء جعله اصنافاً وميز بعضه

(١) كانت تتألف من ستين الف بيت فاعطاه الامير نصف درهم من الفضة ثمناً لكل بيت !

(٢) اذن هو « اسلوب » في التأليف لا طريقة (٣) يعني بلا شك التواريخ والازمنة « كرونولوجي »

من بعض . ومنه تأليف اللحون وتأليف العناصر . وهي طريقة الاخباريين اتبعوها ليسهل حفظها على الرواة . وجعل ابن الأدب شيء والعلم شيء آخر . وقد كان الاغريق واللاتين يذكرون البطل او الخطيب باخباره مرتبة دون اسناد ويخلطونها بكثير من الخرافات «كليشولوجيا» وهم ايضاً اصحاب الطريقة العلمية التي يخاطب فيها المؤلف شخصاً مفروضاً كأنه القارىء نفسه «اعلم وفقك الله ان كذا ... الخ» وقد اتبعها ارسطو والحكيم منكا وشيشرون من قبل ان يتبعها الغزالي وابن رشد وابن مسكويه

أما الاخبار والشعر فمن جملة علوم الادب وقد أشار الاصبهاني الى ان «المغزى في كتابه انما هو ذكر الاغاني باخبارها» . وهذا تأويل لمذهبه في رواية الكتاب . وربما كانت اخبار المغني ادق واصدق شرح لصناعته . ومن مزايا هذا «الاسلوب» في التصنيف : البيان والترتيب ومن تعابير نقدة العرب ان فلاناً العالم او الاديب «حسن الترتيب لما يصنفه» وانه «احسن تصنيفاً من الجاحظ [1]» . وللجاحظ هو صاحب «البيان والتبيين» . وكان الاصبهاني حاذقاً في ترتيب اخباره ممتازاً بجمال أسلوبه وبيانه

ومنبع هذا «الاسلوب» في اعتماد الاخبار موضوعاً للتاريخ ماجرى عليه العرب بطبيعة مزاجهم من حب السمر والحديث . والعرب في الاصل تجار . وكان الشعر العربي من قبل القرآن قد استنفد العبقرية العربية . ولما صار العرب تجار اكفاء بسطوا جناح سيطرتهم على العالم

وكان للاسماء في اللغة تأثير في طبيعة التفكير والمزاج . فان معنى «تجارة» [2] في اللغة اللاتينية العلاقة الاجتماعية او المعاشرة او التبادل والمحاورة او الترسل ومنها اشتق اسم السمر او الحديث

وكانت الصيغة الاخيرة التي اكتسبها هذا الاسم هي بلا شك الرواية او الاخبار . وفي عادات العرب كما هو في كتاب الاغاني روح السمر والحديث وصور العلاقات التي كانت تربط طبقة الادباء والشعراء وارباب الفنون بالارستوقراطية العربية في الاسلام

ولقد عاب العلامة الفرنسي «ارنست رنان» على الشعر العربي انه ذاتي «Objective» وان الشاعر يتكلم فيه عن نفسه وعن حالاته الخاصة به . وان الملحمة فيه مفقودة . واصل الرأي للمستشرق «لاسن» [3] وهو لا يعيب العنصر العربي ولا الشعر العربي . لان العرب لم يكونوا شعراء بالفطرة الا لان الشعر الغنائي كان نمطاً طبيعياً فيهم

ويرى «برونتيير» ان الشعر الغنائي حين تم تكوينه كانت ذاتية اوربا قد تكونت . اذن وافق ترقي الشعر الغنائي عند العرب اكتمال ذاتية «انا قد والسم» العنصر العربي

وفي الحقيقة ان كتاب الاصبهاني يمثل وحدة علمية وادبية تستحق ان تكون رمزاً لعبقرية العنصر العربي

عبد الحميد سالم

(١) ياقوت الروي : ارشاد الادب (2) M. Lassen

الراديوم والعلم والصحة

[مقتطف فيلي عن مجلة العلم العام]

﴿انتشار بمياه الراديوم﴾ جاء في احدث الانباء ان الحرب قائمة على ساق وقدم في اميركا لمكافحة كل الادوية المسجَّلة حتى الراديوم . وان موقدي جذوة تلك الحرب الثلاثة هم اولاً — لجنة التجارة المتحدة وثانياً — مصلحة الاطعمة والادوية وثالثاً — فروع الادارات الصحية الحكومية والبلدية — ورابعاً — الجماعات الطبية — وغايتهم منع بيع الادوية المجهولة التركيب في الاسواق ولا سيما العقاقير التي تعزى فوائدها الى الراديوم

والراديوم عنصر مقوٍّ ، اذا تولى العلاج به خبيرٌ ، ولكنهُ قتالٌ ، اذا استعمله غيرُ دجالٌ . فيجب ان يكون آخر عقار يُباح بيعه في مخازن الادوية ، لان بياعها يشترى اعتباطاً كأنهُ قرص من اقراص تخفيف السعال او جرعة من زيت الخروع . وقد اطلقت الطلقة الاولى في تلك الغارة الشعواء عند ما حجز ضباط حكومة الولايات المتحدة في مدينة بفلو بولاية نيويورك مركباً شاحناً ١٦٧٠ قارورة ملأى راديوماً كنديًّا مقوياً كانت احدى الشركات مزمعة توزيعها في الولايات المتحدة

وكان الحافز لولاة الامور على القيام بتلك الحملة موت المستر ايبن بايرز Eben Byers متسمماً بالراديوم — وهو احد ارباب مصانع الحديد المشهورين في مدينة بتسبرج ، وكان قد اعتاد قبل وفاته بسنتين تناول مقادير كبيرة من احد الادوية الجاهزة المركبة من مياه الراديوم التي كان يعلن عنها « بأنها محاليل اصلاح الراديوم غير المضرة التي تشفي ١٦٠ مرضاً وتجدد الشباب »

ومن محسن الطالع ان ذلك العقار اثر في صحة المستر بايرز في بدء الامر كالسحر اذ خيل اليه وهو كهل انهُ قد استعاد شبابه حتى زعم انهُ قد اهتدى الى ينبوع الشباب فجعل يهدي الى اصدقائه صناديق من قوارير مياه الراديوم الساتفة الذكر — واستمرت حاله على ذلك المنوال بضعة اشهر ثم اعتراه مرض شديد افضى الى موته من عهد قريب مصاباً بداء تسمم العظام (الذي يسل وموت العظام) في الفكين وفقر الدم وخرّبت في الحال نوال الكتور (مدير قسم حفظ الصحة المختص بالصناع في كلية الاطباء والجراحين بجامعة كولومبيا) الخبير في علاج التسمم الراديومي ، وهو الذي استفرغ جهده عبثاً في انقاذ حياة المستر بايرز ، انهُ قد توفي رجل آخر من تناول مياه الراديوم وان كثيرين غيره سوف يلاقون حتفهم من ذلك الينبوع للشؤوم . وقد شرّحت جثة بايرز فوجد فيها اكبر مقدار تناوله انسان من املاح الراديوم . وكان ذلك اكثر من ثلاثين ميكروغراماً وهذا يكفي لقتل ثلاثة رجال

ومن اشهر الادلة على فظاعة تأثير الراديوم في جسم الانسان فاجعة فتيات نيوجرزي فقد أصابهن الكساح ثم تبين بالراديوم وهنكن . وذلك من اعتيادهن دهن مرائي الساعات بالدهان المنير المصنوع من املاح الراديوم . وقال حديثاً الدكتور هاريسون مارتلند الطبيب الشرعي الذي درس تلك الحوادث درساً تاماً ان ١٨ نفساً من مستخدمي مصنع شركة راديوم الولايات المتحدة في مدينة اورانج بولاية نيوجرزي (المغلق الآن) قد ماتوا من تسمم الراديوم ايضاً وان اكثر من ثلاثين غيرهم سيصابون بالكساح واغلبهم كانوا يصابون بالتسمم عن طريق الشفاه من ارهاف الفرش المغموسة بدهان الراديوم ايضاً . وبديهي ان الحملة الآثمة الذكر قد ألقت فضيحة الدجالين الذين يخدعون الناس بزعمهم ان الراديوم دواء لجميع الامراض ، لا مقاومة لبأس الاطباء الذين يستعملون الراديوم . فقد ثبت نجاح الراديوم نجاحاً باهراً في علاج بعض اصابات السرطان . ويتبين ذلك من تصريح رئيس احد المعاهد الكبرى لعلاج السرطان في الولايات المتحدة اذ قال ان عشرة في المائة من المصابين هناك بالسرطان يعالجون بطريقة الراديوم . ويستعمل الراديوم لكثير غيرهم لتخفيف آلامهم تخفيفاً كبيراً

﴿ اكتشاف الراديوم ﴾ كشف العلامة بيير كوري وقرينته عن الراديوم في دسمبر سنة ١٨٩٨ في معملهما الكيماوي الخاص بضواحي مدينة باريز ، فأخذ الناس من ذلك العهد يشيدون بذكر الراديوم قائلين انهُ من اجلّ نعم الله على عباده . وظلوا يعتقدون ذلك الاعتقاد الى اوائل سنة ١٩٢٥ اذ توفي المسيو دمتروDemenitrou وهو كيماوي كان مساعداً في معمل كوري فاخترمته المنون بعد ما كابد آلاماً مبرحة من تعرضه سنوات عديدة للمواد المشعة التي تنبثق من الراديوم ، فشرع الخبيرون وقتئذ يدركون نقم الراديوم . واصبح غير خاف على العلماء ان الراديوم قتّال ، كما هو شاف للناس بسهولة ، ولذلك ترى الاطباء المختصين للمعالجة به يتخذون اشد الاحتياطات لوقاية انفسهم ومرضاهم من تأثير الراديوم القتّال

والراديوم اقوى واغرب ما كشفه الانسان حتى الآن من عناصر الطبيعة . وهو يكنّ سر تحول العناصر . فقيل انهُ حجر الفلاسفة المجديد الذي قضى علماء الكيميا القدماء يبحثون عنه ازماناً فلم يظفروا به . ولكن تحوله معكوس لانهُ يصير احط قيمة بكرّ الدهر — والراديوم نتيجة انحلال عدة عناصر تبدأ بالاورانيوم وتنتهي بالرصاص بعد انقضاء ملايين السنين — وهو يفقد نصف قوته ونصف وزنه في ١٧٣٠ سنة ويفقد قوته كلها تقريباً في نحو ١٩٠٠٠ سنة

وقد توسّل به علماء الجيولوجيا (وذلك بمعرفة الزمن الذي يقضيه الاورانيوم مصدر الراديوم حتى يصير رصاصاً) ان تقدير عمر الارض يزمن يتراوح بين بليونين وثلاثة بلايين سنة ، وذلك بمعرفة نسبة مقادير الاورانيوم الى نسبة مقادير الرصاص التي وجدت في عدة صخور من الصخور المختلفة . واطلقوا على الطريقة التي استخدموها في التقدير اسم (ساعة الراديوم)

ويقذف الراديوم في اثناء انحلاله الذري المستمر ثلاثة انواع من الاشعة وهي ألفا وبيتا وغما . فأشعة ألفا عبارة عن ذرات الهليوم مشحونة بكهربائية ايجابية تقطع في الثانية الواحدة ١٠٠٠٠ ميل . واشعة بيتا مكونة من كهارب « الكترونات » كهربائية سلبية تشبه الاشعة السلبية التي تتولد في معامل التحليل الكيماوي بانابيب كروكس وهذه تقذف بسرعة تتراوح بين ٦٠٠٠٠ و ١٨٠٠٠٠ ميل في الثانية . واشعة غما تختلف عن اشعة ألفا وبيتا (اللتين هما تيارات من ذرات مادية دقيقة) بكونها امواجاً كهربائية سريعة التموج مثل امواج اثير الاشعة السينية . غير ان الاشعة السينية اطول امواجاً منها وسرعتها كسرعة النور ، وأشعة ألفا ذات قوة ضئيلة في اختراق الاشياء تتقطع ٣/٤ من البوصة من مصدرها . أما أشعة بيتا فقد تخترق نحو ٦٠ بوصة . واشعة غما اشد من اشعة بيتا في اختراق الاشياء مائة مرة

ثم ان التباين العظيم الذي يحدث من تأثير تلك الاشعة في الانسجة الحية هو سرُّ طبيعة الراديوم الشافية . فأشعة ألفا هي الاشعة المميتة ولعلها اشد الاشعة الثلاثة التي عرفها العلم حتى اليوم . واشعة بيتا خطرة جداً ايضاً وتحدث حروقاً تسمى « حروق الراديوم » . اما اشعة غما فمفيدة وهي اشعة الراديوم الوحيدة المستعملة الآن في الطب . ومع ذلك فان هذه الاشعة شافية ولكنها قتالة ايضاً . فهي استعملت في اصابات السرطان أهلكت خلايا الاورام الخبيثة أو وقفت نموها واذا أحسن استعمالها لا تضر نمو خلايا الجسم الطبيعية . وقد قال الدكتور (يوسف ميور) احد اطباء مدينة نيويورك الخبير في العلاج بالراديوم ان اشعة غما قد تقتل خلايا البيض والمني

﴿ اضرار الراديوم ﴾ وتحدث اضرار الراديوم الروعة، للذين يستعملونهُ بلا خبرة او لمن يتناولونهُ مشروباً محلولاً في الماء او للذين يتعالجون به بأية كيفية، من أشعة ألفا القتالة لانها تؤلف ٩٢ في المائة من جميع أشعة الراديوم

وليست أشعة ألفا مهلكة لجسم بن غير ايضاً فهي تعاطى المرء الراديوم سرى في جسمه وكمن في عظامه وكذلك اذا أخذ الراديوم محلولاً صيَّره الدم بصريقة كيميائية غامضة ، مادة مشعة لا تتحلل في العظام [illegible] أشعة ألفا [illegible] الاشعاع الاخرى وكانت المسافة بين المراكز المولدة للدم الواقعة في نخاع العظام قريبة جداً فان هاتيك الاشعة تستطيع الوصول الى تلك المراكز حيث تتجلى طبيعة أشعة ألفا المدمرة ، وذلك انها تقوي اولاً المراكز المولدة للدم فتكثر فيها خلايا الدم الحمر والبيض عما تكون عليه طبيعة . ومن ثم يشعر المريض انهُ قد أبلَّ من علته واستعاد شبابهُ

وسرعان ما يحدث رد الفعل — والدليل على ذلك ان فتيات نيوجرزي اللواتي كن يلصقن

ذرات الدخان المشع لم تظهر عليهن علامات المرض الا بعد انقضاء مدة تختلف من سنة الى اربع سنوات في اعماطن بعض الساعات المنيرة لان التذائف التي تقذفها أشعة ألفا باستمرار على مراكز توليد الدم ، تقوضها تقويضاً بطيئاً. وحينئذ يقل عدد كريات الدم البيض ويفسد تكوين الكريات الحمر فيترتب على ذلك الاصابة بداء فقر الدم

وجرعة الراديوم الفتّالة التي تتكون من ١٠ ميكروغرامات تقذف في الثانية الواحدة نحو ٣٧٠٠٠٠ دقيقة بسرعة ١٨٠٠٠ ميل في الثانية ليلاً ونهاراً ، وعقب هذه الصدمات المتوالية القاسية تأخذ العظام ولاسيما الهيكل العظمي المعرض للثقل او الضغط في التداعي ثم في البلى وهذا ما يسمّى بموت العظام اي النخر او التنخر. ولما كان الراديوم يفقد نصف قوته في ١٧٣٠ سنة فان قذائف شعاعة ألفا تظل منطلقة من غير تناقص عدة قرون بعد الوفاة

وقد ظهرت هذه الحقائق ظهوراً عملياً من عهد قريب في تجربة تبعث على الدهشة وهي ان الدكتور الكسندر جتار الخبير في علاج السموم بمدينة نيويورك فحص الهيكل العظمي لاحد ضحايا الراديوم في نيوجرزي حين اخرج من قبره بعد الوفاة بخمس سنوات.. فأخذ ربع اوقية من عظم ذلك الهيكل ووضعها أمام عدّاد جيجر Geiger counter (وهو جهاز يعير اشعة الراديوم ذبذبات كهربائية) ثم جاء بسماعة لاسلكية مكبرة للصوت ووصلها بذلك الجهاز فحولت الذبذبات الكهربائية التي اصلها اشعة راديوم الى امواج صوتية مسموعة

واذ كانت السماعة اللاسلكية تحدث اصواتاً متواصلة كأن انبوب مملوءا غازَ نيون يشع نوراً احمر كلما مرّت دقيقة من دقائق اشعة ألفا الكهربائية بحجاب ذلك الجهاز. وكان الدكتور نفسه قد سبق فاخذ ايضاً عظمة من عظام قدم ذلك الهيكل فوضعهُ على لوح فوتوغرافي في حجرة مظلمة فطبعت صورته من تلقاء نفسها

وضحايا التسمم الراديومي تشع من ابدانهم اشعة الراديوم وتم احياء ايضاً. فقد حدث منذ بضع سنوات حادثة فظيعة لا يزال الناس يذكرونها وهي ان احدى عاملات دهن موائي الساعات المنيرة كانت نائمة في غرفتها ذات ليلة فاستيقظت لتتناول دواءها وكانت الغرفة وقتئذ حالكة الظلام فذعرت تلك الشابة اذ رأت شعاعاً منعكساً على المرآة منبعثاً من جسمها نفسه !! . فكان ذلك الحادث الرهيب محققاً لمزاعم الاطباء الذين كانوا يعالجون تلك العبية التعسة وهي أن اصابتها كانت تسمماً راديومياً

وقوارير مياه الراديوم الصناعية التي يزعم باعثها احتواءها على الرادون أي الغاز الثقيل الذي ينبثق من الراديوم بعد قذفه أشعة ألفا ، قد انتشرت في أسواق امريكا من بضع سنوات وكذلك الاجهزة المسماة « منشطات الابدان » او قذّافات الراديوم التي يدعي صانعوها أنها تحول مياه الحنفيات العادية ماءً مشعًّا في الحال . وقد بلغ ما بيع من تلك الاجهزة الصغيرة

١٥٠٠٠٠ في سنة واحدة وذلك في المدن الواقعة على ساحل المحيط الهادي . وكان صانعوها بعد وفاة بن زيعفرون عنهم اعلانات باهرة ولا سيما لما صرّح محافظ مدينة نيويورك انه اعتاد استعمال جهاز منها عدة سنين فاستفاد منه فوائد جمّة . وفي هذا السدد يقول الدكتور مارتلند إن تلك الأجهزة لا تأتي بفائدة الا من قبيل الاستيحاء الذاتي . لان كثيراً من الغاز يفلت في الهواء عند تحضيره فلا تتسع معدة الانسان لمقادير الكبيرة من تلك المياه المحتوية على قدر مفيد من ذلك الغاز — وهذا القول عينه ينطبق على مياه الرادون المملوءة بها القوارير

وقد ظهر في السوق أخيراً نوع جديد من مركبات الراديوم ونعني به (شكولاطة الراديوم) التي تصنع في المانيا ويعلن عنها انها من مجددات الشباب وانها علاج ناجع لأكثر امراض الجنس البشري . فاذا ألف الانسان أكلها فلا بدّ من اصابته عما لا تحمد عقباه ، والواقع انهُ «ما من طبيب نطاسي يصف لمريضه الراديوم كعقّار، لان ما يستعمله الطب انما هو أشعة الراديوم»

﴿الراديوم في العلاج﴾ ويموت في الولايات المتحدة كل سنة أكثر من ١٠٠٠٠٠ مصاب بالسرطان وليس لدى الاطباء أسلحة معروفة حتى الآن لمكافحة ذلك الداء العياء سوى المبضع وأشعة الراديوم والاشعة السينية «المشابهة لاشعة غمّا» والمعروف للآن ان الراديوم علاج ناجع لبعض أنواع من اصابات السرطان في ادوارها الاولى . اما في أحوال المرض الشديدة فقد ينفع الراديوم في اطالة عمر المصاب وراحته من العذاب . ولذلك طريقتان وهما (اولاً) الراديوم نفسه كمنبع مصدر الاشعاع و(ثانياً) منبثقات الراديوم اي الرادون الذي يحقق هذا الغرض

والراديوم الفلزي مادة معدنية بيضاء اللون لا يمكن ادخارها دون استهدافها للتغير — اذن الراديوم المستعمل في الطب هو املاح الراديوم اي سلفات الراديوم لأجل طريقة العلاج المباشر . وبروميد الراديوم القابل للذوبان لتوليد الرادون

ومتى كان الراديوم عينهُ مصدراً الاشعاع ، وجب حفظ ملحه في أنابيب زجاجية محكمة السد توضع في شُنَف معدنية مصنوعة من النحاس الأصفر فيمتص الزجاج أشعة ألفا ويمتص المعدن أشعة بيتا ويقوم في الوقت نفسه مقام مرشح يخترقه أشعة غمّا الشافية من دون أن تفقد أي شيء من قوتها غالباً . وفي حالة معالجة أي مريض يتناول الطبيب الغلاف المعدني ويدنيه من جلد المريض مسافة معينة حتى تمر بها يخرج اليه من زجاجات اختراق الاشعة جلده في كل اصابة

ويستعمل ملح الراديوم للعلاج بطريقة اخرى وهي وضعه في أنابيب زجاجية دقيقة تغلف بغلف معدنية تدعى (الابر) تغرز في أنسجة المريض بكمّيات فولاذية وتترك فيه بحسب ما تمس اليها الحاجة . ومن المعادن التي تتخير الاشعة غير المرغوب فيها وترشح أشعة غمّا — الاليومنيوم والنحاس الاصفر والنحاس الاحمر والفضة والرصاص والذهب والبلاتين ولما كان البلاتين افضلها فان الابر المشار اليها تصنع منه الآن

وليس الرصاص افضل معدن رخيص صالح لتلك الغاية فحسب بل هو يفوق الفضة ولذلك يستعمل لصنع الانابيب الكبيرة التي تستخدم لنقل الراديوم . واذا ما استعملت منبثقات الراديوم مصدراً للاشعاع بمثابة غاز رادون ، وقوته تكاد تشبه قوة الراديوم عينه الا انه قصير العمر ، وجب حفظها في أنابيب زجاجية دقيقة محكمة السد تُغشّى بأغشية من الذهب الفين والبلاتين وتسمى (البزور) وهذه تُصرَّف في الاورام السرطانية بكميات كما تفرز ابر املاح الراديوم الكبيرة . وقد شاعت في السنوات العشر الاخيرة طريقة منبثقات الراديوم في عالم الطب وأقبل عليها اطباء معاهد السرطان علاوة على العلاج المباشر لان لها عدة فوائد اذ تستعمل اولاً في شتى الاصابات وثانياً انه في حالة استعمال « بزور » الرادون لا يحتاج الامر الى ملازمة الفراش — ولا الى مراقبة المريض بل يكفي وجود المريض في حجرة المستشفى فيحصل على الضمان التام : وكل ما يجب حينئذ عمله ان يفرز مقدار من الراديوم الثمين نفسه في أي جزء من أجزاء جسم المريض . وفي الحالة الثالثة تترك « البزور » ذات الغشاء الذهبي الفين او البلاتين في أنسجة العليل من غير ضرر — وتكون تلك البزور متصلة بخيط لكي يسهل اخراجها عند الحاجة . ويبلغ متوسط ثمن تلك البزرة الصغيرة ٢٠ ريالاً أمريكيًّا ، وتستعمل مرة واحدة فقط . ولكن طريقة المنبثقات فيها نقص وهو ان الرادون — وله تأثير الراديوم نفسه — يفقد قوته في ثلاثة أيام و ٢٠ ساعة . ويفقد قوته كلها في شهر واحد . اذن كل جرعة من الرادون تضعف بنفسها ولذلك يجب تجديد البزور دائماً لكي تؤثر التأثير المطلوب . وهذا ما يفسر لنا غرضاً مباغ ضؤولة الفائدة التي تجنى من شرب مياه الرادون المحفوظة في القوارير . قال الكاتب الامريكي منشىء هذا المقال : — وقد زرت من عهد قريب معملاً من المعامل الكيماوية التي تحضر فيها بزور الرادون للمستشفيات ولعيادات مرضى السرطان وللاطباء الخصوصيين ، فقادني الطبيب المختص الى حجرة مغشاة بالرصاص فلما دخلتها قال لي مرشدي . ألا تدهش اذا شاهدت الآن من الراديوم ما ثمنه ربع مليون دولار ؟ فأجبته بالايجاب ففتح لي خزانة فولاذية صغيرة مبطنة بالرصاص فرأيت فيها قارورة . فقلت دهشاً أين الراديوم ! ! ! فأجابني إنه أمامك في تلك القارورة

والاطباء مع تقديم العظيمة بكون الراديوم عاملاً شافياً ، موقنون بخطره على الصحة — والدليل على ذلك الاحتياطات المحكمة التي يتخذونها حين استعماله

والواقع ان الاطباء الذين يستعملون الراديوم يتقون أضراره بالقفافيز المصنوعة من المطاط المرن فيلبسونها قبيل تناول الانابيب المحتوية على ملح الراديوم وبزورات الرادون وقاية لأيديهم من الاحتراق بأشعة بيتا . وزيادة لا يلمسون بتاتاً الانابيب أو الابر وانما يلتقطونها بملاقط خشبية — وينقل الراديوم في المستشفيات من غرفة الى اخرى بصناديق ذات مقابض

طويلة — وعند ما يستعمله الطبيب في العلاج يجب ان يضع حائلاً من ألواح الرصاص بينه وبين الراديوم الذي يعطيه المريض ويشترط الا يقل سمك ذلك الحاجز عن بوصة واحدة

وفي المستشفيات والعيادات يحفظ الراديوم في تجاويف تحوف في كتل كثيفة من الرصاص تخزن في قبو مبطن بالرصاص بعد ما امكن عن حجر المرضى والمكاتب ومحال السكنى

ولقد اصعار الراديوم لا تستطيع المستشفيات اقتناء مقادير كبيرة منه مع ان اثمانه قد نقصت في السنين الاخيرة نحو ٥٠ في المائة. ولكن الراديوم مازال أثمن مادة في العالم اذ يبلغ ثمن الجرام الواحد منه في وقتنا الحاضر ما يتباين من ٥٠ الف الى ٦٠ الف ريال بينما الغرام الواحد من الالماس يساوي ٣٠٠٠ ريال اميركي. وثمن الغرام من الالماس المستعمل في الصناعة ٨٧٥ ريالاً اميركياً والغرام من البلاتين ثمنه ٢ ريال اميركي والجرام من الذهب يساوي ٧٠ سنتاً

﴿استخراج الراديوم﴾ وسبب هبط اسعار الراديوم صعوبة استخلاصه من التبر الذي يحتويه . ومما يذكر في هذا الموضوع ان مدام كوري مكتشفة الراديوم لما زارت الولايات المتحدة منذ بضع سنوات لم تكن تملك من الراديوم حتى ذلك العهد ميكروغراماً واحداً فأهدى اليها حينئذ غرام كامل من الراديوم فتبرعت به الى مستشفى بمدينة وارسو عاصمة بولونيا . والمعروف ان الغرام الواحد من الراديوم يقتضي تشغيل ١٥٠ رجلاً اكثر من شهر في اكثر من ٥٠٠ طن من التبر واستنفاد ١٠٠٠٠ طن من المياه المقطرة و ١٠٠٠ طن من الفحم الحجري و ٥٠٠ طن من المواد الكيماوية

وكان نحو سبعة اثمان محصول العالم من الراديوم يستغل من تبر الكرنوتيت من ولايتي يوتا وكولواردو باميركا . اما اليوم فقد اصبح استخراج الراديوم يكاد ينحصر في بلاد الكنجو البلجيكية في اواسط افريقية حيث عثر المنقبون في السنين الاخيرة على عروق معدنية كبيرة غاصة بالبتشبلند اي اوكسيد الاورانيوم وغيره من انواع التبر المحتوي على الراديوم — وتهيمن على سوق الراديوم الآن شركة احتكار بلجيكية . ولما كان تبر راديوم الكونغو اغزر مادة راديومية من سواه فهو اسهل تمحيصاً من غيره وذلك سبب انخفاض ثمن الراديوم الى نصف اسعاره الاصلية من عهد قريب

والبيان بعض طريقة تمحيص الراديوم : — يستخرج وكار الراديوم من ناجوا فتزال بكثير من الصخور التي لا قيمة لها فيصنف ويعبأ في الاكياس ثم ينقل الى حيث يطحن ثم ينقل الى معمل التمحيص حيث يعالج بالمواد الكيماوية التي تزيل جميع املاح الباريوم والراديوم ثم يفصل مقدار الراديوم الضئيل عن مقدار الباريوم الجسيم المقترن به — وذلك العمل وحده يحتاج الى ٢٥ عملية كيماوية منفصلة بعضها عن بعض وآخرها عملية التبلور المكررة اي تبخير المحلول . ومع كل ما استجد من التحسينات العلمية في اثناء الاحدى

والثلاثين سنة التي انقضت على اكتشاف الراديوم ما برحت عملية التمحيص الحالية مشابهة من كل الوجوه للعملية القديمة التي اخترعتها مدام كوري سنة ١٩١١

وملح الراديوم النقي يشبه اول وهلة السكر المسحوق المعروف عند التجار باسم « سكر بودرة » — وتنطلق منهُ اشعة فسفورية غريبة ضاربة الى الزرقة فاذا وضع في الانابيب الزجاجية المحكمة السد فقد بعض ذلك اللون واكتسب لوناً مائلاً الى الدكنة. واذا اريد استعمال الراديوم في الصناعات كدهن ارقام موانى ساعات الجيب والخيطان بالدهان المنير يخلط مقدار دقيق من الراديوم بكبريتور الزنك فيتألق بنور اصفر مائل للخضرة

واذا فقدت قطعة منهُ توصلوا الى العثور عليها بالكاشف الكهربائي المسمى الكتروسكوب وهو جهاز بسيط بديع صغير الحجم مركب من شريطين من الورق الذهبي معلقين على سلك معدني فاذ شحن السلك بالكهرباء انفصل الشريط عن الآخر وظلاَّ منفصلين ما دام الهواء المحيط بهما عازلاً للكهرباء اي غير موصل لها لا يدع الشحنة الكهربائية تفلت من الورقتين. ولما كان الراديوم وغيره من المواد المشعة تجعل الهواء موصلاً للكهرباء فاذا اتفق وضع الالكتروسكوب قريباً من الموضع الذي ضاعت فيهِ قطعة الراديوم تضامّت الورقتان كأصلهما ووجد الكنز الضائع . ومما يروى بشأن ضياع قطع الراديوم أن جمهوراً من المتنزهين في احد متنزهات برلين دهشوا اذ رأوا زمرة من الجنود حراس المتنزه يقودها ملكي « واحد من غير الجنود » تزحف على ايديها وركبها على الارض حول ملعب التنيس في المتنزه وكانوا يحملون الكتروسكوباً باحثين عن قطعة صغيرة من الراديوم زنتها ٢٠ ملليجراماً وثمنها الف ريال امريكي كانت ضائعة من طبيب فقدها عند دخوله مقصورة متصلة بذلك الملعب

ويقدر الراديوم النقي الموجود في العالم الآن بنحو ٣٠٠ جرام اي ٣ رطل انكليزي ثمنها ١٦٥٠٠٠٠٠ من الريالات الاميركية ونصف ذلك المقدار موجود في الولايات المتحدة (بمستشفى بلفيو بمدينة نيويورك) وهو من المعاهد الخيرية التابعة للمجلس البلدي هناك ويُمَدُّ هذا المقدار اكبر نصيب من راديوم المكونة اختص به مستشفى واحد . وربما يرخص سعر الراديوم اذا امكن تنقيته بنفقات قليلة من الركاز الذي اكتشف اخيراً في منطقة بحيرة الدب الاكبر بكندا

وقد ألقى حديثاً الدكتور بيجوت Piggott الطبيب في معهد كارنيجي خطبة في الجامعة الجيولوجية الاميركية في مدينة واشنطون ذكر فيها ان البحر يحتوي على راديوم أكثر من البر وقد دلّت التجارب على وجود بليون طن منه في قعر المحيط الهادي ! فدهش السامعون كل الدهش (انظر مقال الثروة في البحر المنشور في مقتطف فبراير الماضي) ولكن تحقق ذلك التكهن واستخرج ذلك الكنز النفيس أصبح سعر الراديوم كسعر سائر العقاقير الطبية المعتادة

عوض جندي

الدين والعلم

في الصورة التي نشرناها في مقتطف دسمبر الماضي بعنوان «ملك الحسب» استشهد الكاتب بفقرات من مقال طويل كان حضرة الباحث الفاضل اسعد السبتي قد انحف به مجلة « الجامعة » منذ بضع وثلاثين سنة وقد طلبت اليه طائفة من القراء الذين نبههم هذه الباحث ان يعيد نشر المقال برمته ، اذ رأوه في نخبة من احكام الفكر فطلبنا الى الاستاذ قبولاً شكري ان يعود الى مجلدات الجامعة (١) وينقل المقال المذكور فاي الطب ونحن نشكر له عنايته هذه « المحرر »

بين رجال الدين وبعض رجال العلم تناظر قديم العهد يبدأ تاريخهُ من يوم اكتشف العقل البشري أبسط النواميس الطبيعية فوضع بذلك حدًّا لعبادة الاشياء المحسوسة . والذي يسوء كل معتدل من هذا العداء ما نراه من تطرف كل من الفئتين : الاولى في الاثبات والثانية في الانكار . فمن جهة ترى رجال الدين يبالغون في اثبات مذاهبهم وينزلون جميع عقائدهم وآرائهم — حتى ما كان منها يعارض العقل — منزلة الحقائق اليقينية الراهنة فيقابلهم رجال العلم بالانكار المطلق وقد يتمادون في انكارهم فيجحدون ان هنالك حقيقة قام عليها بنيان الاديان

وعندنا ان العلم مصيب اذ يعمل على دحض ما غشي الدين من الاباطيل والاوهام لانهُ اذا لم يكن من شأن النور ان يضع حدًّا للظلمة فما يكون شأنهُ يا ترى ؟ الا انهُ يخطىء كل الخطأ عند ما ينظر الى العقائد الدينية بعين الازدراء والاحتقار ويحسبها عارية عن كل اساس يحط كثيراً من العقل البشري الذي انما عنه ورثت الانسانية ما لديها من الحقائق

ومن ذا يا ترى يرى رجلاً من نوابغ بني الانسان كافلاطون وأرسطو وبيكن توما وديكارت وتيوتن وكوزين وغيرهم يشغلون قسماً كبيراً من مؤلفاتهم بالبحث في ما وراء الطبيعة واثبات الاصول الدينية العامة ثم يجرأ بعد ذلك على القول انهم انما كانوا في ما كتبوه من هذا القبيل يحيكون أوهاماً بأوهام ويشيدون على غير اساس . اولا يبعث هذا على الريبة بجميع احكام العقل ومدركاته ؟

ولسنا نكتفي بهذا القول وحده لاثبات الحقيقة الدينية العامة بل نحن مورِدون على ذلك ادلة اخرى معتمدين فيها على ما كتبه الفيلسوف هربرت سبنسر اشهر فلاسفة الانجليز في هذا الزمان

اذا امعنت النظر في تواريخ الامم الغابرة ثم عدت بنظرك الى عمران الشعوب الحاضرة ترى انهُ ما من امة من الامم قديمة او حديثة خلت من بعض العقائد الدينية ولئن اختلفت تلك العقائد من حيث نوعها ودرجتها في سلم الارتقاء . فهل يسلم عاقل بوقوع مثل هذا بالمصادفة والاتفاق ؟ او ليس من شأنهِ ان يحملنا على ترجيح صحة ما قاله رنان من ان الانسان دينّ اعني انهُ ذو نزوع فطري الى الدين

---

(١) مجلة الجامعة : العدد الثامن من المجلد الثالث

الا انهم يعترضون بوجود بعض قبائل همجية لا نجد عندها ادنى فكرة ابتدائية عن علة الكائنات والخليقة والخلق . وان هذه الافكار لم يبد لها أثر للوجود الا بعد أن بلغ الانسان درجة ما من الترقي العقلي فنجيب ولو صح هذا فلا يغير شيئاً من النتيجة التي نرمي اليها لانهُ متى سلمنا ان جميع القبائل التي ارتقت مداركها العقلية بعض الارتقاء وجدت عندها افكار دينية ادركنا ان هذه الافكار تنشأ بالضرورة عن ترقي العقل

وما نراه من التنوع بين العقائد يساعد على تأييد هذه النتيجة اذ انه يدل على أن عقائد كل أمة نشأت مستقلة عن عقائد الاخرى وان وجود الامم الكثيرة في ظروف وأحوال متناسبة مع اختلاف الازمنة والامكنة أدى الى ايجاد افكار متماثلة ونتائج متشابهة

وزعم آخرون ان جميع ما يذكره لنا تاريخ الأديان من العقائد هو مخترعات عرضية وضعها الكهان والزعماء بقصد خداعة العامة والتمويه عليهم وهذا زعم لا يستطاع اثباته اذ لا يتفق ان يقوم عند جميع الامم القديمة والحديثة المتمدنة وغير المتمدنة افراد من الهيئة يتواطأون على خداعة الآخرين وتكون الوسائل التي ينالون بها اربهم متماثلة احوالها كل هذا التماثل

وان قيل ان الاختراع الأول للدين وقع قبل ان تفرقت طوائف الجنس البشري في انحاء الارض وان الجراثيم الدينية انتقلت مع كل قبيلة عند جلائها عن الوطن الاول قلنا ان علماء اشتقاق اللغات يفندون هذه المزاعم لانهم يثبتون بالادلة ان تفرق الجنس البشري حصل في زمن لم تكن اللغة ارتقت فيه الى درجة يستطاع عندها التعبير عن الافكار الدينية

ومع هذا فلو أمكن وجود ادلة تثبت كون الاديان مخترعات عرضية فلا يمكن بهذا الافتراض التعليل عن كل حادث في الدين لانه اذا كانت الاديان مخترعات جماعات متفرقة من الكهان فلماذا نرى تحت الفروع الدينية المتنوعة أحوالاً ومبادىء متماثلة . واذا كانت جميعها أباطيل واوهاماً فلماذا نرى النقد العلمي الذي استطاع اسقاط العقائد الخاصة لم يتمكن من ضعضعة الفكرة الاساسية التي قامت عليها تلك العقائد . ولماذا نرى العقائد الدينية بعد إذ تسقط سقوطاً عظيماً عند امة كما حدث في أواخر القرن الثامن عشر في فرنسا لا تلبث ان تنهض ثانية ان لم يكن بمظهرها الذي كان لها من قبل فبجوهرها القديم يبقى هو نفسه

ثم هناك من يزعم ان الافكار الدينية هي من نتائج الشعور الديني فهو الذي يجعل العقل يحيك صوراً وهمية لا يلبث ان يتخذها شيئاً فشيئاً حقائق راهنة . وهؤلاء يسلمون ضمناً بوجود الشعور الديني اذ لا يرون سبيلاً لانكار شعور يحس به السواد الاعظم من بني الانسان وقد كان له اعظم أثر في التمدن في العصور التاريخية . وما برح لعهدنا هذا أساس كثير من النظامات الاجتماعية والباعث على كثير من الاعمال العظيمة المفيدة الا ان زعمهم هذا لا يحل المسألة وانما يعيد قليلاً الصعوبة في حلها . لانه سواء كان الشعور الديني منشأ الفكر الديني

او كان للشعور والفكر مصدر واحد فلا بد لنا ان نسأل من اين جاءنا هذا الشعور ؟

وجواباً على هذا نجد أمامنا احد افتراضين : اما ان يكون هذا الشعور خلق دفعة واحدة بفعل خلق خاص واما انه نشأ تدريجياً تبعاً لناموس الارتقاء . فاذا اتبعنا الاول الذي اتبعه الاقدمون وعليه اكثر البشر لعهدنا هذا فالمسألة تكون قد حلّت اذ يكون الانسان قد منح الشعور الديني من مبدع حكيم فهو منطبق ادقّ على مقاصد هذا المبدع . وان اتبعنا الافتراض الثاني وسلمنا بما يوجبه مذهب الارتقاء من ان القوى هي نتيجة التطورات العديدة التي طرأت على الانسان بفعل المؤثرات والاحوال الخارجية عليه نعين ان نسلم بوجود احوال خاصة أوجبت نشأة الشعور الديني ومن ثمّ يكون حكمه حكم سائر القوى النفسية واذا صح ايضاً ما يوجبه مذهب الارتقاء من ان الغاية التي تتجه اليها التطورات الارتقائية هي اعداد الحي لاستعمال ما هو من لوازم وجوده امكننا ان نستنتج من هذا ان الشعور الديني من البواعث المؤدية لسعادة البشر . اذن فسواء كان الشعور الديني خلق دفعة واحدة او نشأ تبعاً لناموس الارتقاء فالنتيجة من كلا الافتراضين توجب علينا احترام الشعور الديني

وهنالك ملاحظة اخرى ينبغي ان نضرب عنها صفحاً وهي ان العلم مهما اتسعت دائرة اكتشافاته فهو عاجز كل العجز عن ان يروي ظمأ العقل البشري الى المعرفة . فهما أمعنا في الاكتشاف العلمي فانهُ يبقى لدينا ولدى من يأتي بعدنا مسألة وهي : ماذا يوجد بعد ذلك ؟ ومهما تقدمنا في التعليل عن اصل الكائنات فلا يمكننا ان نجد مناصاً من السؤال : ما الذي يعلل لنا التعليل نفسه ؟ فاذا كان العلم هو اشبه بدائرة تتسع شيئاً فشيئاً فنموه لا يكون من شأنهِ الاّ ان يزيد نقط اتصاله بالمجهول الذي يساوره من كل جانب. ويترتب على ذلك ان يوجد على الدوام طريقان ينتهجهما الفكر البشري وهما العلم والدين

اذن فالعقل سيشتغل في الاستقبال كما يشتغل في الحال ليس فقط في البحث عن الحوادث الوضعية وعلائقها بعضها ببعض بل بشيء لا يستطاع اتيانه بالادلة الواقعة تحت الحواس ولا بدّ من افتراض وجوده عند النظر الى الحوادث واعتبار علائقها بعضها ببعض . وينتج عن هذا انه ما دام العلم لا يستطيع وحده ان يشغل جميع القوى الانسانية وما دام العقل يوجه انتباهه ابداً الى ما وراء حدود العلم فسيبقى محل للدين على الدوام لان الدين يمتاز بكون موضوعه وراء دائرة العلم والاختبار . والحاصل من جميع ما تقدم ان وجود الافكار الدينية عند جميع الامم ونشأتها مستقلة بعضها عن بعض وحيويتها المستمرة في المجتمع الانساني ووجود الشعور الديني ايّا كان منشأه واتجاه الفكر الى ما وراء حدود العلم . كل هذا من شأنه ان يثبت ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لا سطحية كما يتوهم البعض ويدل على ان هنالك حقيقة اساسية قام عليها بنيان الاديان

باب الزراعة والاقتصاد

صناعة الالبان في القطر المصري

وهل يمكن ان تصبح مورداً للثروة؟

١ — حاجة مصر الى محصول اقتصادي

تنافس مصر الان في قطنها منتوجات اخرى كالحرير الصناعي . كما ان اقطاراً اخرى تنافسها في انتاج القطن نفسه . ذلك في حين ان مصر وهي من ارق البلاد الزراعية ، لا تنتفع بالكثير من المنتوجات الزراعية التي تستغلها بلدان زراعيـة اقل منها شأناً . ولا شك في ان صناعة الالبان ومتوجاتها في مصر تكاد تكون معدومة ، والاهتمام بها قليل . وفي هذا المقال بحث ضاف في الموضوع نرجو ممن لهم اهتمام بهذه الناحية او غيرها من شبيلاتها ان يقوموا على بحثها واظهار نواحيها المختلفة . وهذا البحث للاستاذ « مكيتر » من اساتذة كلية اسيوط الاميركية وله خبرة واسعة علمية وعملية في صناعة الالبان وبحث اصولها واساليبها في الولايات المتحدة الاميركية . وما يلي الجانب الاول منه

تآمرت خصوبة تربة مصر وحرها البديع مع نقص مصادر القوى المحركة فيها على القضاء بأن تعتمد البلاد في المستقبل ، كما كانت تعتمد في الماضي ، على الزراعة . ومن المتعذر الآن ان تنشىء البلاد دور الصناعات الثقيلة ؛ بما فيها الآن من مصادر القوى المحركة او بما تؤمل ان تنتفع به في المستقبل . ومع ذلك فان ازدحام السكان ، واستمرار ازديادهم ، مع ارتفاع مستوى المعيشة وضيق ميدان العمل امام جمهور الشبان الذين تخرجهم المدارس سنوياً ، كل من هذه العوامل يتطلب مخرجاً اما عن طريق الصناعات الثقيلة ، او عن طريق توسيع ميدان العمل في الاستغلال الزراعي الكثيف intensive

وقد يفتر ثغر القارىء عن ابتسامة شك عند ما نشير الى زيادة الاستغلال الزراعي في مصر . الم تحسن البلاد الاستفادة من الزراعة في ظرفها الحرج ، اولم تفلح كل شبر من ارضها الصالحة للزراعة المحصورة المساحة او لم تنجح في انتاج معظم قوت الملايين من سكانها وفي نفس الوقت تنتج محصولاً يباع نقداً فتشتد بثمنه ثمن حاجياتها الاخرى ؟

ولكن هنا مكان الصعوبة ؛ فان هذا المحصول النقدي قد انحصر في مادة واحدة لا غير هي القطن . وعدم كفاية الاعتماد الاقتصادي على محصول نقدي واحد يتضح لنا شيئاً فشيئاً على مرور الزمن ، ذلك انهُ ما زالت الاقاليم التي يمكن ان تنتج قطناً مزاحماً للقطن المصري غير مستكملة الاصلاح وما زالت الطلبات على القطن تتدفق لشرائه بأي ثمن واستعماله في صنع المفرقعات وغيرها من لوازم الحرب ، يظل القطن محصولاً مربحاً . وفعلا ارتفعت اثمان الارض ارتفاعاً عظيماً بسبب تضخم اثمان القطن ، وظهرت على كل شخص سيماء السعادة وعلامات

الثراء . ولكن مثل هذه الثروة تصنع للشعب اجنحة وتطير ، فان الحروب لا يمكن ان تستمر على الدوام . وليس ثمة حاجة الى القطن لاغراض الحرب الآن . والواقع ان كثيرين من صانع القطن خرجوا مضطرين عليه العمل في الحرير الصناعي . فلم يهبط ثمن القطن هبوطاً عظيماً فحسب بل صار منحدراً من اسعر الى ادنى منه . فمحصولٌ نقديٌّ مفرد معرض للمضاربات لا يصح ان يتخذ اساساً ثابتاً تبنى عليه ثروة البلاد القومية

عندما يوضع كل البيض في سلة واحدة يتحتم الاهتمام الكلي بسلامة تلك السلة . ولكن لاضمان لحالة من هذا القبيل في مصر الآن فانهُ رغم تمكنها من وضع كل ما تملكه من البيض في سلة واحدة يتحتم عليها ان تعهد بسلامة السلة الى الايدي الخشنة في السوق العالمية

ولقد اقترحت علاجات متنوعة لتخفيف ضرر الاستسلام لمحصول واحد ان لم يمكن لرفع الضرر بتاتاً . وها نحن نتناول اهمها باختصار ، ملاحظين ان قيمتها لا تقاس بمقتضى التصور الشخصي او النفع المحلي بل بمقتضى النواميس الاقتصادية الثابتة

واكثر هذه المقترحات رواجاً هو ان مصر يجب ان تهتم بزراعة اكثر تنوُّعاً وان تسعى لان تنتج ما يكفيها من الطعام ولو ادّى ذلك الى انقاص محصولها النقدي . وغرض المروجين لهذا الاقتراح مزدوجٌ فمن جهة يزداد انتاج الطعام في البلاد ومن الاخرى يقل المنتج من القطن فيرتفع ثمنهُ . وان سلمنا بامكان تنفيذ هذا الاقتراح فقد تفوز البلاد بتحقيق الشطر الاول من الغرض اما الشطر الثاني فمصيره الخيبة ، لانهُ عند ما تنقص مصر انتاجها القطني يسرع اقليم آخر الى زيادة المزروع قطناً فيه . فاتباع سياسة التنقيص المقصود في الانتاج لا يقلل المنتج من القطن ، حتى الطويل الشعرة منه ، ولا يرتفع السعر ارتفاعاً مستمراً

وهل من حكمة اقتصادية في هذا الاقتراح ؟ ان محصول الطعام ، فداناً بفدان ، اقل قيمة نقدية على وجه الاجمال من محصول القطن ولو الصنف الرخيص منهُ . ولولا ذلك لما احتاج الناس الى الحاح في التحول عن زراعة القطن بل لكان يتم ذلك من تلقاء ذاته . ان قيمة القطن ، عادة ، اكثر من قيمة غيره فلمَ لا نزرع القطن ونبيعه ونشتري بثمنه طعاماً ويتبقى القليل من الثمن لشراء الضروريات الاخرى ؟ وهذا امر ضروري فان معظم البضائع المصنوعة ان كانت منسوجات او وقوداً او حتى طلبيات الري وآلات اخرى لازمة للزراعة نفسها — كلها — يتحتم شراؤها من الخارج ، وبطريقة من الطرق ، ينبغي دفع اثمانها . ومن الواضح انهُ لا يمكن دفع ثمنها بطعام يستهلك داخل البلاد . فحكمة ابدال محصول باخر او بالتنويع العام في المحصول بدل جانب من القطن تقوم او تسقط بالنسبة لما تأتي به من القيمة النقدية . وبهذا القياس يظهر ان القطن المصري يحفظ امتيازه عند ما يقارن باي نظام من تنويع المحصولات

وهناك اقتراح ثان يتجه نحو زيادة انتاج المحاصيل النقدية الثانوية الموجودة . لم لا نزرع

وتبيع مقداراً اوفر من تلك المحاصيل التي برهنت على مناسبتها للبلاد وجودة انتاجها. والصعوبة في ذلك انهُ حتى في حالة أثمن هذه المحاصيل الثانوية نجد ان قيمتهُ ضئيلة للغاية . فان محصول البصل يأتي في المرتبة الثانية بعد القطن في الصادرات ولكن قيمة المصدر من البصل ليست سوى جانب يسير من قيمة القطن . فقد كانت سنة ١٩٢٩ جزءاً من اثنين وخمسين جزءاً من الصادر كلهِ، بحسب تقويم الحكومة ، فضلا عن ان مقدار ما يمكن ان يباع من البصل محصور لان اسواق العالم تكتظ سريعاً بهذا الخضار المدرّ للدموع — اذ ان طلبه ليس قابلاً للاتساع

ومحصول ثانوي ثان تصدره مصر هو البيض . فقد كان قيمة ما صدرت مصر من سنة ١٩٢٩ بالمقابلة مع القطن كنسبة ١ — ١٤٠ . ويمكن اعتبار معظم هذا المحصول ، في الوقت الحاضر ، انهُ محصول فضلة . فكون الفلاح ، او بالحري زوجته ، تربي في المنزل بضع دجاجات تطعمها الفتات والفضلات ، ولولا ذلك لزميت بدون نفع — هذا — امر يختلف عن انشاء امكنة للتفريخ التجاري تقتضي نفقات كبيرة للطعام والعمل . وحتى تنجح مشروعات من هذا القبيل يتحتم ضمان الانتاج معظم السنة وهو امر لا يتوفر الا على سواحل البحر الابيض المتوسط. فان حرّ الصيف يقلل الانتاج ويخفض صنف البيض ويضعف حيوية الدجاجة نفسها. ومن المرجح ان مقدار المحصول الحاضر من البيض يمكن زيادته زيادة مكسبة اذا بقي كما هو شيئاً ثانوياً ويمكن تحسين صنف الدجاج وتنظيم سوق البيض بحيث يرتفع ثمن الصنف الافضل الطازج منهُ . ولكن حتى اذا سلمنا بذلك كلهِ فان انشاء مزارع الدجاج في مصر يكون مشروعاً محفوفاً بالمجازفات فان الثمن الذي يدفع للبيض عادة لن يعادل نفقات تحصيله

وثمة اقتراح ثالث يوجه نظر الفلاح المصري الى انتاج الحبوب انتاجاً كثيفاً intensive . ولكن الحبوب محصول عالمي ، كثيراً ما يزرع في ارض رخيصة ، وبمساحات واسعة ، وبمعاونة آلات دقيقة الصنع وسريعة الاثر . ولما كانت الحبوب لا تفسد بسرعة فانها تنقل بسهولة من مكان الى آخر ولذلك فان حث الفلاح المصري على زيادة مجهوده في زراعة الحبوب معناه حثهُ على وضع ارضهِ المرتفعة الثمن وعملهِ اليدوي في موقف منافسة لارض رخيصة الثمن تفلحها آلات قوية . واذا زيدت رسوم الجمارك على الحبوب الواردة من الخارج ليتمكن الفلاح المصري من احتكار السوق الداخلية فلا يكون ذلك سوى نقل هذه الخسارة الاقتصادية من على كتف المنتج المصري الى كتف اخيه المستهلك المصري

ويشابه هذا الاقتراح اقتراح آخر يحبذ زيادة اهتمام مصر بتربية الماشية حتى تتمكن من سد كل حاجتها الى اللحوم وربما يصدر بعضها الى الخارج وهذا أيضاً يحملها على منافسة ارض ارخص جداً من ارضها هي ارض المراعي بالارجنتين وكندا واستراليا وغيرها

واتجه فكر البعض الى الاهتمام بمحصول الفاكهة والخضراوات وتصديرها الى الاسواق

الاوروبية . ويظهر ان هذا المشروع له أساس اثبت من المشروعات الاخرى فان مصر الآن تنتج مقادير وافرة من الفاكهة والخضروات الجيدة الصنف . على ان وارد مصر الآن من الفاكهة — الطازجة ، والمجففة ، والمحفوظة في العلب — يزيد زيادة محسوسة عمّا تصوره منها . وهذا ضروري بسبب الرغبة في أنواع من الفاكهة لا تجود محليًّا وايضاً لان مواسم الانتاج — كموسم البرتقال اليافاوي مثلاً — لاتتفق تماماً مع مواسم مصر

ومع كل ما يمكن عمله في تحسين زراعة الفاكهة والخضراوات وتصديرها الى الاسواق الخارجية يجب ان نذكر انه لا طريق سلطاني للنجاح تستطيع مصر ان تسلكه دون ان تجد منافسة ومزاحمة . فان ايطاليا وفرنسا تنتجان فاكهة وخضراوات من أصناف جيدة . وحتى تستطيع مصر ان تدخل هذا الميدان ينبغي الاعتناء التام بتحسين الاصناف والتدقيق في فرز البضاعة وحزمها للتصدير . وقد رأى الكاتب منذ بضعة أشهر شحنة كبيرة من الطماطم مرسلة الى اليونان وهي ثمار ليس لها حجم منتظم فيها تجويفات البزور كبيرة وكانت وقت شحنها لم تنتهِ ، سوى امتلاء جزئيًّا ، باللب . وذلك مما يرثى له إذ أن البلاد تستطيع أن تنتج صنفاً ناعماً جذاباً مملوءاً باللب وبه قليل من البذر وخال من التجويفات الفارغة ولا يحتاج الامر الا الى الحصول على بذار نقية من هذا الصنف الراقي

والدول الجنوبية في اوروبا يسهل عليها ، ايضاً ، الوصول الى الاسواق المرغوب فيها . فان حزم مثل هذه المحصولات الضخمة وتبريدها وشحنها تضع العراقيل القوية في طريق المنتج البعيد عن السوق اذ ان الاسواق يسهل ان تكتظ بمثل هذه المحصولات السريعة العطب ولذلك كثيراً ما ينخفض الثمن فجأة . وثمة حالات كان فيها كل المتحصل من الشحنة اقل من نفقات الشحن والنقل . وتجفيف الفاكهة والخضراوات يخفض وزنها الى العشر تقريباً وتجعلها غير قابلة للعطب وبذلك تستطيع مصر أن تنافس الممالك الاخرى بعدل ، على ان هذا ميدان واسع ويستلزم تحرياً دقيقاً

وبين كل هذه ، من المقترحات التي يقصد بها تخفيف الضغط عن الزراعة بمصر لم تذكر صناعة الألبان سوى همساً . ومع ذلك فان الألبان وما يصنع منها هي موضوع اقتراحنا الذي نريد التوصية به كمصدر دخل لمصر مكمل للقطن . ولا نقصد بذلك مجرد وضع رسم جمركي عالٍ يمنع ورود المقدار الذي لا يذكر من منتجات الألبان التي تأتي مصر الآن من الخارج . فانه لو رفعت اسوار مصر بتعريفة عالية تحول دون ورود هذه المنتجات بتاتاً فان ذلك لن ينفع صناعة الألبان بمصر شيئاً ، تقريباً . لان هذه الوسائل السياسية لاتجدي نفعاً والنجاح لايبنى إلا على أسس اقتصادية ثابتة . فبدلاً من أن ترفض مصر الواردات يجب ان تسعى لان تنتج صادرات . لذلك سوف نحاول ان نبين ان مصر تملك مصادر طبيعية كافية تستخدم كأساس اقتصادي ثابت لانشاء صناعة ألبان تنافس أمثالها في سوق العالم بامتيازات محسوسة

مكتبة المقتطف

Contribution à une théorie Sociologique de l'Esclavage
par le Docteur Aly Abd Elwahed

هذا من الكتب التي يجدر بنا ان نجعلها تلقاء الكتب التي يؤلفها الافرنج . ذلك لانهُ مبني على الاسلوب الحديث في البحث والتأليف . وموضوعه الرق والغاية منهُ اثبات نظرية جديدة تعلل وجود الرق في العالم قديماً . ومؤلف هذا الكتاب الدكتور علي عبد الواحد مدرس الفلسفة في دار العلوم وفي قسم التخصص في الازهر . وقد قدم الكتاب في السوربون لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب فنالها بتفوق . ولنذكر شيئاً عن ذلك الكتاب مرتقبين ترجمته لنسهب في وصفه :

ان بحث الدكتور عبد الواحد يبسط على عدة امم . فهو يتناول العبرانيين والاغريق والرومان والمسلمين وسكان جزائر الانتيل (الهند الغربية) فيما بين امريكا الشمالية وامريكا الجنوبية

وبحث الدكتور قائم على درس الاوضاع القانونية والنظم الدينية والمؤلفات الادبية والنصوص التاريخية . وقد قسم الدكتور كتابه الى قسمين : فانهُ وقف القسم الاول على وصف الاحوال التي يترتب عليها الرق ووقف الثاني على تعليل تلك الاحوال . ففي القسم الاول بسط كيف ينشأ الرق (١) عن الولادة على شرط ان يتم الوليد بسبب الى ارقاء (٢) عن الأسر في الحرب وعن السبي (٣) عن العجز عن دفع الديون (٤) عن الزنا — وقد عزا كل حال من تلك الاحوال الى الامة التي اختصت به . واما في القسم الثاني فقد اخذ المؤلف يدفع تعاليل العلماء للرق ثم شرح تعليله فقال ان الارقاء يجلبون من افراد مهددين بالموت بموجب قوانين طبيعية او اجتماعية ، وما الرق الا حال تحل محل الموت . وبعد ما اثبت المؤلف نظريته اخذ يدعمها بالحجج وهنا نظن انهُ اغتصب الوقائع شيئاً الحين بعد الحين لكي تساير نظريته

***

ولهذا الكتاب الجليل ذيل عنوانه « تميز المرأة من الرجل من حيث الرق » . وموضوع ذاك الذيل فريد في بابه

المرافعة والقضاء

المرافعة — للاستاذ حسن الجداوي وكيل النائب العمومي . فن القضاء — للاستاذ حليم سيفين قاضي متقاعد ومحام

لا بدَّ للقاضي العظيم من ان يكون رجلاً عظيماً . يجب ان يكون حائزاً ادراكاً كاملاً لنسيج الحياة المتصل ، وفهماً للتقاليد التي لا نستطيع ان نخرج منها . يجب ان يكون قادراً ان يفكّر تفكيراً منطقيًّا مجرّداً ولكن يجب ألاّ يضحي بآمال الناس وامانيهم وحاجاتهم على مذبح المنطق المجرّد . يجب ان يكون قادراً على لمح المغزى الازلي في الشأن الحالي ، والمعنى العام في القضية الخاصة . ان ما يفعله القاضي هو تكوين المذاهب التي تتصرف فيها الحياة فعليه ان يكون فاهماً خطر العمل الذي بين يديه . يجب ان يشعر بالقوة التي تحت تصرفه وبالدعة في استعمالها . يجب ان يكون خادم العدالة لا سيدها ومنفذاً لضمير المجموع لا لاغراض اصحاب المصالح القوية فيه . يجب ان يتخلى عن الطموح الذي يحمل السياسيّ على السعي الى السلطة ويدفع بالمفكر الى وضع نظام عقلي مجرّد قد لا يستطاع تطبيقه . ان القاضي العظيم من اندر الشخصيات لانهُ وهو الساعي بتقرير استقلاله يجب ان يكون اعظم الناس سموًّا عن الغرض الشخصي . ان في القاضي الذي من هذا الطراز قبساً من روح الاله

والكتابان اللذان بين ايدينا يوضحان ما تقدم احسن توضيح . فالنيابة تشترك مع الدفاع في توضيح اصول القضية التي ينظر فيها القاضي وليس بين النيابة والدفاع خصومة الا خصومة الحق (المرافعة صفحة ٣٩) لذلك يجب ان يكون القضاء مستقلاً عن اصحاب الحكم ، والنيابة مستقلة عن القضاء في تأدية واجبها . ويلتقي الجميع في نشدان الحقيقة والعدالة

اما الكتاب الاول فلرجل من خيرة الادباء ، خبر المرافعة محامياً وفي مواقف النيابة . فهو يبسط اسرارها واساليبها ، بسطاً اخّاذاً ، لوكلاء النيابة واعضائها والمحامين على السواء . فيبين من ناحية ، التبعة الملقاة على عواتقهم في كشف الحقيقة ، واقرار العدل ، ويبسط من ناحية اخرى علاقة النيابة بالدفاع وعلاقتهما بالقضاء وبوزير الحقانية والمصلحة العامة ، وكل ذلك في اسلوب يحمل غير المعنيّ بشؤون القضاء الفنية ، ككاتب هذه السطور ، على مطالعة فصول الكتاب كأنهُ يطالع فصلاً من الادب العالي . ولا غروَ فادة المرافعة هي مادة الحياة . فاذا اجتمع في نفس المرافع — كما اجتمع في نفس الاستاذ الجداوي — القانون والادب ، كان النتيجة أمثال هذا الكتاب النفيس

اما الكتاب الثاني فلقاضٍ متقاعد ومحام خبير . يبسط لك الموضوع من ناحية القاضي فيعدد لك الصفات التي يجب ان يتميز بها في المعرفة وحسن التفكير وصدق الشعور والتجرد . فيقول في العقل القضائي مثلاً صفحة ٤٦ : « في هذا العصر الذي اتصلت فيه جميع مناحي

الحياة بالاختراعات المتوالية — ونشأت فيه علوم جديدة ذات علاقة دقيقة بالشؤون القضائية كعلم النفس والاجتماع ، صار لا يصلح لوظيفة القضاء رجل قانوني وحسب ، بل وجب على من يتولى الحكم في شؤون البشر ان يكون ذا نزعة علمية في تفكيره وذا اسلوب علمي في ابحاثه وتحقيقاته التي يريد ان يتوصل بها الى الفصل في المنازعات »

فالكتابان يكمل احدهما الآخر ، ويجب ألاّ تقتصر قراءتهما على اصحاب الفن من القضاء واعضاء النيابة والمحامين

صدّرنا هذه الكلمة بوصف القاضي الفاضل . ولا ريب في ان أي نظام يخرج قضاة من هذا الطراز يجب أن يقنع أصحابهُ والذين يراقبونهُ بانهُ نظام سليم . وقد اثبتت مصر في ادوارها المتعاقبة ، ان في مصر قضاة واسعي الاطلاع احرار الضمائر اقوياء التفكير . يصحُّ ان يقال فيهم ما قاله لفردريك الكبير ذلك الطحان الذي أمر ببيع مطحنتهِ للامبراطور فرفض وقال : — هل في قدرتك ان تأخذ طاحونتي . كان ذلك ممكناً لو لم يكن لنا في برلين قضاة

مناخ العالم

بقلم محمود سامد محمد — مفتش ادارة الميتيورولوجيا — مصلحة الطبيعيات بمصر

نهوض الامم وانحطاطها او بالحري تاريخها ، مرهون بخمسة عوامل أساسية ، في مقدمتها العاملان الجغرافي والبيولوجي . وكتابة التاريخ من وجههِ الاقتصادي لا يقوم في الواقع على الاصول الاصيلة التي شيّد عليها صرح العمران البشري . لان المعيشة الاقتصادية تقوم على اركان بيولوجية . فالاقليم من جهة وتكوين الارض الجيولوجي من جهة أخرى يعيّنان الاماكن التي تكثر فيها المواد اللازمة للصناعة والبلدان التي تترعرع فيها الصناعات وتزدهر . كذلك يعيّن الاقليم المنابع التي تفيض منها القوى الانسانية وتنطلق . ويسيطر على توزيع النبات والحيوان . وتغيّر الاقليم يبعث على الهجرة . والهجرة تسبب الحروب وما يأتي في أثرها من اختلاط وتلاقح بين السلالات والافكار

وهذا الكتاب يبيّن عناصر الاقليم — وقد دعاه المؤلف بالمناخ — واخترنا نحن لفظ الاقليم لانّ Climate مأخوذة من لفظ يوناني Klima معناهُ الاصلي المنحرف او مال استعملها اليونان لتدل على ميل محور الارض . فالتغيير في « الكليما » ينشىء تغيُّرا في مركز خطوط العرض بالنسبة الى الشمس وهذا يحدث تغيُّراً في احوال الحرّ وطول النهار وقصره . وراجعنا المعجمات العربية التي بين أيدينا فوجدنا بعضها يقول اقليم يونانية معرّبة فلفظ «اقليم» يجب ان يدل على المقصود بلفظ Climate وهو متوسط احوال الجوّ في عدد كبير من السنين لكل ساعة ويوم وشهر كما يقول المؤلف في حين ان الطقس Weather هو حالة الجوّ في وقت محدود

وقد بسط المؤلف ظواهر الاقليم كدرجة الحرارة في طبقات الهواء السفلى والعليا والقشرة الارضية والبحار والضغط الجوي والرياح على اختلافها والتبخر والتكاثف والرطوبة والضباب والسحب والعواصف وصفاً علمياً ضافياً . ثم تناول بلدان الارض ووصف مناخ او اقليم كلٍّ منها . وعمد المؤلف في بحثه الى الاحصاء من جميع ادارات الظواهر الجوية في الممالك المختلفة ، عدا ما يرد على مصلحة الطبيعيات بمصر من النشرات العلمية فجاء كتابهُ وافياً بالموضوع يصحُّ ان يكون مرجعاً وكتاباً مدرسيًّا في آنٍ واحد

كواكب في فلك

توفيق وهبه صاحب هذا الكتاب صحافي بارع يكتب بقلم أديب . وشاعر مقلٌّ ولكنهُ مجيد . فانت تنتقل في كتابهِ هذا من بحث اجتماعي في المبارزة الى آراء خفيفة في السياسة والاجتماع الى قصائد رنّانة في موضوعات تغلب عليه سمة الاجتماع والوطنية . وقد نشرنا لهُ بحثاً موجزاً في مقتطف يناير الماضي في «الرأي العام» يتبين منهُ القارئ اسلوبهُ في تصفية الحقائق الاجتماعية والتعبير عنها

يراسل المقطم والبصير من باريس . وينشئ المقالات في « لسان الحال » و « البرق » و « الصحافي التائه » وهي من امهات الصحف اللبنانية ، ويكتب في صحيفة الليبرتيه الباريسية في موضوعات شرقية ويشترك في ما يبذله طلاب العلم الشرقيون في باريس من نشاط ادبي وفني . فهو حركة ادبية دائمة وصلة متينة بين الشرق والغرب . وكتابهُ هذا صورة من نفسهِ . بل صفحة من حياته . فانت تلمس في سطوره روحاً شرقية صقلتها المعيشة في باريس وطبعتها بطابع الثقافة العالية ، ولكنها ما تزال روحاً شرقية في نزعتها الوطنية وحبها خدمة الشرق . فيجب ان يكون الكتاب وكاتبهُ مثلاً حيًّا لكثير من شبابنا الذين لا يرون خيراً بعد زيارتهم اوربا ، الا الاخذ بكل ما فيها ، كأن الزرع يجود في كل تربة على السواء

هرمن ودروثيه

تأليف غيته — نقلها عن الالمانية — الدكتور محمد عوض محمد

كتب الدكتور عوض فصلاً في حوته . على ذكر الاحتفال بانقضاء مائة سنة على وفاته جعلناه ملحقاً لمقتطف ابريل سنة ١٩٣٢ ، فكان له وقع كبير في نفوس القراء . لشموله اهم ما يعرف عن حياة جوته وادبه ، والدكتور عوض لا يكتفي بأن يقرأ سيرة جوته كما يكتبها المؤرخون بل يعمد الى مؤلفاته نفسها يقرأها ويعيد قراءتها ، ليتملى ما فيها من جمال وروعة وحكمة وفلسفة . ولا غرو فترجم فوست لا يستطيع ان يفعل ما هو دون هذا من العناية

بآثار هذا العبقري العالمي . وها هي ترجمة « هرمن ودروثيه » تثبت لك ان الدكتور ماضر في عنايته بآثار جوته لا يثنيه ما يلقاه قارىء جوته من صعاب وغوامض. بل ان الترجمة الناصعة التي بين ايدينا تبين انهُ تغلب بالعزم والذكاء على الصعاب فتخطاها وعلى الغوامض فاجتلى حقيقتها . وقد وضع الدكتور طه حسين فصلاً أدبيًّا بليغاً في تقديم هذه الرواية ، حبذا الحال لو ان المقام اتسع لنشره برمته او لاقتباس اهم ما جاء فيه . فنكتفي بجملة قالها في وصف ابطال جوته. قال في صفحة ٣ من المقدمة :

ابطال جوته كأبطال هوميروس . فيهم سذاجة حلوة . وفيهم دعة كلها عذوبة . وفيهم على ذلك شدة فيما لا بدَّ من الشدة فيهِ . يتحدث بعضهم الى بعض فيمزجون اغراض الحياة اليومية بهذه الحكمة الشعبية الخالدة. ويصورون لك انفسهم في هذا الحديث . وهم اذا تحدثوا احيوا من حولك كل شيء . وأجروا الحركة في كل شيء . واشركوك معهم ومع الاشياء في هذه الحركة وهذه الحياة . وهم لا يحبون ما تألفه نحن من الايجاز في الحديث والاعراض عما لا حاجة اليه ولكنهم يلمون بكل شيء ويفصلون كل شيء ويكشفون لك من اشياء قيمة في هذا التفصيل الذي كنت ترى ان لا حاجة اليهِ»

وبعد فعندنا ان ترجمة الخالد من آثار الادباء النوابغ في الغرب ، ترجمة امينة بليغة — كترجمة الدكتور عوض — خير وسيلة لدرس الادب الغربي وتلقيح الادب العربي بخير ما انتجته القرائح في الغرب. وان الاكتفاء بالتلخيص وترجمة الشذوذ لا يحقق هذين الغرضين

الامواج

نظم احمد الصافي النجفي يقع في نحو ١٤٧ صحيفة من القطع المتوسط

لسنا نتردد « في حسبان هذا الكتاب من البواكير المجيدة التي تدل على رغبة الشعر العراقي في التخلص والانفكاك من اغلال الشعر التقليدي الذي لا يزال غالباً على شعر هذا القطر العربي الاصيل . وكم كنا نود وقد نحا الاستاذ النجفي او كاد ينحو من أسر التقليد العربي ان لا يقع تحت تأثير ما . غير اننا مع احساسنا بطبعهِ الحر اشعر ايضاً بالروح الفارسية تطالعنا في جانب كبير من شعره . ولا شك أن هذا الاثر قد جاءه من طريق اتقانهِ للفارسية وولعه بطالعة الخيام . وقديماً نفذت الروح الفارسية الى اساليب البيان العربي ولاسيما في شعر ابن المعتز ولكننا الآن نجد هذه الروح الفارسية محاكية لشاعر بالذات هو الخيام في الغالب والفردوسي. اما في شعر ابن المعتز فهذه الروح الفارسية لا نجدها محاكية لشاعر بعينه وانما نلمحها هناك لمحاً شائعة في ادب عام هو ادب الفرس الرقيق . وليس هنا موضع استقصاء هذا البحث وانما نريد الاشارة اليهِ لاغير. على ان تأثر الصافي بالروح الفارسي لم يقف بهِ عند حد تقليد الفرس

وحسب بل قاده ايضاً الى محاكاة ابن المعتز فهو يقول في قصيدة الشاي (مذاب عقيق صب في كأس جوهر) ونجد ابن المعتز يقول في شيء قريب من هذا ان لم يكن هو

وممطق يسعى الى الندماء بعقيقة في درة بيضاء

وطبيعي ان محاكاة الصافي لابن المعتز طبيعية ما دام ان الاخير كان هو الشاعر الوحيد الذي غلبت عليه هذه النزعة الفارسية حتى كاد يعد في شعراء المتقدمين صاحب لوائها

اما الروح السائدة في هذا الكتاب فهي الروح الشعبية التي تعم الاقطار العربية الآن وتستطيع أن تلمح ذلك مجسماً في قصيدة اتفلاح ولعل ذلك ما حدا بالناظم الى الابتداء بها كذلك لغة الديوان واكثر اخيلته ومعانيه فقاما يرتفع الناظم في ذلك كله عن الشعب. خذ مثلاً قصيدة اليتيم وانظر كيف تصور لك بؤسه وانا واثق انك لن تجد في هذه القصيدة الطويلة الا وصف البؤس المادي الذي لا يخرج عن حزن اليتيم لاجل لعبة يلعب بها . او ثوب يفرح به . وهذا حسن ولكن الذي ليس بالحسن هو أن يسكت الشاعر عند هذا الحد المادي كأن بؤس اليتيم وشقاء اليتم هو في الفقر الى المال لا غير اما فقد الحنان الابوي في ذاته اما الحزن المبهم المبهم الذي يصيب روح اليتيم فيكسو وجههُ صفرة حائلة لا يعرف لها مأتى اما هذا الالم النفسي الذي تحس به روح اليتيم قبل ان يدركه عقله كل هذا فليس له نصيب في هذه القصيدة لا لشيء الا انها الروح الشعبية العامة في بلاد العرب وهي هي هذه الروح الحسية المادية التي يجب على الشعر ان يعالجها في اول ما يطلب من اغراض

على ان الاستاذ الصافي عند ما يمسُّ الموضوع الذي ينظم فيه نفسه واوطاره فانه يحلق بك الى سماوة الشعراء المجيدين وناهيك بقصيدة (سراجي) وشرعك بالقصيدة التي جعل عنوانها (ماسم هذا اليوم) فانها والحق يقال جمعت اهم عناصر الشعر المختار فهي في مبناها ومعناها وغايتها تدنو بصاحبها الى غاية الشعر العالي الذي يذهب اليه

ولا يسعنا الا استرعاء انتباه القراء استرعاءً خاصًّا الى ما جاء في هذا الكتاب تحت عنوان (انغام مشوشة) فلعل تحت هذا العنوان احسن النظم الذي في هذا الكتاب «زهير»

رواية مريض الوهم

هي رواية تمثيلية هزلية أدبية مضحكة اصدرتها مكتبة صادر في بيروت وهي من مؤلفات موليير الروائي الفرنساوي الشهير وتعريب الشاعر الناثر الياس ابو شبكه . ثمنها سبعة فرنكات خالصة اجرة البريد ترسل حوالة بوسطة باسم سليم ابراهيم صادر صاحب مكتبة صادر في بيروت صندوق البريد رقم ١٠

المفكر والعالم

مجموعة دراسات اجتماعية وأدبية مذيلة بترجمة — بقلم ابراهيم المصري — في ٢٩٢ صحيفة قطع متوسط — نشرته مكتبة سادة بمصر

المفكر والعالم قوتان تحاول كل واحدة منهما أن تصرع الاخرى . وفي صحائف التاريخ صور رائعة لهذا النضال ، فأبطال الفكر يقومون بنشر آرائهم فيجدون في العالم قوة جامدة تحاول أن تصدهم فلا يخضعون لها ويمضون في سيرهم حتى يصطدموا بتلك القوة فتحطمهم . وهنا يغطى الستار الذي يستدل على حياة الضحية وراءهُ مشاهد أروع فاذا ارتفع الستار بعد حقب وجدت تلك الافكار التي حاولت ضحيتها أن تذيعها قد صرعت العالم وصبغته أو كادت تصبغه بلونها

وكتاب ابراهيم المصري الأخير « هو صور عابرة من ملايين الصور لبعض وجوه هذا الصراع الأبدي » وقد عالج فيه بعض المواضيع التي تشغل العالم الآن فهو في مقالهِ «معنى الحضارة» يرى أن الحضارة وهي تتلخص في ظاهرتين : رغبة الانسان في حاجات متعددة ، والعمل الذي يقوم به لقضاء هذه الحاجات . يراها لا تستقيم إلا بظاهرة أخرى ولا توجد إلا متى توافرت عناصرها وهذه الظاهرة هي الاحساس بالحق . ولانعدام هذه الظاهرة يرى ان الحضارة الحديثة ناقصة لأنها مازال أنانية النزعة لاتقيم للاعتبارات الانسانية كبير وزن ومن هنا تنشأ العطلة ويتفشى الفقر ... وفي مقالهِ « الحضارة والآلات » يعرض للموضوع الذي يراه بعض الكتاب في اوروبا وأميركا خطراً عظيماً تهدد فيه الآلاتُ مستقبلَ الحضارة ومصير البشرية ، فهو يرى ان الاضطراب الذي نشهدهُ في العالم ليس المسئول عنهُ تلك الآلات وانما الاضطراب فينا فكما اخترع الانسان الآلة بعقله ففي وسع عقله ان ينظم انتاجها بحيث يقضي هذا التنظيم الى اجراء التعادل بين مطالب البدن ومطالب الروح . . . وفي بقية مباحث الكتاب « الفنون والآداب في عصر الآلات » و « اضطراب أوروبا» و« الفن والقوة » وغيرها يبدو ابراهيم المصري المطّلع الذي يقرأ ثم يخرج برأي متّزن

وقد وازن بين الكاتب الالماني اميل لدوج والكاتب الفرنسي اندريه موروى فيما يكتبان من التراجم ، فالأول له نزعة يغلب عليها الطابع الرومانتيكي فهو يبالغ في رسم العواطف والحوادث مضفياً عليها ثوباً من الخيال الشعري بعد أن يجسمها كما يفعل القصصيون ، أما الثاني فهو يترع الى البساطة والدقة وتحري الحقائق التاريخية الممكنة والبحث عن مستندات تكشف عن بعض الجوانب الغامضة في حياة المترجم له وهو في ذلك لا يجبرك كأميل لدوج أحياناً على قبول تلك الشخصية كحقيقة مقطوع بها . . . وقد رسم المؤلف صوراً صغيرة ولكنها تبعث في القارىء تأملات طويلة صوّر فيها الشاعر بودلير والقصصي مارسيل

بروست — أما مقاله «غرام ميكل انجلو» فهو قطعة من الشعر كتبها من روحه ...

وابراهيم المصري أحد الكتّاب الذين يحرقون أنفسهم فيما يكتبون فتحس في كلماتهم نغمات لا تخمد ، ولهذا فهو دائماً يكتب ما يريد لا ما يريد الجمهور ، يحاول ان يرفع القارىء معهُ لا أن ينزل حيث القارىء

ودراستهُ « نحو النور » التي تملأ حوالي ١٦٠ صفحة من هذا الكتاب في أربعة فصول هي دون مبالغة احدى روائع الأدب العربي الحديث والتي لو عُني بترجمة عيون أدبنا كانت إحدى هذه العيون . أحسَّ كأن الكاتب يفنى وهو يكتبها ، وأشعر كأنه قد كتبها بأعصابه يتمثل فيها صراع الفكر والعالم بأروع مشهد ... أديب يحاول أن يحرر أفكار اهل وطنه ، يحاول ان يرفع مستواهم ، يحاول غير ذلك من المُثُل العليا وفي هذا السبيل يدوس على كل رغباته الذاتية او يشيح بوجهه عما يحاول صدّهُ من متاع الدنيا ويأبى العالم إلا أن يكون قاسياً فتتكالب عليه جميع عناصر قوته ، ويأبى أتون الألم إلا ان يكون ملتهباً الى النهاية لا يرحم الضحية التي تقدم نفسها طواعية اليه وتدبُّ أفاعي الانسانية ظمأى الى دم الضحية نهمة تشتهي نهش لحمها وتتغلب القوة التي لا تعرف نظاماً أو واجباً فتسدل الستار على فجيعة مؤلمة ، ويخبو الفكر الذي اشتعل ولكن لن تموت مبادئه وانما تسري من وراء الستار في دم العالم حتى يثوب الى رشده فيظهر أثرها

غير أني ما زلت أعثر على تعبيرات أشرت الى مثيلاتها عند ما كتبت في العام الماضي هنا عن كتابه « الأدب الحديث » وقلت ان هذه التعبيرات التي مرت اليه من مطالعاته في الأدب الفرنسي قد لا تتفق وأفقها لن تتفق مع روح الادب العربي ، ولست في هذا بالجامد وانما أنا من المرحبين بتلقيح أدبنا بما يمكن وما يصلح من غيره إلا ان أمثال هذه التعبيرات كالنكتة لا تصلح في الطبقة «البلدية» منها ما تصلح في الطبقة الراقية . وقد حاولت أن أجد في مقاله «فن الاسلوب» ردًّا على هذا فلم أجد إلا حجة ضده فهو يؤاخذ من يطالبون الكاتب بأن يصطنع التعبيرات التي مشى عليها الجاحظ والجرجاني وابن المقفع والمبرّد وغيرهم ويرى أن «الظالمة ان هي ربت في الكاتب ملكة اللغة وزوّدته بالمحصول اللفظي الذي هو في حاجة اليه فهي لا تخلق أسلوبه وكذلك السطو على التراكيب العربية لن يمرّه على الناس ان الكاتب صاحب شخصية مستقلة وأن له اسلوباً » ويرى انه « يجب ان يقف الكاتب على جميع الاساليب ويشربها نفسه ويتغذى بها ثم يهضمها ويبدع منها أسلوباً حيًّا طريفاً لا يمت لأحد منها بصلة »

وهنا أسأله أما تمتُّ هذه التعبيرات الى شيء آخر بصلة ما ؟ يجب ان نجدد وان نبدع تعبيرات مبتكرة أو مأخوذة ولكنها تتلاءم وروحنا الأدبي

حسن كامل الصيرفي

مقالیس الکتب

١ — كتاب « حافظ وشوقي »

تأليف الدكتور « طه حسين » مطبعة الاعتماد سنة ١٩٣٣

الدكتور طه حسين رجل غير مجهول حتى نعفّي انفسنا ونعفّي القراء معنا بالقول في آثاره الأدبية الكثيرة والتي استفاضت في هذه المدة الاخيرة اكثر من ذي قبل . وكتابهُ هذا فيهِ آراءٌ لهُ كثيرة مشهورة لانهُ مجموعة مقالات نشرت قديماً وحديثاً أحبّ الدكتور طه ان يذيعها بين الناس في كتاب يسهل تناولهُ اذ كانت مشتتة في الجرائد والمجلات التي نشرت فيها . وليس هذا الكتاب كما يُفهم من عنوانهِ — كتاباً في حافظ وشوقي ليس فيهِ غيرهما . لا . . . . . بل كما سمّيت مختارات أبي تمام بالحماسة لان الباب الاول من ابوابها الكثيرة هو باب الحماسة فكذلك سمى الدكتور كتابه هذا باسم « حافظ وشوقي » بالمقالات الاخيرة فيهِ عن حافظ وشوقي ، ولأنهُ صدر بعد الحدَثِ الذي اشتغل بهِ العالم العربيُّ بموت هذين العَلَمين في الادب . ومقالات الدكتور طه التي في هذا الكتاب لا تحتاجُ إلى كلامنا فانما هي مقالاتهُ التي احبهُ كثيرون من اجل آرائهِ فيها وتحاسل عليهِ آخرون من اجل هذه الآراء . فليس من الرأي ان نتناول هذا الكتاب في باب المكتبة لان ما فيهِ من الآراء يحتاجُ في نقده الى إطالة وتوسُّع تضيقُ بهما هذه الصفحات القلائل

٢ — كتاب الرثاء

لشعراء تمام ، والبحتري ، والمتنبي — تأليف أدبية فارس — مطبعة الاعتدال بدمشق الشام

هذا الكتاب (رسالة اجتزأت بها مؤلفتها امتحان شهادة الآداب العليا بالجامعة السورية سنة ١٩٣٢) وقد اجادت الآنسة الادبية « أديبة فارس » فهم الشعر الذي تعرضت له . فاختارت من شعر ابي تمام قصيدته في رثاء ولده الذي توفّيَ

كان الذي خفت ان يكونا إيّاه إيّاه راجعونا

ومن شعر ابي عبادة البحتري قصيدة في رثاء خليفة جعفر المتوكل العباسي المقتول وأولها

محلٌّ على القاطُول أخلَقَ دارُهُ وعادت عُرى الدمع جفناً تُعاوِدُهُ

ومن شعر ابي الطيب المتنبي رثاءه لجدته التي اولها

ألا لا أُري الاحداث مدحاً ولا ذمّا فما بطشها جهلاً ولا كفّها حلما

وقد وضعت المؤلفة الموفقة القصائد تامة في اول رسالتها مع ترجمة مختصرة لكل شاعر من هؤلاء الثلاثة ثم اتبعت ذلك بكلامها وفهمها رثاء في الرثاء ما هو وقد اجادت . ثم اخذت كل قصيدة بمفردها فنظرت فيها رأي بلاغة الرثاء فيها نظراً جيداً وتكلمت على ابيات كل منها وموضع الاحساس في ابياتها وعارضت بين القصيدة المعارضة صادقة . والذي يفرحنا من

هذه الرسالة ان مؤلفتها امرأة ، ثم امرأة متعلمة ، ثم ادبية ، ثم ناقدة . وقلَّ ان تجدَ في النساء الاديبات اللواتي يفرغنَ للادب وقتهنَّ وهمَّهنَّ ايضاً . وللآنسة اديبة فارس ، اسوة مجدَّتها سكينة بنت الحسين رضي الله عنها التي استحق ان تنقدها وبصرها بالأدب طول الشعراء من الاولين كعمر بن ابي ربيعة ونُصَيْب الاسود وجميل العذري وكثيِّر عزَّة الخزاعي وغيرهم من شياطين الشعر . وللآنسة « اديبة » فكرٌ جيد في فهم الالفاظ العربية ومواقعها من الكلام وان هي من معانيه المقصودة التي توافقها . وهذا اول اثر نراه لها فنسألها ان لا يستفزَّها ثناؤنا على كتابها هذا ان تطلب الاستزادة لتصحيح الرأي وتقويم الفكر واللسان والقلم . فان هذه اللغة الدقيقة العجيبة التي اختارها الله من لغات الناس لكتابه المُحكَم صعبةٌ شرود لا يصبر على معرفتها ومجاهلها الا من أُوتي جَلَداً لا يستضعف ، ورزق من دقة الاحساس نصيباً وافراً لا ينفد. وهذه الكتب العربية التي انقطعت بيننا وبينها الاسباب فاستعجمت على كثير منا نحتاج الى اجتهاد وجدّ حتى يعرف طالبها اسلوبها وما تنطوي عليه من معاني الجمال واتقن كما يقولون الآن . ولنا اكبر الامل في هذه الادبية الناشئة ان تكون من اللواتي يذكرهن تاريخ العربية من النساء بأجل الذكر

٣ — كتاب الخط الكوفي

تأليف الاستاذ يوسف احمد مدرس الخط الكوفي بمدرسة تحسين الخطوط الملكية بالقاهرة

لقد أتى على الخط الكوفي القديم زمنٌ والناس لا يعرفون منهُ الا اسمهُ ، ويرونهُ في المساجد ولا يحسن احدهم أن يعرف ألفهُ من يائهِ . ومن المخزيات ان لا تعرف الامة آثار آبائها واسلافها ، فانظر اي شيء هو حين لا تعرف الخط الذي به تعرف ما هي آثار آبائها وأسلافها . وكان من فضل بعض الناس علينا أن نشروا آثار اسلافنا ، وكان من فضل الاستاذ يوسف احمد على العربية ثم علينا أن رمى بنفسهِ في ظلمة الآثار البالية حتى استنارت بطلعهِ في معرفة اصول الكتابة الكوفية القديمة وتولى قراءة ما بقي لدينا من آثار آبائنا العرب. وهاهو قد أخرج للناس الكتاب الصغير الحجم العظيم الفائدة جعلهُ موجزاً وذكر فيهِ رأي مؤرخي العرب في اصل الكتابة العربية ثم اشتقاقها من الخطوط سابقتها وما حدث من التغير والتبدل والتدرُّج في الخط الكوفي وما تلا من فروع الخطوط العربية وأرفق ذلك بأمثلة وصور كثيرة للخط الكوفي . ونأمل ان يخرج المؤلف كتاباً مفصلاً في هذا وما ذلك على مثله بعزيز

٤ — صلاح الدين وشوقي

تأليف « محمد اسعاف النشاشيبي » مطبعة بيت المقدس بالقدس سنة ١٩٣٢

الكلمة الاولى فيهِ عن شوقي رحمة الله وقد قيلت في تأبينهِ ببيت المقدس والاخرى عن صلاح الدين فخر الامارة الاسلامية والحكم الاسلامي وبطل العدل والامانة وقيلت في مدينة

حيفا من فلسطين يوم ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٥١ وذلك في ذكرى موقعة حطّين في الحرب الصليبية . والكلام يتوجه فيهما — كما قال صاحب الكلمة — الى نصارى الغرب الذين يسومون الشرق سوء المعاملة لا الى مواطنينا من اهل الكتاب من نصارى العرب . وفي الكلمتين المذكورتين روح اسعاف النشاشيبي بعروبتها واخلاصها للعرب والشرق ، واللغة العربية الصحيحة التي توفّر على دراستها فأجادها وصار من بلغائها وخطبائها

٥ — كتاب الشخصية

تأليف السيد « لي آلن » ترجمة الآنسة « دلال صفدي » مطبعة الفرقان بصيدا سنة ١٩٣٢

يعنون بكلمة « الشخصية » ما كانت تعني العرب قديماً بكلمة « المؤدد » و« السيادة » وذلك ان يكون في خلق الرجل من المروءة وبعد الهمة والتواضع والاخلاص والورع عن دنيّات الامور والحلم والتغابي لا عن غباء والصمت لا عن عيّ ما يسود به في بيته ثم عشيرته الاقربين ثم الذين يلونهم حتى يكون سيداً مطاعاً في امة أو أمم او عقلا مخترعاً في جيل او أجيال . وكانوا قديماً يطلبون الاخلاق التي هي طريق المؤدد لانها من المروءة ، وقد ألفوا قديماً كتباً كثيرة في ذلك . واليوم تهتم امم الاعاجم من اوربا واميركا بالبحث عن اصول تكوين الشخصية وكيف يتيسر للرجل من الناس ان يكوّن لنفسه شخصية وقد ألفوا في هذا كتباً كثيرة خلتْ من مثلها العربية في هذا العصر . ولم أقف الاّ على كتابين بالعربية في موضوع الشخصية وثالثهم هذا الكتاب الذي ألفتهُ امرأة وترجمتهُ امرأة . وعلى صغر هذا الكتاب فان لهُ فائدة كبيرة . وقد ترك في نفسي اثراً قويّاً لا اقول لانهُ جيد جداً ولكن لانهُ أثار في نفسي الرغبة في الاستزادة من هذا البحث . ولولا ضيق المقام وان ابواب نقد الكتب في مجلاتنا لا تحتمل الاطالة والتوسع لاتّسع لي مجال القول في تفصيل الرأي في معنى الشخصية حديثاً ومعنى المؤدد قديماً والفرق بين الطريقين واي السبيلين اهدى واقوم ولاستطعنا ان نبين الرأي في تأثير المدنية الاوربية الطاغية في العلوم والآداب والاخلاق . . . . . إلى آخر ما يقال في هذا الشأن

ونقول في هذا الكتاب ان ترجمتهُ لا بأس بعربيتها من آنسة ، ونودُّ ان نرى لها آثاراً قوية خيراً من هذا الاثر وبخاصة في مثل هذا الموضوع « الشخصية » الذي يحتاج اكثر ما المرأة فانها هي مربية العالم من المهد الى اللحد وهي المدرسة التي يتخرج منها عظماء الرجال وقد قيل لأم معاوية بن ابي سفيان حين رزقت بولدها معاوية : « ليسودنّ قومه » فقالت : « لكلتشة ان لم يسدْ الاّ قومه » فما هدأت فتنة دم عثمان رضي الله عنه حتى وضع معاوية يده سيداً مطاعاً على اعظم امة في ذلك العصر . . . وذلك بفضل امه وما اخذتهُ به من ادب حتى ضرب به المثل في المروءة والحلم

٦ — كتاب امير الشعراء شوقي

جمع وترتيب « محمد خورشيد » استاذ الادب العربي بمدرسة المعلمين بدار بلس مطبعة بيت المقدس

كان شوقي وقد (ملأ الدنيا وشغل الناس) كما قالوا في المتنبي ، فلما ذهب به وانطفأ السراج واظلم البيت امتلأت الدنيا به مرة اخرى وقد خلت من شخصه وشغل الناس بذكره فاضطربوا وخاضوا بالقول فيه ونشر ما قيل فيه في جرائد العربية ومجلاتها في انحاء العالم وصارت شتاتاً لا يجمعهُ الحصر فلم كثير من الناس يجمع شتات ما قيل في شوقي ، فأول ما وصل الينا من ذلك هذا الكتاب وقد جمع فيه جامعه ما اختار مما نشر عن شوقي ونسب ما اختارهُ الى الجرائد والمجلات التي اختاره منها فكانت همة مشكورة لهُ وقدَّمهُ بمقدمة جيدة في شوقي وحياته

محمود محمد شاكر

كتاب ٢١ صناعة تفنيك

لقد أحسن الاستاذ حسني يوسف صاحب جريدة « لسان الشعب » بمصر اذ اخرج هذا الكتاب الذي يحتوي على « ٢١ صناعة تفنيك وتعلمك مختلف الصناعات والفنون بأسهل طريقة » فهو دعاية طيبة للصناعات وخطوة اولى في سبيل تركيزها في الاذهان . ومما يزيد في فائدة الكتاب انه سهل الأسلوب وقد عُني به من حيث الترتيب والتبويب ، فهو مفيد للعمال والصناع وربات البيوت ويطلب من مؤلفه بالبيعة رقم ٨ بالجمالية وثمنه ١٥ قرشاً

المطبوعات الجديدة

نقرُّ انا لم نشهد في خلال السنوات العشر الماضية نشاطاً في تأليف الكتب وطبعها كالنشاط الذي نشهده اليوم رغم الضائقة المالية الآخذة بالخناق . ولكنَّ الفكر الحرَّ لا يخفل بالضائقة ، بل قد تكون الضائقة حافزاً لهُ على الابداع والانتاج . لذلك نظلُّ مقصرين عن اللحاق بسيل المؤلفات التي تخرجها المطابع . وقد تناولنا في هذا الشهر نحواً من عشرين كتاباً بين اسهاب وايجاز وعلى الرفِّ امامنا عشرون اخرى او تزيد لشيء بوجه خاص الى ﴿ علم النفس ﴾ في جزئين تأليف الاستاذ حامد عبد القادر والاستاذ محمد عطية الابراشي . وقد اشترك معهما في تأليف الجزء الاول الاستاذ مظهر سعيد . وثمة كتاب آخر في علم النفس النظري والتطبيقي للاستاذ مظهر سعيد . وكتاب ﴿ في الصحة ﴾ للطبيب الجراثيمي احمد حمدي الخياط . وكتاب ﴿ الامراض السرية في الاقطار العربية ﴾ للدكتور حبيب صادر . وكتاب ﴿ حضارة مصر الحديثة ﴾ وهو مجموعة فصول لكبار الكتاب واصحاب الرأي في مصر جمعتهُ الجامعة الاميركية في القاهرة واخرجتهُ المطبعة العصرية . وبحثان في ﴿ تطور الصناعات المصرية ﴾ و« واحة سيوه » للدكتور حسين علي الرفاعي لمجتمع الاقتصادي بمصلحة التجارة والصناعة . كل هذه الكتب وغيرها مما اهدي الينا سنحتفل بذكره في مكتبة المقتطف في الجزء القادم اذ شاء الله

باب الأخبار العلمية

الالكترون الموجب

أو «البوزيترون»

ذكرنا في مقتطف مارس الماضي، في باب الأنباء العلمية، ان الدكتور بلاكت حقق هو والدكتور أ. كيسليني، في معامل كافندش بكمبردج، ما كان قد ذهب اليه الدكتور كارل اندرسن أحد اساتذة جامعة كاليفورنيا في سبتمبر الماضي، من وجود الكترون موجب وانه فالبساطة التي صحبت النظرية الالكترونية في بدئها قد زالت، اذ كنا نحسب الذرة كنظام شمسي فيه نواة في الوسط والكترونات اوكهارب تدور حواليه. وقد اصبحت لبنات الكون الاساسية اربعاً على ما نعرف الآن فنسة «البروتون» وهو نواة ذرة الايدروجين. وثمة الكهرب او الالكترون وهو ذرة الكهربائية السالبة. وثمة النيوترون الذي اكتشف في السنة الماضية وهو يحسب الآن بروتون واحد والكترون واحد وقد حشيكا معاً حتى كادا يتحدان. وثمة الفوتونات وهي ذرات النور او الطاقة. وها هو ذا الالكترون الموجب أو البوزيترون قد اقبل متشعاً بجلالة التصريح العلمي. ومن يدري ما يتبعه. ويضيف بعضهم الى ذلك دقائق «الفا» وهي الدقائق التي تنطلق من الراديوم ومنها تتألف نواة ذرة الهليوم. ولكن ما يربط هذه الدقائق معاً حتى تتألف منها نواة الهليوم؟

البروتون والالكترون دقيقتان من كهربائيتين مختلفتين. الاولى موجبة والثانية سالبة. ولكن كتلة البروتون تزيد ١٨٤٥ ضعفاً على كتلة الالكترون فكل كتلة الذرة تقريباً هي في البروتون. جرّد الذرة من الكتروناتها فتبقى كتلتها ما كانت عليه قبل تجريدها تقريباً

والبروتون كما قلنا هو نواة ذرة الايدروجين ولكن الالكترون لا يمكن تعريفه بنسبته الى اية ذرة واحدة دون غيرها

فني امكان الباحث ان يولد تيارات من البروتونات ولكنه اذا وزنها وجد وزن كل منها يقابل وزن ذرة من الايدروجين. فيخطر على البال بداهة، ان الالكترون «كهربائية» مجردة وان البروتون مادة عليها شحنة كهربائية. ولكن فصل الشحنة الكهربائية عن البروتون ظل متعذراً حتى قام اندرسن وبلاكت وأ. كيسليني بتجاربهم الخطيرة. والشحنة الكهربائية التي

مجرّد من بروتون واحد هي ما يعرف بالالكترون الموجب أو البوزيترون. فالبروتون ليس ضد الالكترون في تركيب الذرة ولكن البوزيترون هو ضدّه حقيقةً

***

اذا قال الطبيعي ان كتلة البروتون تزيد ١٨٤٥ مرة على كتلة الالكترون واجه مسائل معقدة كثيرة يثيرها هذا القول. لماذا تفوق كتلة الاول كتلة الثاني ١٨٤٥ ضعفاً لا الفي ضعف او ٢٥٠٠ ضعف او ٣٠٠٠ آلاف ضعف او اي عدد آخر؟ ولا ريب اننا اذ نصطدم برقم كهذا في موضوع اساسي كموضوع بناء ذرة الايدروجين لا بدّ ان يكون لهذا الرقم معنى خاص. فما هو هذا المعنى الخفيّ؟ لعلّ اكتشاف الالكترون الموجب او البوزيترون يمكننا من الاجابة عن هذا السؤال

كان من المتعذر حتى الآن ان يفصل الطبيعيون البروتون عن شحنته الكهربائية الموجبة. لتلك تعودوا ان لا يفرقوا بين البروتون — وهو نواة ذرة الايدروجين — وبين شحنته. اما وقد اثبت اندرسن وبلاكت ان الشحنة الكهربائية على البروتون مستقلة، فقد ارغما العلماء على النظر الى الموضوع نظراً آخر

فالمعروف ان كل عنصر من العناصر تقريباً مزيج. فثمة نوعان من الايدروجين تمتزجان معاً في الغالب. وثمة نوعان من الكلور. كذلك البرتاسيوم نوعان احدهما مشعّ والآخر غير مشعّ. وهذه الانواع تعرف بالنظائر Isotopes ومعنى لفظة ايسوتوب ان نوعي الايدروجين يحتلان مكاناً واحداً في جدول العناصر. فنوعا الايدروجين يحتلان المكان الاول ونوعا الكلور يحتلان المكان السابع عشر. وفي جدول العناصر بحسب ترتيب موزلي يوجد ٩٢ مكاناً

وكيف يعين مكان العنصر في هذا الجدول؟ يعين بالشحنة الكهربائية التي على نواته. ولما كان نوعا العنصر الواحد يحتلان مكاناً واحداً في الجدول فيجب ان يكون عدد الشحنات الكهربائية على نواتيهما واحداً. ولما كانا يختلفان وزناً ولا يختلفان في عدد شحناتهما فهذا دليل على ان بناء النواة يمكن ان يتغير ولكنه يظلّ محتفظاً بعدد واحد من الشحنات الكهربائية عليها. وليس ثمة من يعلم كيف تبنى النواة. ولعلّ في اكتشاف البوزيترون سبيلاً الى جلاء هذا السرّ

***

ولما كان معنى «الكترون» وحدة الشحنة الكهربائية سواء أكانت موجبة او سالبة اقترح احدهم ان يدل الالكترون الموجب «بوزيترون» Positron ويطلق على الالكترون السالب وهو ما كان معروفاً حتى الآن بالالكترون فقط لفظ «النجاترون» Negatron

كبر السن

نشر الدكتور دايشدسن الاستاذ بجامعة ايدين رسالة في المجلة الطبية البريطانية صرّح فيها بأن لا كباد السمك فائدة عظيمة في علاج الانيميا الخبيثة. والاسماك التي جرّب فعل

أكبادها في علاج الانيميا هي البقلة (God معجم لحيوان للاب انستاس الكرملي) والجُسّاس (Haddock معجم شرف) وضرب آخر يدعى whiting واسمهُ العلمي Gadus Vulgaris فيصحّ ان يترجم بالبقلة المألوفة، اذا جارينا معلوف باشا والاب انستاس على استعمال بقلة لـ Gadus

قتل الميكروبات بالبرد

يؤخذ من التجارب التي جرّبت حديثاً في جامعة تورنتو بكندا ان البردَ الشديد لا يقتل البكتيريا. فقد أخذت طائفة منها ووضعت في اناءٍ يحيط به الهليوم السائل — ودرجة برده ٤٥٠ درجة تحت الصفر بميزان فارنهيت وهي نحو ٢٦٨ درجة مئوية تحت الصفر — وظلّت هذه الميكروبات بضع أسابيع في الاناء المذكور ثم اخرجت فثبت انها تتوالد وتوالد آية الحياة او احدى آياتها. وهذه التجربة تدلُّ، على ان البرد الشديد في رحاب الكون لا يميت بعض اشكال الحياة الدنيا في انتقالها خلال هذه الرحاب على مطايا من الغبار الدقيق. ثم انها تدلُّ على ان البرد الشديد يحفظ الاطعمة من الفساد ولكنهُ لا يميت ميكروبات الفساد التي فيها

الحرب العالمية والثورات

[تابع مقال القضايا الاجتماعية]

ثم لما نشبت الحرب العالمية اضطرت الدول المتحاربة الى الاستعانة بكثير من المتحدات والنقابات والجمعيات حتى اذا عقد السلم وارادت هذه الدول الرجوع الى ما كانت عليهِ قبل هذه المجزرة الفزيرة وجدت نفسها امام جموع منظمة ذاقت لذة الاشتراك في الحكم وعرفت قيمة الخدمات التي ادتها للدولة لذلك لم يكن من المتيسر الخلاص من سلطتها بل ان الحرب زادت هذه السلطة قوة على قوة

وما جفّت دماء القتلى في الميادين الا والامة الالمانية في ثورة لا تدري ماذا تصنع، ذلك لان الامبراطورية الجرمانية التي قامت على تعاليم (هيجل) وانبسطت على مبادىء (نيتشه) العنيفة انهارت، فلما ارادت ان تتماسك لم تجد امامها مستنداً غير الطريقة البرلمانية لا لانها خير الطرق واجمعها لمذاهب المشتتة بل لانهُ ليس في الميدان غيرها، وقد غادر انهيار الامبراطورية الهيجلية فراغاً في ذهن الالمانيين لم يمتلىء، وقد اظهروا في انتخاباتهم المتكررة انهم غير راضين عن الحكم الديمقراطي، وآخر تجاربهم وأهمها تسليم مقاليد الامور لمتلر زعيم (النازي) وهي الفاشستية الالمانية، وفي عقيدتي ان هذه التجربة ستجد اقبالاً عندهم وتأييداً عظيماً لانطباقها على ميراثهم الفلسفي الوطني من جهة وملاءمتها لتدرج الحاضر من جهة اخرى، على ان التكهن بمصير العمال في بلاد صناعية كألمانيا حافلة بهم امر متعذر ولا بدّ لكل حكومة تؤلف هناك من العناية بشأنهم والالتفات الى مصالحهم ولعل في ذلك ما يحول دون خطرهم على الوضع الحاضر

الجزء الخامس من المجلد الثاني والثمانين

صفحة
٥٠٧ منديل (مصوّرة)
٥١٧ ماركس ومذهبه
٥٢٣ غرائب المنارة
٥٢٦ الله والشاعر (قصيدة) لعلي محمود طه
٥٣٦ في اي طريق تساق الحضارة ؟ لاسماعيل مظهر
٥٤٢ معرض المذاهب السياسية . للدكتور عبد الرحمن شهبندر
٥٤٧ اشراف بلاد العرب . لفؤاد حمزة بك
٥٥٣ فكاهة في نظرية النسبية . لنقولا الحداد
٥٥٦ فلسفة تاريخ الفلسفة . لعلي أدهم
٥٦٢ الحياة (قصيدة) لعباس الخليلي
٥٦٤ ظاهرة دُبلَر . لحمزه بها
٥٦٨ السوبرمان . لابراهيم مسلم
٥٧٥ شم النسيم . لناشد سيفين
٥٧٨ وزر الاديب . للدكتور ابراهيم ناجي (مصوّرة)
٥٩٠ من الارز الى الزوف . للدكتور امين المعلوف باشا
٥٩٦ الرحلة والرحالون . لنقولا زيادة (مصورة)
١٠٦ كتاب الاغاني . لعبد الحميد صالم
٤٠٦ الراديوم والعلم والصحة
٦١٢ الدين والعلم . لاسعد رستم

٦١٥ باب الزراعة والاقتصاد * صناعة الالبان في القطر المصري . للاستاذ مكيتز
٦١٩ مكتبة المقتطف * بحث في ارق . امراض الصفر والقضاء . مناخ العالم كواكب في فلك . هرمن ودرونة . الامواج . رواية مريض ابوهم . الفكر والعالم . مقاليد الكتب . حافظ وشوقي . كتاب الزهاد . كتاب الخط الكوفي . صلاح الدين وشوقي . كتاب الشخصية . كتاب أمير الشعراء شوقي . كتاب ٢١ صناعة تملك . المطبوعات الجديدة
٦٣١ باب الاخبار العلمية (مصورة)

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها ادارة المطبعة العصرية بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

صندوق بوستة ٩٥٤ مصر تليفون رقم ٩٧٣٦

ص	
٣٥	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثالثة)
٣٥	القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة اولى)
٧٠	القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥	القاموس المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠	قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠	قاموس الجيب عربي انكليزي فقط
١٥	قاموس الجيب انكليزي عربي فقط
٧٠	سقراط سبيرو عربي انكليزي (بالنقط)
٥٠	« سقراط سبيرو انكليزي عربي (بالنقط)
١٠٠	« سقراط انكليزي عربي وبالعكس
١٠	التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢	الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (بالنقط)
١٥	في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠	عشرة ايام في السودان « « «
١٢	مراجعات في الادب والفنون (للاستاذ عباس العقاد)
١٠	روح الاشتراكية (لنوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد زعيتر)
١٥	روح السياسة « « «
١٠	الاراء والمعتقدات « « «
١٠	اصول الحقوق الدستورية « « «
٢٠	الحضارة المصرية (لنوستاف لوبون)
٨	مقدمة الحضارات الاولى « «
١٠	الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥	ملتقى السبيل في مذهب الشيوه والارتقاء
١٠	اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠	مختارات سلامه موسى
٨	نظرية التطور وأصل الانسان « «
٢٠	بانا تول فرانس في مباذله (الامير شكيب ارسلان)
١٥	الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها (حسين عبدالله)
١٠	حصاد الهشيم (للاستاذ ابراهيم عبدالقادر المازني)
١٠	قبض الريح (« « « « «)
٨	نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠	رسائل غرام جديدة (للاستاذ سليم عبدالواحد)
١٠	الغربال في الادب العصري (للاستاذ خائيل نعيمة)
٥	حكايات الاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥	« « ثان « «

ص	
١٠	التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فهمي)
٥	خواطر حائر (للاستاذ الجمل)
٥	التعليم والصحة
١٥	الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥	ذكرا وانثى خلقهم « « «
٥٠	علم الاجتماع (جزآن كبيران) «
١٥	اسرار الحياة الزوجية « «
٢٥	المرأة وفلسفة التناسليات (للدكتور نظمي)
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها « «
١٥	الزبدة الحراء (للاستاذ احمد العماوي)
١٠	تايس « « «
٥	مكايد الحب في قصور الملوك (اسمنديل دافر)
١٠	اقصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠	مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢	رواية اموال الاسكندراد ، مصورة
١٠	رواية فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨	رواية الانتقام الغريب (اسمه خليل دافر)
٥	فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢	رواية بلوجرت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢	غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥	رواية روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥	رواية ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠	رواية بازديان ، ٣ اجزاء «
٢٠	رواية اللكة ايزابو ، اجزاء «
٢٠	رواية الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠	رواية عشاق فينيسيا ، جزآن «
١٦	رواية كابيتان ، جزآن «
١٦	رواية الوصية الحراء ، جزآن «
١٢	رواية طلبرج ، جزآن «
١٠	رواية فارس الملك «
١٠	رواية منطيا الانتقام «
٥	رواية المتكرة الحسناء «
٥	رواية مسوحة الاسود «
٥	رواية شهداء الاخلاص «
٨	رواية المرأة المفترسة «
١٦	رواية دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠	« فرنسوا الاول « «

المقتطف في الشرق الادنى

تطلب اعداد المقتطف — للبيع — في جميع بلدان الشرق الادنى — فلسطين وسورية وشرق الاردن ولبنان والعراق — من فروع شركة فرج الله للسياحة في القنطرة وحيفا ويافا والقدس وبيروت وبغداد

مجلة الشرق

ادبية سياسية مصورة

انشئت للدعاية عن الشؤون البرازيلية ومآتي النزلاء الشرقيين في البرازيل تصدر باللغة العربية مرتين في الشهر — صاحبها ومحررها الاستاذ موسى كريم ويشترك في تحريرها طائفة من اكبر ادباء العربية في البرازيل

وبدل اشتراكها ٢٤٠ قرشاً صاغاً

وعنوانها Journal Oriente

Caixa Postal 1402, Sao Paulo, Brazil

مكتبة العرب

لصاحبها الشيخ يوسف توما البستاني

بشارع الفجالة بمصر

من اكبر المكاتب واوسعها نطاقاً حاوية على جميع الكتب النادرة من الكتب المطبوعة في جميع الاقطار ولها ذائقة مطولة توسعها عجاناً وايضاً فائقة بالكتب الخطية النادرة وتطبع وتشارك المؤلفين في طبع مؤلفاتهم ولها معاملات مع اكبر مكاتب اوربا واميركا والشرق الاقصى والادنى وتلبي جميع طلبات المهاجرين بأسرع ما يمكن

مكتبة العرب

لصاحبها الشيخ يوسف توما البستاني

بشارع النجالة بمصر

من اكبر المكاتب واوسعها نطاقاً حاوية على جميع الكتب النادرة من الكتب المطبوعة في جميع الاقطار ولها قائمة مطولة ترسلها مجاناً وايضاً قائمة بالكتب الخطية النادرة وتطبع وتشارك المؤلفين في طبع مؤلفاتهم ولها معاملات مع اكبر مكاتب اوربا واميركا والشرق الاقصى والادنى وتلبي جميع طلبات المهاجرين بأسرع ما يمكن

مجلة الشرق

ادبية سياسية مصورة

انشئت للدعاية عن الشؤون البرازيلية ومآتي الزملاء الشرقيين في البرازيل تصدر باللغة العربية مرتين في الشهر — صاحبها ومحررها الاستاذ موسى كريم ويشترك في تحريرها طائفة من اكبر ادباء العربية في البرازيل

وبدل اشتراكها ٢٤٠ قرشاً صاغاً

وعنوانها Journal Oriente

Caixa Postal 1402, Sao Paulo, Brazil

الاصلاح

مجلة منتقدة علمية

تصدر مرة في الشهر في بونس ايرس عاصمة الارجنتين

لصاحبها ومنشئها الدكتور جورج صوايا

بعنوانها شارع سان مرتين ٦٤٠ بونس ايرس

راديو مصر

بأول شارع فاروق عند اتصاله بالسكة الحضراء بعمارة الاوقاف

برقيه «مصر» تيفون رقم ٥٣٢٥٢

اذاعات غنائية . موسيقى . ضرب . اسطوانات منتقاة مساعدة في النهضة الاقتصادية لشعاره «معونة المصنوعات المصرية» ومساعدة التجار المصريين». مبدؤه نشر الثقافة العامة بين المصريين وبه قسم محاضرات مفتوح الابواب دائماً لكبار المحاضرين

ويطلب باستمرار بلاسبهات ووكلاء لخدمة التجار بنشر اعلاناتهم

فلاحة الارز

والذنيبة والذرة الحلو

طبعة ثانية

كتاب عملي فريد في موضوعه استيفاء واتقاناً وفيه ابحاث جديدة عن زراعة الارز خصوصاً بمصر واسبانيا

ثمنه ٤ قروش ويطلب من المكاتب بمصر ومن مؤلفه احمد الالفي بتفتيش الامير سيف الدين بوستة فرسكور